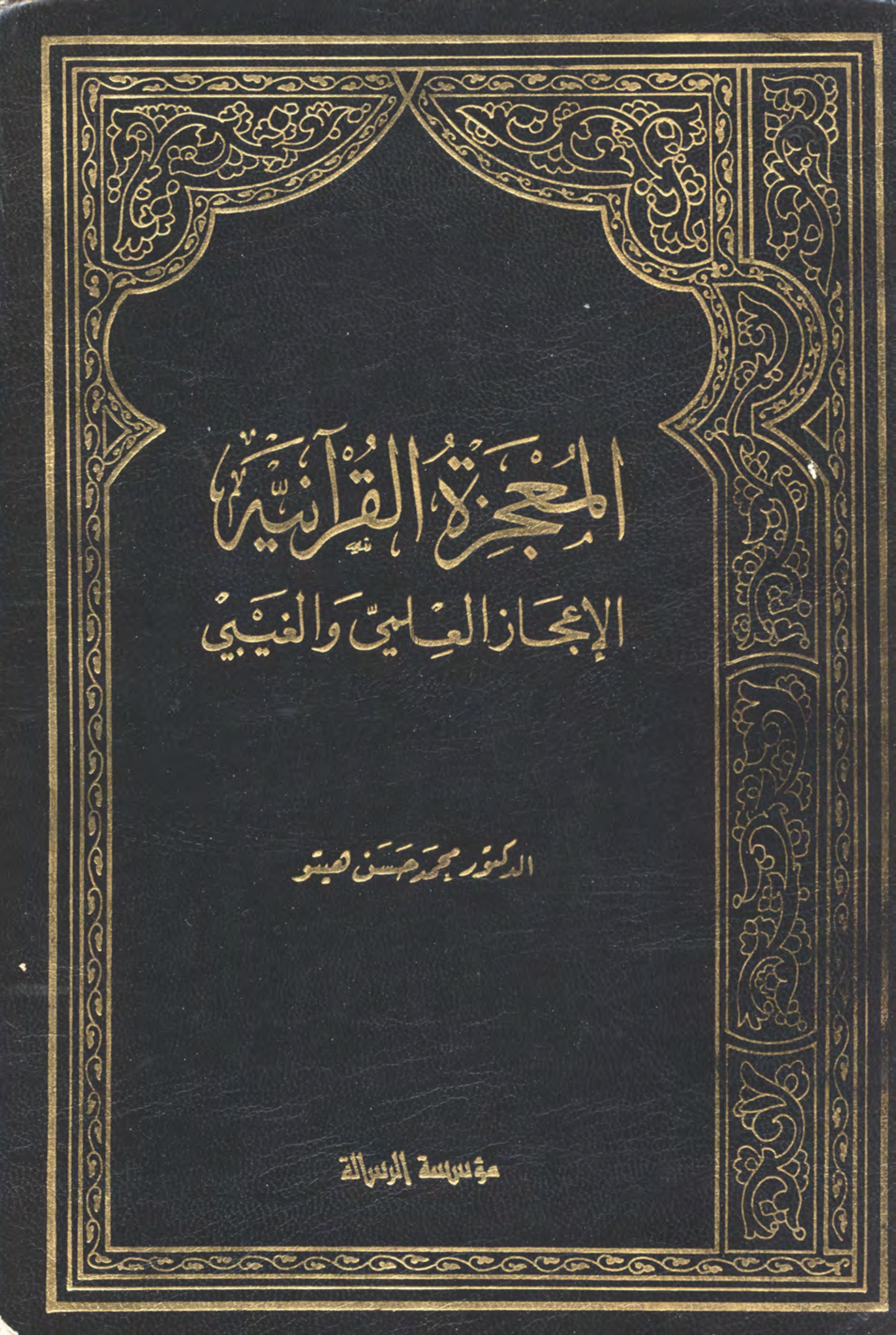

المعجزة القرآنية
الإعجاز العلمي والغيبي
الدكتور محمد حسن هيتو
مؤسسة الرسالة

المعجزة القرآنية

الإعجاز العلمي والغيبي

الدكتور محمد حسن هيتو

مؤسسة الرسالة



الطبعة الثالثة

١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٥١١٢ _ ٣١٩٠٣٩ _ ٦٠٣٢٤٣
ص.ب. :١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت _ لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112 - 319039 - 603243
P.O. Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com


المعجزة القرآنية
الإعجاز العلمي والغيبي



مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، فكان الآية البينة، والمعجزة الظاهرة، والدلالة القاطعة على صدق الوحي، وعظمة الموحِي.

والصلاة والسلام على رسوله الأمين، ونبيه العظيم، الذي أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، فكان حجة الله على الخلق: ﴿لئلا يكونَ للناسِ على اللّهِ حجةٌ بعدَ الرسل﴾.

ورضوان الله على الصحب الكرام، والأئمة الأعلام، الذين بذلوا وضحوا من أجل أن ينقلوا إلينا هذا الدين الذي حملوه، أداء للأمانة، ووفاء للعهد، لننقله نحن لمن يأتي وراءنا من الأجيال، وهكذا تستمر الرسالة، ويحفظ الشرع، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وبعد:

إننا ومنذ أن وعينا الحياة ونحن نُحَدَّثُ عن المعجزة، وأنها علم النبوة، فلا نبوة بغير معجزة.

فبالمعجزة يظهر صدق النبي، ويستدل على وجود الخالق.

ولولا المعجزة لادعى النبوة كل من يشتهيها.

قرأنا عن المعجزات المادية للأنبياء السابقين، التي آمن عليها من آمن من أقوامهم.

لكننا لم نرها.

وإنما آمنا بها لصحة الخبر عنها، إما عن طريق القرآن الكريم، وإما عن طريق السنة المطهرة.

وعرفنا أن تلك المعجزات قد ذهبت بذهاب النبي أو الرسول، لكونها مادية، لا تظهر إلا على يده، ولم يبق منها إلا الخبر اليقيني عنها، وهذا كاف للإيمان بها، بالنسبة لنا نحن المؤمنين، ولكنه ليس كافياً لدعوة الناس إلى الإيمان، لأن الخبر عن المعجزة ليس كالمعجزة.

ولذلك كان لا بد لكل نبي أو رسول من المعجزة الدالة على صدقه، ولو كان الخبر عن معجزة النبي السابق متواتراً، فليس الخبر كالمعاينة.

وكنا نُحَدَّثُ عن المعجزة الكبرى لنبينا محمد ﷺ، وهي القرآن الكريم.

وكنا نقرأ كيف كان الناس يعاينون تلك المعجزة، ويتأثرون بحلاوتها وطلاوتها، ومن ثم يؤمنون عن طريق الإعجاز اللغوي فيها، كما قرأنا ما وصفها به المشركون من العبارة الشيقة الرشيقة، التي أعلنوا فيها وبكل صراحة أن القرآن ليس من قول البشر، كعتبة ابن ربيعة، والوليد بن المغيرة، وغيرهما من فصحاء العرب وبلغائهم.

إلا أننا ومع الأسف، ولبعدنا عن لغة العرب وجهلنا بها، لم نتذوقها كما تذوقوها، بل أكثر الناس اليوم لا يدركها.

وامتدت بنا الأيام، وأدركنا التيارات الفكرية المادية والدينية تتصارع في ميدان النظر، وأدركنا أنه لا بد لنا من الاستناد إلى المعجزة القرآنية، وهي المعجزة الباقية الخالدة لنبينا عليه السلام، ولهذا الدين.

ولكننا لم نجد السبيل من حيث اللغة إليها، إما لأننا لا نتذوقها لجهلنا بلغة العرب وبعدنا عنها، وإما لأن المخاطَبَ لا يعرف هذه اللغة أصلاً ولا يتذوقها، وفي كلا الحالين لا سبيل إلى الاستدلال بهذه المعجزة من حيث اللغة إلا نظرياً، بواسطة إخبار القرآن عنها، ووقوع التحدي بها، وتواتر الخبر عن عجز العرب وغيرهم عن معارضتها.

وكون قلة قليلة من الناس - ولا سيما في هذا العصر - ممن أوتي بسطةً من العلم، في علوم العربية، قد تدرك وجه الإعجاز، ومن ثم يكتب بعضهم عنه،

كما فعل كثير من علماء أمتنا في شتى العصور، فإن هذا أيضاً ليس بكاف - لمن لا يعرف العربية من عرب وغيرهم - للتسليم بها ضرورة، ولئن وقع التسليم لبعضهم فإنما هو عن طريق النظر، لا عن طريق التذوق، كما كان يقع للعرب حين نزول القرآن.

لكننا نعلم أن نبينا عليه الصلاة والسلام هو النبي الخاتم للنبوة، ورسالته هي الرسالة الخاتمة للرسالات، وأنها باقية إلى يوم القيامة، وعامة لكل الأمم، في كل زمان ومكان، ولذلك كان لا بد للمعجزة من البقاء، ليعاينها كل من آمن أو دعي إلى الإيمان إلى يوم القيامة.

ومن أجل هذا كانت المعجزة القرآنية مشتملة على عدد من أنواع الإعجاز، إلى جانب الإعجاز اللغوي، الذي عاينه العرب وآمنوا عليه، يستطيع الناس بواسطتها أن يعاينوا المعجزة، ويتذوقوها، ويؤمنوا عليها، ولو كانوا لا يتذوقون لغة العرب، فلئن فاتهم الإعجاز اللغوي، فلن تفوتهم وجوه الإعجاز الأخرى أو بعضها.

وأنواع الإعجاز هذه، التي اشتمل القرآن عليها، لم تظهر دفعة واحدة، وإنما كانت تظهر تباعاً حسب مقتضيات الأحوال ومعارف البشر واحتياجاتهم.

فالإعجاز اللغوي ظهر وانتشر بمجرد نزول القرآن.

وأما الإعجاز الغيبي مثلاً فقد ظهر بنزول الآيات التي أنبأت عن غيب وقع أو سيقع، وأثبتت الأيام والوقائع صدق ما أخبر به القرآن، وذلك كالإعجاز الغيبي في سورة الروم مثلاً، فإنه لم يظهر بمجرد نزول الآيات المخبرة عن انتصار الروم على الفرس، وإنما ظهر بعد عدد من السنوات، حيث انتصر الروم على الفرس فعلاً في بضع سنين، كما أخبر القرآن، مما لفت نظر الناس كافة لفتة جديدة إلى القرآن.

والإعجاز العلمي المنتشر في كثير من سور القرآن وآياته، لم يظهر دفعة واحدة، وإنما ظهر تباعاً، ليكون القرآن دائماً وأبداً معجزة ظاهرة، وآية بينة، كلما أَلِفَ الناس ما فيه من المعجزة، وفترت هممهم عنها لإلفهم لها، ظهرت

معجزةً جديدة تلفت نظرهم إليه، وتدلهم عليه، فتجدد هممهم، وتبعث نشاطهم، وهكذا . . .

لقد جاء العصر الحديث، مع الإنسان الحديث، بمعارفه الحديثة التي اكتشفت الذرة، ثم حطمتها. . وأدركت جاذبية الأرض، ثم خرجت منها، وعرفت القمر ونزلت عليه، وأرسلت سفن الفضاء إلى كثير من كواكب المجموعة الشمسية، بعد أن كشفت عن الكثير من أسرارها، وعرفت عمر الأرض، وكشفت عن أحقابها الجيولوجية، ووضعت يدها على جميع أو معظم عناصرها، وسخرتها لخدمتها، وكل هذا كان في أغلب الأحيان على يد أناس لا يمتون إلى الإيمان بصلة، بل في كثير من الأحيان كان الكثير منهم يهزأ من الإيمان، والغيب، والألوهية، والنبوة.

وأخذ فلاسفة الإلحاد هذه النتائج العظيمة التي وصل إليها الإنسان الحديث، ليجعلوا منها وسيلة لفلسفة الإلحاد بقولهم: إننا كنا قبل الكشف عن هذه الحقائق العلمية مضطرين للإيمان بالله ونسبة الحوادث إليه، أما وقد عرفنا السبب والمسبب، والعلة والمعلول، عن طريق العلم اليقيني، فلم نعد بحاجة اليوم إلى عزو هذه الظواهر التي كنا نراها إلى قدرة الله . . .

وهكذا صارت للإلحاد فلسفة ظاهرة مستندة إلى العلوم المادية المعاصرة، يرجع الفلاسفة إليها، ويحيلون في النظر والحجاج عليها.

وهذه الفلسفة وإن كانت أوهى من بيت العنكبوت، وقائمة على التمويه، والتدليس، والخداع، بقصد، أو بغير قصد لضيق الأفق، أو العجز عن المحاكمة، أو تغليب الشهوة والهوى والاستسلام لهما، إلا أنها أمر واقع، لا يجوز التهاون به، بل يجب كشفه وبيانه، ودحضه وإبطاله[1].

وتعالت صيحات الإنكار على الدين في أوروبا والغرب، لاكتشافهم أن

---

(١) انظر: كتابنا الدين والعلم والذي عالجنا فيه هذا الموضوع بخصوصه، وبلغة الفلاسفة المعاصرين أنفسهم.

الدين الباطل الذي كانت تمثله الكنيسة يتعارض مع العلم الذي وضعوا أيديهم عليه.

وسرت هذه العدوى عن طريق ضعاف الإيمان إلى ديار الإسلام، بسبب ضعف المسلمين، وغفلتهم، وسيطرة أعدائهم عليهم.

وهنا ظهرت المعجزة القرآنية كالمارد الجبار، الذي لا يقف في وجهه شيء إلا حطمه، لتهز الأبراج الوهمية التي بناها فلاسفة الإلحاد بالتمويه والتدليس، على غفلة من دعاة الدين الحق وبعد عنهم، ولتقول للناس جميعاً، من مؤمن وملحد: مهلاً أيها الناس، فإن هذا الذي وصلتم إليه لن يكون سبباً للجحود والإلحاد، وإنما هو من أعظم دعائم الإيمان والإذعان... فتنبه كثير من علماء المسلمين إلى آيات الإعجاز العلمي في القرآن التي كانت قد نطقت منذ أربعة عشر قرناً... وفي الزمن الذي لم يكن فيه للمعارف الحديثة أي رصيد ـ نطقت بما وصلت إليه الحضارة الإنسانية المعاصرة في ذروة مباحثها ومكتشفاتها... بل أصبح بعض هذه الآيات شعاراً يردده كل علماء الكون والحياة صباح مساء، ويجعلونه الدستور الأبدي الذي تقوم عليه حقائق العلم والمعرفة.

تنبه علماء المسلمين إلى هذه الآيات، وأخذوا في عرضها عرضاً جديداً يتفق مع مدلولها اللغوي القديم، وهو في نفس الوقت ينطق بما وصلت إليه العلوم المعاصرة في نهاية مطافها، وذروة مجدها، مما جعل كل إنسان في الأرض، من مؤمن وملحد، يقف موقف الدهشة والذهول، والإعجاب والإكبار، أما المؤمن فزادته هذه الآيات المعجزة إيماناً، وصار يعاين المعجزة القرآنية كما عاينها العرب الأوائل تماماً، ولكن بلغة العلم، لا بأساليب البلاغة والبيان.

وأما الجاحد فكانت هذه الآيات كالصفعة العنيفة التي داهمته وهو في عنفوان غروره، مما جعله يتنبه إلى الحقائق التي كان في غفلة تامة عنها، وجعلته يراجع حساباته، ويعيد النظر في منطقه وفلسفته، وكثيراً ما دفعت المنصفين من أولئك الفلاسفة إلى الإيمان بالخالق العظيم العليم الحكيم.

وهكذا... وبعد القرون الطويلة.. وبواسطة المكتشفات العلمية الحديثة

أصبح الإنسان يضع يده في كل يوم على معجزة جديدة في كتاب الله، يظهر عظمة الخالق، ويدل الناس على أن هذا القرآن من كلامه لا من كلام البشر.

ولا أدري إلى أي مدى سيصل الإنسان في المستقبل من حيث العلوم والمكتشفات، ولكنني على يقين بأنه كلما تقدمت به العلوم، سيضع يده على معجزة جديدة في كتاب الله، كان في غفلة تامة عنها، ليعيش الإنسان، في كل زمان ومكان، مع المعجزة القرآنية، آية بينة، لا لبس فيها ولا غموض، تدل على أن هذا الكتاب من عند الله، ليبقى التحدي بهذا الكتاب الكريم، قائماً لأهل الأرض جميعاً، إلى يوم القيامة، يرشدهم إلى خالقهم، ويدلهم على قدرته وعظمته.

وهذا أيضاً نوع من أنواع الإعجاز في نظري، إذ من الإعجاز، بل من أعظم أنواع الإعجاز وأظهرها، أن يكون القرآن الكريم معجزاً لكل إنسان، في كل زمان ومكان، مهما ازدهرت الحضارة، وتقدمت العلوم، وزادت المكتشفات، وتباينت الثقافات.

وهذا معنى قول رسول الله ﷺ: «ما مِنَ الأنبياءِ نبي إلا أُعْطِيَ ما مثله آمنَ عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُهُ وحياً أوحاهُ الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثَرَهُمْ تابعاً يوم القيامة».

وإنني ومنذ أمد بعيد، أعد العدة للكتابة في موضوع المعجزة القرآنية، في أبرز جوانبها الثلاثة، وهي الإعجاز اللغوي، والإعجاز الغيبي، والإعجاز العلمي، إلا أنني كلما أقدمت على الكتابة وجدت أن الأمر أوسع مما كنت أتصور، وأنه يحتاج إلى طاقة أكبر، وأُفق أوسع، ولا سيما بالنسبة للإعجاز اللغوي ـ الذي أظن والله أعلم أنه يحتاج لكتابة أدق وأوسع وأشمل من كثير مما كتب عنه ـ ولذلك كنت أحجم عن الكتابة في هذا الموضوع العظيم، ثم بدا لي أن أبدأ بالكتابة عن المعجزة القرآنية في الجانبين الذين يمكن لأهل العصر استيعابها وهضمها، دون التوقف على معرفة اللغة، وأساليب البلاغة والبيان، وهما جانبا الإعجاز الغيبي والعلمي، مع التمهيد بمقدمة أبين فيها معنى

المعجزة بوجه عام، والمعجزة القرآنية بشكل خاص، وكيف ولِمَ كانت معجزة، كما أبين الأثر الذي تركته بين الناس عند ظهورها، وأثرها في سير الدعوة مع ذكر بعض وجوه الإعجاز التي أشار إليها العلماء قديماً وحديثاً، مبيناً وجه القوة أو الضعف فيها، فيما ظهر لي من النظر، ووصلت إليه من العلم.

ثم أعقب هذا كله ببيان مهزلة وأكذوبة الإعجاز العددي التي افتراها رشاد خليفة وَفَتَنَ بها كثيراً من الناس.

ولقد استفدت كثيراً من كل ما كتبه من سبقني في هذا الموضوع من العلماء جزاهم الله خير الجزاء، سواء أكانت كتابتهم في آية واحدة وموضوع معين، أم في جانب الإعجاز الغيبي أو العلمي بشكل مجمل.

كما استفدت كثيراً مما كتبه أو أشار إليه علماء الكون والحياة من غير المسلمين، مع فلسفته وتوجيهه التوجيه السليم، الذي يتفق مع الواقع، وبلغة العصر الحديث، لغة المنطق العلمي المعاصر الذي تعارف عليه الناس اليوم.

وأما الإعجاز اللغوي فسأفرده في بحث مستقل حينما يتوفر لدي ما أطمح إليه من مادته الغزيرة، ومصادره الكثيرة، ومنهجه الدقيق، وأفقه الواسع إلى جانب ما جمعته وسودته في موضوعه، في القريب العاجل إن شاء الله، والله ولي التوفيق.

الكويت　　　　　　　　　　د. محمد حسن هيتو

١٤٠٦ - ١٩٨٦

المقَدّمَة
في
المعجَزة وَالإعجَاز

(مقدمة حول المعجزة والاعجاز القراني)

ضرورة المعجزة للرسالة:

ما أرسل الله من نبي ولا رسول إلاّ وجعل له معجزة تدل على صدقه في نبوته أو رسالته، فتطمئن قلوب الناس بها، وتنشرح صدورهم إليها، ويقبلون عليها فرحين مستبشرين، راغبين لا راهبين.

ولولا المعجزة، لاختلط الحق بالباطل، والنبي الصادق بالمدعي الكاذب، ولادّعى كثير من الناس النبوّة والرسالة.

كيف لا..؟ وهي دعوى شيقة، وأمنية عظيمة، يتمناها كل إنسان، لو كان يتمكن من الوصول إليها.

ونحن ـ رغم وجود المعجزة، التي تعتبر الفيصل بين الصدق والكذب في الدعوى ـ رغم هذا، وجدنا كثيراً من الناس يدعون النبوّة، رغم أنهم لا يملكون المعجزة.

فكيف يكون الأمر لو لم تكن المعجزة هي الدليل على صدق الدعوى أو كذبها..؟.

كيف يكون الأمر لو كانت النبوّة دعوى بدون معجزة..؟.

لو كان الأمر كذلك.. لما وجد على الأرض دين يطمأن إليه، لأنه لا دليل يدل على صدقه.

ولذلك كان لا بدّ من المعجزة، يجريها الله على يد النبي أو الرسول، يعلّم الناس بواسطتها، أنه صادق فيما أتاهم به من عند ربهم، في دعواه أنه مرسل إليهم.

وبذلك يعرف النبي الصادق، من المدعي الكاذب، والوحي الحق، من النبأ الباطل.

وقبل الكلام على المعجزة وأنواعها، يجب علينا أن نعرف المعجزة، لنفرق بينها وبين ما يشابهها في الظاهر، من السحر، والكرامة، والاستدراج، وغير ذلك، من الأمور التي قد تَشْتبه بها، ولو ظاهراً، أو في بعض الأحوال.

تعريف المعجزة:

المعجزة: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، يظهره الله على يد الرسول أو النبي، تصديقاً له في دعواه، مع عدم تمكّن المرسل إليهم من معارضته.

وبيان هذا، أن لله في هذا الكون قوانين، ألفها البشر، وجرت بها العادة، بحيث صار من المستحيل في حكم العادة خرقها، من قبل أي إنسان كان، مهما أوتي من القوة، أو بلغ من العلم.

فإذا ما جاء إنسان، وادّعى أنه مرسل من عند الله، بدليل أنه قادر على خرق هذه الأحكام العادية، علمنا يقيناً صدقه في دعواه، بدليل خرقه لهذه القوانين، التي لا يمكن خرقها لأي إنسان، إلّا إذا أذن له بذلك خالقها.

فإذا ما خرقها علمنا أن هذا الخرق، إنما هو بقدرة الله، لا بقدرة البشر، وعلمنا أن هذا المدعي صادق في دعواه الرسالة، بهذا الدليل اليقيني الذي لا يمكن أن يفعل إلّا بقدرة الخالق.

ومثال ذلك قانون توازن السوائل، الذي قضت العادة فيه بأنه يجب أن تتساوى جميع أجزائه على مستوى واحد في السطح، في الحالات العادية.

فمن المحال عادة أن يقف الماء في الهواء كالجدار دون أن ينساب وتتساوى جميع أجزائه.

فإذا ما جاء إنسان، وادّعى أنه نبي، بدليل أنه يضرب البحر بعصاه، فينفلق البحر، ويقف الماء فيه كالجدار، وتتخلله الطرق، خارقاً بذلك العادة

المألوفة، كما حدث لنبي الله موسى عليه السلام، علمنا يقيناً أنه مرسل من عند الله، لأن مثل هذا العمل مستحيل في حكم القوانين العادية التي خلقها الله.

فلولا أن هذا الإنسان مؤيد بقدرة من الله، لما استطاع في حكم العادة أن يخرق هذه القوانين، فخرقه لها، دليل على أن الله الذي خلقها وخلق قوانينها هو الذي أرسله، وأذن له في خرقها.

وكتفجير الماء من الحجر الأصم، الذي يستحيل في حكم العادة أن يخرج منه الماء، فإذا ما ضربه إنسان بعصاه، وانفجرت منه العيون، يشرب منها الناس، علمنا يقيناً أنه مرسل من عند الله، وإلاّ لما استطاع أن يخرق مثل هذه العادة التي يستحيل خرقها.

وكإحياء الميت الذي جرت العادة في أنه يستحيل أن يرجع إلى الحياة ثانية.

فإذا ما جاء إنسان، وتمكّن من إحيائه ثانية، فعاد حياً يتكلم، يُسأل ويجيب، علمنا على القطع أن هذا الإنسان صادق في دعواه للنبوّة والرسالة، وإلاّ لما استطاع أن يعمل مثل هذا العمل الذي يستحيل في حكم العادة عمله، كما حدث لنبيّ الله عيسى عليه السلام.

إلى آخر ما هنالك من المعجزات التي يجريها الله على أيدي أنبيائه ورسله، تصديقاً لهم في دعواهم النبوّة أو الرسالة أمام من أرسلوا إليهم.

ويشترط في هذه المعجزة أن تكون مقرونة بالتحدي، يظهرها الرسول كلما دعت الحاجة إليها، يتحدّى بها المرسل إليهم أن يأتوا بمثلها، ليُظهر عجزهم عن معارضتها، ويُثبت دعواه في نبوّته ورسالته.

إذ لو تمكّن الناس من معارضتها، والإتيان بمثلها، لما كانت خارقة للعادة، ومن ثم لما كانت معجزة، ولما كان المدعي صادقاً في دعواه.

وكذلك الأمر لو لم يتمكن من إظهارها كلما دعت الحاجة إليها، وطولب بها، لتدل على صدقه فيما أتى به[1].

الفرق بين المعجزة وغيرها من السحر والكرامة:

عرفنا أن المعجزة أمر خارق للعادة، يظهر على يد النبي أو الرسول، وهو في حالته البشرية، بشر من البشر، فما الذي يجعلنا نميّز بين المعجزة وغيرها، مما يشتبه بها، من السحر، والكرامة، والاستدراج، مما ظاهره خرق للعادة، ويظهر على يد البشر؟.

ولنقف على جواب هذا التساؤل يجب علينا أن نقف على هذه الأمور التي قد تشتبه بالكرامة، لنبيِّن الفرق بينها وبين المعجزة، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وسنتكلم أولاً عن الكرامة، ثم الإرهاص، ثم المعونة، ثم الاستدراج، ثم السحر، ثم الإهانة، ونبيِّن الفوارق بينها وبين المعجزة.

الكرامة: أمر خارق للعادة، يجريه الله على يد أوليائه، المواظبين على طاعته، المجتنبين لمعصيته، المعرضين عن الانهماك في الملذات.

وذلك كجريان النيل بكتاب عمر ـ رضي الله عنه ـ حين هم أهل مصر على عادتهم قبل الإسلام بأن يلقوا فيه فتاة بكراً. ، لاعتقادهم أنه لا يجري إلّا بذلك، فمنعهم عمرو بن العاص من ذلك، وكتب عمر رسالة للنيل يقول فيها: «من عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد: ـ فإن كنت تجري من قبلك، فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهّار هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهّار أن يجريك»،

فألقى عمرو بن العاص الرسالة في النيل، وأجراه الله تعالى على غزارته

---

(١) جمع الجوامع ٤١٦/٢، غاية البيان ص ١١، طبقات الشافعية ٣١٥/٢.

التي كان عليها من قبل، بعد أن قلّت مياهه، ولحقت أهل مصر بذلك المشقة.

وكرؤية عمر ـ رضي الله عنه وهو على المنبر في المدينـة ـ جيش المسلمين بنهاوند، حتى قال لأمير الجيش: يا ساريةُ الجبلَ الجبـل، محذّراً لـه مَنْ وراء الجبل، حيث كان يكمن العدو، وسماعِ سارية كلامه، ونجاة جيش المسلمين، مع بعد المسافة.

وكشرب خالد بن الوليد السم، مع عدم تضرره به[1].

وغير ذلك، مما لا حصر له، من الكرامات التي جرت وتجري على يد أوليائه تعالى وأصفيائه.

وهذه أمور خارقة للعادة، فما الفارق بينها وبين المعجزة، وكل منها خارق للعادة؟.

الفارق بينها وبين المعجزة يظهر من عدة وجوه:

أولاً: وهو ما اتفق عليه العلماء، أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي لا يستطيع أحد من الناس معارضتها والإتيان بمثلها، بخلاف الكرامة التي لا تحدي فيها، ويمكن معارضتها، والإتيان بمثلها، بل بأبلغ منها، بأن يجريها الله على يد كثير من أوليائه، في زمن واحد، أو أزمنة مختلفة.

وثانياً: النبي يعلم بمعجزته، ويستطيع إظهارها كلما طلب منه ذلك، أو كلما دعت الحاجة إليها، يتحدى بها، وأما الولي فمن المحتمل أن لا يعلم بالكرامة قبل وقوعها، وإنما تجري على يده فجأة، ودون قصد، كما أنه من المحتمل أن يكون عالماً بها، إلاّ أنه قد لا يمكنه تكرارها، بأن تسلب منه، أو تقتضي الحكمة الإلهية تخلفها.

وثالثاً: زاد بعض العلماء أن الكرامة لا تصل لدرجة ولد من غير والد، أو قلب الجماد إلى حيوان، أو عكس ذلك[2].

---

(١) طبقات الشافعية ٢/٣٢٦، غاية البيان ص ١٤.

(٢) جمع الجوامع ٢/٤٠٠ بناني.

وإذا عرفنا هذا، عرفنا أنه لا يمكن أن تلتبس الكرامة بالمعجزة بحال من الأحوال.

وما ذكرناه عن الكرامة يمكن أن نذكره بعينه عن غيرها من الخوارق الأخرى، كالإرهاص، والمعونة، والاستدراج، والسحر، والإهانة.

فالإرهاص: ما كان مِنْ الخوارق على يد النبي قبل النبوة، كتسليم الحجر على النبي ﷺ بمكة قبل الوحي.

والمعونة: هي الخوارق التي تظهر من قبل عوام المسلمين، تخليصاً لهم من المحن والمكاره، بصدق إيمانهم، وحسن اعتقادهم.

والاستدراج: وهو من الخوارق التي تظهر على يد الفسقة، استدراجاً لهم، وهم مقيمون على معاصيهم.

والإهانة: كالاستدراج، وهي الخوارق التي تجري على يد الفسقة أو الكفرة، ولكن على خلاف دعواهم، تأكيداً لكذبهم، كما روي أن مسيلمة دعا لأعور لتصح عينه العوراء، فذهب ضوء عينه الصحيحة[1].

وأما السحر: فهو وإن كان ظاهره أنه أمر خارق للعادة، إلّا أن حقيقته ليست كذلك، وإنما هو مجرد إيهام وخداع وتخييل، قال تعالى: ﴿يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ (سورة طه: آية ٦٦).

وليس في السحر خرق للعادة في الحقيقة، ولا تغيير للحقائق، وإلّا لما وجدنا السحرة أفقر الخلق وأذلهم.

لأنهم لو كانوا قادرين على تغيير الحقائق، لغيّروا التراب إلى ذهب، ولما جلسوا في الملاهي وقوارع الطرق، يتكففون الناس، ويرضون بالزهيد اليسير، ولما انهار السحرة أمام موسى عليه السلام، بحيث لم يفلح واحد منهم قط.

بهذه الضوابط عرفنا الفرق بين المعجزة وغيرها من الخوارق، كما عرفنا

---

(١) جمع الجوامع ٢/٤١٦، وغاية البيان ص ١٤.

معنى قولنا: إن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، مما أغفلنا شرحه عند الكلام على تعريف المعجزة في الفقرات الماضية.

لأن معرفته متوقفة على ما ذكرناه الآن من أمر الكرامة وغيرها من الخوارق الأخرى.

وأما قولنا: إنها أمر خارق للعادة، إنما هو إشارة إلى أن المعجزة إنما تخرق حكم العادة، لا حكم العقل.

وذلك لأن أحكام العقل إما أن تكون مستحيلة، وإما أن تكون واجبة، وإما أن تكون جائزة.

والقدرة الإلهية لا تتعلق بالواجب، ولا بالمستحيل، وإنما تتعلق بالجائز.

والمحال العادي من مجوزات العقول.

ولذلك شرط العلماء في المعجزة أن تكون من متعلقات القدرة الإلهية.

تنوع المعجزة باعتبار المرسل إليهم:

إنه من الضروري أن تكون المعجزة من نوع ما يتعارف عليه القوم الذين أرسل إليهم الرسول، أو بعث فيهم النبي، حتى يتمكّنوا من تصورها تصوّراً صحيحاً، ليصدروا عليها الحكم الصحيح، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره.

فلو كانت المعجزة من نوع ما يجهله القوم المرسل إليهم، ومما لا يعرفون عنه شيئاً، لما كان بإمكانهم تصورها التصور الصحيح، ومن ثم لما كان بإمكانهم أن يحكموا عليها بالصدق أو الكذب، ولئن حكموا فسيكون حكمهم ساذجاً، صادراً عن عاطفة وعصبية، لا عن علم وخبرة.

ويمكن أن نزيد هذا الكلام وضوحاً ببعض الأمثلة البسيطة الآتية:

إذا جاء إنسان عبقري في فن الهندسة، مبدع في تصاميمها، وعرض

بعض تصاميمه الهندسية البديعة على أناس يجهلون هذا الفن، فإننا على يقين بأنهم سوف لا يقيمون لهذه الخطوط التي رسمها في أوراقه أي معنى من المعاني، بل ربما استهتروا به وهزئوا منه، وربما قال له بعضهم: إنني أستطيع أن أصمم أبدع من تصميمك ـ وهو لمّا يعرف إمساك القلم بعد ـ وما ذاك إلّا لجهلهم بفن الهندسة، وعدم تمكنهم من تصورها.

ولكن هذا المهندس البارع لو ذهب فعرض تصاميمه في أمة قد برعت في فن الهندسة، فإننا على يقين بأنهم سوف يبهرون لتصاميمه الدقيقة، ويعجبون بفنه البديع المتناسق، ويعترفون له بالتفوّق والتقدم، ويجعلون منه استاذاً لهم، ومحاضراً فيهم.

وما ذاك إلّا لأنهم عرفوا الفن الذي جاءهم به، ولذلك تمكّنوا من تصوّره، وكانت أحكامهم عليه صحيحة قويمة.

ولو أن إنساناً كان شاعراً ملهماً، فأنشأ قصيدة، تعتبر من أبدع ما نظم في الشعر العربي، وذهب بها إلى قوم حديثي عهد بلغة العرب وآدابها، فألقاها على مسامعهم فإنا على يقين بأنهم سوف لا يلقون لهذه القصيدة بالاً، ولأعرضوا عنه وطالبوه أن يكلمهم بما يتناسب مع قدرتهم على الفهم والاستيعاب بلغة العرب.

إلّا أن هذا الإنسان، لو ذهب إلى جماعة من الشعراء أو الأدباء، المتمرسين بالعربية، المطّلعين على فنونها، وقرأ عليهم قصيدته، لوجدهم يتمايلون طرباً لمعانيها، ويذعنون له بالبراعة في الشعر، والدقة في التعبير، والصدق في التصوير، والسمو في الخيال، ولجعلوا من نديه مكاناً تهوي إليه أفئدتهم، وترتاح به نفوسهم وقلوبهم.

وما ذاك إلّا لأنهم عرفوا العربية، وتمرسوا بفنونها، وتذوقوا بلاغتها.

ولذلك قال ﷺ: «لا يعرفُ الفضلَ لأهلِ الفضلِ إلّا أهلُ الفضل».

ونزيد مثالاً آخر أشد التصاقاً بموضوعنا فنقول:

لو أن موسى عليه السلام ذهب إلى فرعون وقومه بمعجزة لغوية، كمعجزة

النبي ﷺ في القرآن، وقرأها عليهم، لقالوا له: إن ما جئتنا به كلام عادي، ليس فيه إعجاز، ولا يدل على صدقك، ولـو كنا نعـرف العربيـة، أو نتقنها كالعرب، لأتيناك بكلام أبلغ من الكلام الذي جئتنا به، ولما أفلحت معهم معجزته البلاغية.

وما ذاك إلّا لأنهم لا يعرفون العربية. ولو عرفوها لكانت معرفتهم لهـا معرفة بسيطة، لا تمكنهم من الوقوف على وجه الإعجاز في القرآن، ولذلك كان لا بدّ له من معجزة تتناسب مع معارفهم وعلومهم.

وعلى العكس من ذلك، لو أن محمداً ﷺ، ذهب أول الأمر إلى العرب في الجزيرة العربية بمعجزة مادية، كمعجزة موسى عليه السلام، بأن يلقي عصاه في الأرض، فتنقلب إلى حية تسعى ـ والعرب أمة أميّة لا تعرف طباً ولا سحراً ـ لو فعل في بداية الأمر مثل هذا، لقال العرب قولاً واحداً لا يختلف (إن ما جئتنا به السحرُ، ولو كنا نعرف السحر، لتمكّنا من إبطال معجزتك التي أتيت بها)

وما ذاك إلّا لجهلهم بحقيقة السحر، وحقيقة ما ظهر أمامهم من قلب العصا إلى حية تسعى.

(ففي تصوّرهم أن كل عمل من هذا القبيل، إنما هو من قبيل السحر، وحق لهم أن يتصوروا هذا التصور، لأنهم لا يعرفون السحر ليميزوا بينه وبين المعجزة.)

ولذلك كان لا بدّ من معجزة تتناسب مع معارفهم وعلومهم، يتمكنون بواسطتها أن يدركوا أنها ليست من صنع البشر، وإنما هي من أمر الله، ليستدلوا بها على صدق الرسول في دعواه.

ومن أجل هذا ما أرسل الله رسولاً إلّا بلغة قومه، وما أرسله إلّا بمعجزة تدركها عقولهم، وتألفها طباعهم، ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم وإيمانهم، فالغرض من المعجزة تصديق الـرسل، وإيمـان الناس، وليس إعجـازهم عن الإتيـان بمثل المعجـزة فقط، على مـا سنـراه من معجـزات الأنبيـاء والـرسـل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

معجزة موسى عليه السلام:

لقد اشتهر قوم فرعون بالسحر، وعرفوا به، ولذلك كان لا بدّ لمعجزة موسى عليه السلام، أن تكون من نوع ما تعارفوا عليه، حتى يتم إفحامهم، وتثبت المعجزة لديهم، فذهب عليه السلام إليهم بمعجزة من نوع عملهم، وهي: أنه يلقي عصاه في الأرض، فتنقلب إلى حية تسعى، ويُدخل يده في جيبه، فتخرج بيضاء من غير مرض ولا عاهة، في تسع آيات أعطاه الله إياها.

ولنستمع إلى القرآن الكريم يقصّ علينا قصة العصا، قال تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى، قال: هي عصاي أتوكؤ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، قال: ألقها يا موسى، فألقاها، فإذا هي حية تسعى، قال: خذها ولا تخف، سنعيدها سيرتها الأولى، واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء، آية أخرى، لنريك من آياتنا الكبرى، اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون، يدعوه إلى الإيمان، فما كان من فرعون إلّا أن كذب وأبى، وقال لموسى عليه السلام: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين، قال: أو لو جئتك بشيء مبين﴾ - (أي بالمعجزة) - ﴿قال: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه، فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده، فإذا هي بيضاء للناظرين﴾.

فما كان من فرعون لما رأى العصا قد انقلبت إلى ثعبان يتحرك إلا أن زعم أن ما جاء به موسى إنما هو سحر يريد به أن يخرج الناس من أرضهم، وأن يستبد بأمرهم، وقال لمن كان حوله من قومه: ﴿إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، فماذا تأمرون﴾.

وعرض عليه موسى عليه السلام - بقية آياته، إلّا أنه زاد كفراً واستكباراً، وأراد أن يعارض موسى عليه السلام بمثل سحره فيما زعم، قال تعالى: ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى، قال: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا

موسى، فلنأتينك بسحر مثله، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾.

وأرسل فرعون رسله في المدائن يحشرون له فحول السحرة وعلماءهم، ليبطل ـ بزعمه ـ معجزة موسى، ويظهر له أنه قادر على الإتيان بمثل ما أتى به من سحر في زعمه.

وجمع السحرة لميعاد اليوم الذي اتفقوا عليه، وهم لما يعلموا بعد حقيقة ما جاء به موسى، وظنّوا أنه من قبيل سحرهم.

ولما حان وقت التحدي﴿قالوا: يا موسى، إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى﴾.

فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿بل ألقوا، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾.

لقد انقلبت حبالُ السحرة الطويلةُ إلى ثعابين تتحرك، وكل ثعبان منها يبلغ من الطول أضعاف عصا موسى عليه السلام.

وموسى عليه السلام ليس بساحر، ولذلك خيّل إليه أنها ثعابين، وإن كانت في الحقيقة ليست بثعابين، وإنما هي من تخييلات السحرة ومكرهم، ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾، ماذا يعمل أمام هذه الثعابين الطويلة العريضة التي يخيّل للناظر إليها أنها ستلتهم كل شيء أمامها؟، وهنا جاء اليقين الإلهي، ﴿قلنا: لا تخف، إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾.

فألقى موسى عصاه التي انقلبت إلى ثعبان حقيقي، ومن ثم دبّ إلى جميع تلك الثعابين الموهومة والتقفها، واحداً بعد الآخر إلى أن أتى عليها...

إنها المعجزة.. التي انبهر عليها السحرة..

إن ما أتى به موسى ليس من قبيل الخداع والتمويه، وليس من قبيل السحر، ولو كان سحراً لكشفه السحرة وعرفوه، ولما استطاع أن يأكل كل تلك

الثعابين الموهومة.. وإنما هو ثعبان حقيقي، انقلب عن العصا الجامدة، التي لا روح فيها ولا حياة...

وهذا ليس في طوق البشر، وليس في وسعهم..

إن أقصى ما يمكن أن يفعله الساحر هو التخييل للناظر بأن العصا قد انقلبت إلى ثعبان، ولكنه لا يمكنه أبداً أن يجعلها ثعباناً حقيقياً.

ولذلك من المحال أن يكون ما أتى به من قبيل السحر، أو من قبيل الطاقة الإنسانية.. إنه عمل الخالق القادر الحكيم.

فما كان من السحرة أمام هذه المعجزة اليقينية التي رأوها بأعينهم، وعاينوها بحواسهم، وكشفوها بعلمهم - ما كان منهم إلّا أن أذعنوا لموسى عليه السلام - وآمنوا بما أرسل به، وأعلنوا ذلك أمام فرعون وقومه، الذين اجتمعوا من كل حدب وصوب، ليروا بطلان معجزة موسى، ﴿فألقي السحرة سجداً، قالوا: آمنا برب هرون وموسى﴾ متحدين بذلك طغيان فرعون، وألوهيته الكاذبة، صابرين على كل ما توعّدهم به من العذاب والنكال، إذ قال لهم: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنّكم في جذوع النخل، ولتعلمنّ أينا أشد عذاباً وأبقى، قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات والذي فطرنا، فاقض ما أنت قاض، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى﴾.

وهكذا يتبيّن لنا كيف تعمل المعجزة عندما يكون القوم عالمين بما هو من قبيلها.

فلو أن موسى عليه السلام أتى بما أتى به أمام قوم لا يعلمون السحر، لما كان له هذا الأثر الذي ظهر أمام السحرة، الذين أدركوا حق الإدراك الفرق بين السحر والمعجزة، بين عمل الخلق الزائف، وعمل الله اليقيني...

لو أن موسى عليه السلام ألقى عصاه هذه أمام العرب في جزيرة العرب

مثلاً، وهم لا يعرفون السحر، لما كان عندهم إلاّ قول واحد، ألاّ وهو ما قاله فرعون: إن ما فعلته سحر ليس إلاّ . . .

من أجل هذا وجب أن تكون المعجزة من نوع ما يتعارف عليه الناس الذين أرسل إليهم الرسول.

وهذا الذي رأيناه في معجزة موسى عليه السلام، نراه في معجزة غيره من الأنبياء والرسل.

معجزة عيسى عليه السلام:

لقد بعث الله عيسى عليه السلام في بني إسرائيل، الذين كانوا قد اشتهروا بالطب زمن رسالته، ولذلك كان لا بدّ ـ كما قدمنا ـ أن تكون من نوع علومهم التي تعارفوا عليها، واشتهروا بها، فكانت إحياء الموتى، وما شابهها من المعجزات.

إن غاية ما يستطيع أن يفعله الطبيب قديماً وحديثاً، هو تشخيص المرض، ووصف العلاج لشفائه، إلاّ أنه ما حدث، ولم يحدث، ولن يحدث، أن يتمكّن الطبيب من إحياء الموتى.

كما أنه لم ولن يستطيع أن يصل لدرجة إخراج الحياة من الجماد، فلم يستطع ولن يستطيع أن يعمل هيكل طير من الطين، ثم يجعله طيراً حقيقياً، يخفق بجناحيه ويطير.

لقد بعث عيسى في تلك الأمة التي عرفت حقيقة الطب، وعرفت قدرة الطبيب الحقيقية، وهي أنها لا تعدو علاج بعض الظواهر المرضية.

فإذا ما رأت تلك الأمة إنساناً يحيي الميت بعد موته، ويصنع من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً، ويبرىء الأكمه والأبرص بإمرار يده عليه، علمت أن هذا الإنسان، لا يعمل هذه الأمور بقدرته البشرية، لأن قدرة البشر في هذا المجال محدودة بما ذكرنا من الظواهر، ومن ثم أيقنت أن هـذه

الأعمال خارقة للعادة، بقدرة من خالق هذا الكون، وخالق قوانينه، وعلمت يقيناً صدقه في دعواه، وفي رسالته.

قال تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه، فيكون طيراً بإذن الله، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾.

فلما جاء عيسى عليه السلام بمعجزاته، آمن كل عامي وعالم أن ما أتى به عيسى إنما هو من أمر الله وقدرته، وأنه ليس من فعل البشر، على نحو ما ذكرناه من إيمان السحرة بموسى عليه السلام، إذ رأوا معجزته، وأيقنوا بمعارفهم أنها من قدرة الله، لا من صنع البشر.

معجزة نبينا عليه الصلاة والسلام:

من أجل هذا الذي ذكرناه من المثل في موسى وعيسى عليهما السلام كان لا بدّ لنبينا محمد ﷺ أن تكون معجزته، من نوع ما يتعارف عليه قومه، ليكونوا أقدر على إدراكها، ومعرفة حقيقتها، ولكي لا يضطربوا في شأنها، هل هي تمويه، أو سحر، أو شعبذة، أو غير ذلك من الأمور التي ينسب إليها كل من أتى بأمر يخرج عن المعتاد المألوف.

ثقافة العرب ومعارفهم في الجاهلية:

والأمة العربية التي بعث فيها رسول الله ﷺ، لم تكن أمة مثقفة ذات حضارة، وإنما كانت أمة أميّة، لا تعرف سحراً، ولا تعرف طباً، ولا تعرف فلسفة، وإنما كانت تجيد فناً واحداً، بلغت فيه ذروة الكمال الفني، ألا وهو فن البلاغة والبيان اللغوي في التعبير عن المراد، وصياغةِ الحكمة في التوجيه والإرشاد.

تمرّس العرب باللغة:

نعم.. لقد تمرّس العرب بلغتهم، لغةِ السحر والشعر، لغة الجلال

والكمال، لغة الحب والجمال، ووصلوا إلى ذروة المجد الفني في استعمال هذه اللغة، في التعبير عن خفقات القلوب، ومشاعر الوجدان، ووصف العواطف وإثارتها، وبعث الهمم وإيقاظها، وتخليد البطولات والأمجاد، ونشر المفاخر والمناقب.

تفاخر العرب بلغتهم:

لقد كانوا يتفاوتون فيما بينهم بقَدْر ما يجيده الواحد منهم من هذه اللغة، حتى صار بعضهم مضرب الأمثال، كقس بن ساعدة، وامرىء القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمة، والأعشى ميمونِ بن قيس، وغيرهم من البلغاء والفصحاء.

ووجد فيهم المحكمون الذين يفاضلون بين الكلام، في جودته وبلاغته، ووصل بهم الأمر إلى أن كتبوا بعض القصائد بماء الذهب، وعلّقوها في جوف الكعبة، لما كان لها من البلاغة، والجزالة، والقوة، والجمال، وهي التي عرفت فيما بعد بالمعلقات السبع أو العشر.

بل وصل الأمر ببني تغلب ـ حين قال عمرو بن كلثومٍ التغلبي معلقته ـ وصل الأمر بهم في شدة اهتمامهم بقصيدته إلى أن قال الناس فيهم: ألهى بني تغلب عن مفاخرهم قصيدة عمرو بن كلثوم، إذ كانت القصيدة ترفع القبيلة إلى ذروة المجد، أو تحطها إلى حضيض الذلّ والهوان.

فأمة هذا شأنها، لا تعرف السحر ولا الشعبذة، ولا تعرف الطب ولا الفلسفة، وإنما تجيد الحكمة والمثل، والقصيدة والمقال، وتسمو بهذه الأمور إلى أن تدرك غايتها، وتتميز بها، لا بدّ أن تكون المعجزة التي يأتي بها نبيها من نوع ما تعرفه وتتقنه.

ولذلك كانت معجزة نبينا محمد ﷺ معجزة لغوية، تتجلى في آيات القرآن الكريم، إلى جانب المعجزات الأخرى، الكثيرة الشهيرة.

لمَ لمْ تكن معجزة نبينا عليه السلام مادية:

قد يقول قائل: لماذا لم تكن معجزة محمد ﷺ معجزة مادية كمعجزة غيره من الأنبياء والرسل..؟.

والجواب على ذلك يعرف مما قدمناه، وذلك أنه ﷺ لو أتى العرب بمعجزة مادية من نوع ما أتى به موسى أو عيسى عليهما السلام، لكانت أول كلمة يقولها له المشركون: إن ما جئت به السحر.

لأنهم لجهلهم بحقيقة السحر، لا يميِّزون بين السحر والمعجزة، ولذلك كانت المعجزة في الدرجة الأولى من نوع ما يتعارفون عليه، ألا وهو البلاغة والبيان، لكي يدركوا وجه الإعجاز في الكلام الذي يتلى عليهم باللغة التي يعرفونها. ووصلوا إلى ذروة بيانها وبلاغتها.

ولذلك ما سمع بالقرآن عربي، إلاّ وأدرك أنه ليس من قول البشر، وإنما هو قول قوة فوق قوة البشر.

تمييز العرب بين أنواع الكلام، وإدراكهم معجزة القرآن:

لقد نزل القرآن على محمد ﷺ، معجزة له، على النحو الذي قدّمناه، من كونها موافقة لمعارفهم وثقافتهم، وبدأ رسول الله ﷺ بتلاوته عليهم، فما سمعه واحد منهم إلاّ وملك عليه قلبه، واستأثر بعقله، لما فيه من البلاغة والبيان، والجمال والدقة والروعة والإتقان، وهي الأمور التي مارسها العربي، وكان قلبه يذوب في معانيها.

إنهم عرفوا الشعر، فما هو بالشعر، وعرفوا النثر، فما هو بالنثر، وعرفوا زمزمة الكهّان، فما هو بزمزمتهم.

إن غاية ما سمعوه في حياتهم، وفتنوا به، هو ما قاله فلان وفلان، من الشعراء، والحكماء، إلاّ أن ما يسمعونه اليوم، ليس من هذا القبيل في قليل ولا كثير، إنه كلام لا يمكن للبشر أن يصلوا إلى أدنى درجات بلاغته، ولو كانوا على

قلب رجل واحد، مع أنه نزل بلغتهم.

إنه كلام معجز، وليس من صنع البشر، إنه القرآن الكريم، كلام الله، فما كان منهم، أمام هذه المعجزة الباهرة، إلّا أن أذعنوا وسلموا، واعترفوا بالعجز والتقصير عن معارضة هذه المعجزة ـ على ما سنبيّنه إن شاء الله ـ ومن ثم آمنوا بالله، وبرسوله محمد ﷺ.

ونحن قبل أن نتكلم على وجوه الإعجاز في القرآن، لا بدّ لنا أن نعرف القرآن الكريم، الذي كان معجزة رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، لنميّز بينه وبين الكلام الذي لا إعجاز فيه، كالحديث القدسي، والحديث النبوي.

ـ القرآن لغة:

القرآن لغة، مصدر، نحو كُفْران ورجحان، قال تعالى: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾.

إلّا أن هذا المصدر صار مختصاً بالكتاب المنزّل على نبيّنا محمد ﷺ، فصار علماً له، واشتهر به، ولذلك إذا أطلق القرآن اليوم، لا يفهم منه إلّا أنه القرآن الكريم كلام الله.

ـ القرآن اصطلاحاً:

هو اللفظ، العربي، المنزّل على محمد ﷺ، المنقول إلينا بالتواتر، المتحدى بأقصر سورة من سوره المعجزة.

فما لم يكن لفظاً، مما أوحاه الله إلى نبيه معنى، والنبي ﷺ عبّر عنه بألفاظ من عنده، لا يسمى قرآناً، وإنما هو حديث نبوي شريف، المعنى من الله، واللفظ من النبي عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحي يوحى﴾.

وما كان لفظاً موحى به من الله، إلاّ أنه ليس عربياً، لا يسمى أيضاً قرآناً.

وذلك كالكتب، والصحف، التي نزلت ألفاظها ومعانيها من عند الله، إلاّ أنها ليست بلغة العرب.

كما أن ما يترجم من معاني القرآن، إلى غير العربية، لا يسمى قرآناً، ولا يعطى أحكام القرآن.

وأما ترجمة نص القرآن إلى غير العربية، فهي غير جائزة إجماعاً، وعلى فرض وقوعها ممن لا خلاق له، فإننا لا نسميها قرآناً، لأن القرآن ما كان لفظاً عربياً.

وقولنا: المنزّل على محمد ﷺ: قيد يخرج به، ما كان لفظاً عربياً، منزّلاً على غير نبينا عليه السلام ـ على فرض وجوده ـ فإنه لا يسمى قرآناً، لاختصاص القرآن بما أنزل على محمد ﷺ.

وقولنا: المنقول بالتواتر، نعني به أنه نقله جماعة عن جماعة، تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، في كل طبقة من طبقاته.

وهذا قيد، خرج به ما نقل إلينا عن طريق الآحاد، فإنه ليس بقرآن، ولا يعطى أحكام القرآن، من عدم جواز قراءته للجنب، ومسّه للحائض، وغير ذلك.

وأما قولنا: المتحدّي بأقصر سورة من سوره، فهذا قيد خرج به الحديث القدسي، فهو لفظ عربي، منزّل على محمد ﷺ، وقد يكون متواتراً، إلاّ أنه لا يسمى قرآناً، لأنه لا يراد به التحدّي والإعجاز، ولا يعطى أحكام القرآن.

وأما التحدّي: فهو طلب الإتيان بسورة تضاهي أقصر سورة من سور القرآن، وهي: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾.

فقد طلب الله من العرب أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن الكريم،

ليبطلوا معجزة محمد ﷺ، ويثبتوا صدقهم في أنه ليس مرسلاً من ربه، إلّا أن أحداً منهم لم يتمكن من معارضة القرآن، ولم يتمكن من الإتيان بأي سورة تضاهي أقصر سورة من سوره، رغم أن التحدّي مرّ بمراحل متعددة، ليكون أبلغ في إثبات العجز، على مرّ الدهور، وكرّ العصور.

بل اعترف الجميع بعجزهم عن معارضته، وآمنوا بالله ورسوله، على ما سنراه في مراحل التحدّي التي مرّ بها القرآن.

مراحل التحدي بالقرآن:

لقد وقع التحدي بالقرآن الكريم على ثلاث مراحل، وبطريقة التدرج في هذا التحدّي، يتحدّى العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل سورة من سوره، يعارضونه بها، وقد جاء بلغتهم، ونزل بأساليبهم ـ وهم فرسان البلاغة، وأرباب البيان ـ فإن عجزوا عن ذلك، ولم يقدروا عليه، فليعلموا أن هذا القرآن ليس من صنع البشر، إذ لم يستطع البشر أن يعارضوه، أو يأتوا بسورة تضاهي أقصر سورة من سوره، وإنما هو كلام الله المعجز، الدالّ على صدق نبينا عليه الصلاة والسلام في دعواه النبوّة والرسالة.

المرحلة الأولى:

لقد بدأ التحدّي بمكة، في سورة الإسراء، وكان التحدّي بكل ما نزل من القرآن، فقال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

إلّا أننا وجدنا العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان يعجزون جميعاً عن الإتيان بمثل هذا القرآن، الذي تتلى آية التحدّي فيه صباح مساء، على رؤوس الأشهاد، وكأنها تثير فيهم الحمية لمجابهة هذا التحدّي.

إلّا أنهم ـ رغم هذا، ورغم كل ما يبذلونه من محاولة للقضاء على القرآن ودعوته ـ لم يجدوا إلى تحدّي القرآن أي سبيل، ولو وجدوا لفعلوا. . .

إلّا أنه العجز البشري، أمام القدرة الإلهية التي لا تتحدّى.

المرحلة الثانية:

وهنا بدأت المرحلة الثانية، وهي التحدّي بعشر سور من سور القرآن، فإذا عجزتم أيها العرب عن الإتيان بمثل القرآن، فأتوا بعشر سور من مثله، إن كنتم على ذلك قادرين، وفي دعواكم صادقين، فقال تعالى:

﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله، إن كنتم صادقين﴾.

إلا أنهم رغم هذا التحدّي الصريح، الذي فضح دعواهم في أن هذا القرآن إنما هو شيء مفترى، وأنه أحاديث الأولين اكتتبها محمد ﷺ رغم هذه الدعوى، وهذا التحدي، لم نجد واحداً منهم يستطيع معارضة القرآن بعشر سور تضاهيه أو تقاربه.

وهنا بدأت المرحلة الأخيرة من التحدّي، وهي المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة:

وهي المرحلة التي حطمت غرور المشركين، وفضحت دعواهم، وأبانت عجزهم، ألا وهي انتحدّي بسورة واحدة من أقصر سور القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر، فصلِّ لربك وانحر، إن شانئك هو الأبتر﴾.

فقال تعالى في سورة يونس:

﴿أم يقولون أفتراه، قل فأتوا بسورة من مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله، إن كنتم صادقين﴾.

إلّا أن واحداً منهم لم يستطع أيضاً أن يأتي بهذه السورة، بل بدأ الجميع يتساقطون، الواحد تلو الآخر، ويعلنون ـ رغم كفرهم وعنادهم ـ أن هذا الكلام ليس من صنع البشر، وأنه لا سبيل إلى التحدّي والمجابهة.

ولقد أيأسهم الله تعالى من هذه الأحلام اليائسة في المعارضة، في سورة

البقرة، إذ قال جلّ وعلا:

﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، أُعدّت للكافرين﴾.

وذلك أن النفي بـ «لـن» يفيد التأبيد على ما ذهب إليه الإمام الزمخشري.

سلامة المعجزة القرآنية عن المعارضة:

وبهذا الذي ذكرناه، من مراحل التحدّي، وعجز سائر البشر عن معارضة القرآن، يتبيّن لنا أن المعجزة القرآنية قد سلمت عن المعارضة في كل المراحل، لتثبت وبدلالة قاطعة أنها من عند الله، وليست من قول البشر، لأنها ليست من قبيل ما يملكونه من الطاقات.

فليست مفتراة، وليست أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ ليموّه بها على العرب، إذ لو كانت كذلك، لكان بإمكان أي عربي أن يعارضها ويأتي بمثلها.

وكيف يكون محمد ﷺ اكتتبها وهي بهذه البلاغة وهذا الإعجاز..؟ ولا سيما أن محمداً ﷺ لم يكن شاعراً، ولا ساحراً، ولا كاهناً، ولا دارساً لأخبار الأوائل... ﴿وما علّمناه الشعر، وما ينبغي له﴾.

فلم يكن معروفاً في الجاهلية ببلاغته وبيانه، وإنما كان حاله كحال الناس جميعاً، لغته من لغتهم، وبيانه من بيانهم، فلم يعرف عنه أنه يأتي بكلام يخالف كلام العرب وبيانهم.

إذ لو كان كذلك لجاز أن يقولوا ما قالوا.

نعم.. لقد اشتهر فيهم بحكمته، وأمانته، حتى لقب بالأمين.

وأما جوامع الكلم التي أوتيها، فهذا شيء كان بعد النبوة، فلم يعد للعرب من حق في أن يقولوا أمام هذا التحدي: إن هذا من صنع محمد، لأنه لو كان من صنعه، لعارضوه.

كيف لا . . .؟ وفيهم فحول الشعراء، والخطباء، والبلغاء، الذين ملأوا حياة العرب ودنياهم بشعرهم وخطبهم وبلاغتهم.

إذن فلم يبق إلاّ شيء واحد، ألا وهو التسليم بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الله.

وهذا ما أخذوا يعترفون به الواحد تلو الآخر ـ على ما سنعرفه قريباً ـ ولم يبق أمامهم إلاّ أن يؤمنوا برسول الله ﷺ كما آمن السحرة بموسى بعد أن أفحموا بمعجزته.

وأما من أبى واستكبر عن الإيمان، فلم يكن لأنه لم يدرك المعجزة، ولم يسلم بها، وإنما كان عناداً واستكباراً، كاستكبار فرعون أمام معجزة موسى عليه السلام.

اعترافات المشركين بالإعجاز:

لم يقف الأمر بالنسبة للقرآن الكريم عند حد الإعجاز الذي أدركه كل عربي، من مسلم وكافر، إذ رأوا عجزهم عن معارضته في كل مراحل التحدّي.

ولكن الأمر تعدّاه إلى مرحلة الاعتراف بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الله، وسواء في هذا الاعتراف المسلم والكافر، إذ تأثر الجميع بحلاوته، واهتزت مشاعرهم لطلاوته، وانفعلت أحاسيسهم بأساليبه.

الوليد بن المغيرة:

فها هو الوليد بن المغيرة، وهو من أعتى المشركين، وأشدّهم أذى على رسول الله ﷺ، يعترف أمام المشركين جميعاً، بأن هذا القرآن ليس من قبيل زمزمة الكهّان ولا سجعهم، وليس من قبيل وسوسة المجانين ولا تخاليجهم، وليس من قبيل الشعر وأوزانه.

ثم يقول في وصفه قالة المتأثر به، المفتون بجماله المستسلم لإعجازه: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه يعلو

ولا يعلى عليه، وما هو من قول البشر.

ولقد صدق المغيرة فيما قال، فأقره جميع المشركين الذين جاءوا للتداول في أمر رسول الله ﷺ.

وكيف لا...؟ وجميعهم يشعر بنفس شعور الوليد، ويحس بأحاسيسه، فلم يمنعهم كفرهم، ولا كبرهم وغرورهم من الاعتراف بهذه الحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها.

عتبة بن ربيعة:

وهذا عتبة بن ربيعة من سادة قريش، يقوم إلى محمد ﷺ ليفاوضه باسم المشركين من قريش، ويعرضَ عليه بعض العروض، لعلّه يقبل بها، ويترك دعوته.

فيعرض عليه الملك، ويعرض عليه المال، ثم يعرض الطب إن كان ما يأتيه من قبيل الوساوس والجنون...

حتى إذا فرغ الرجل من عروضه، وأتمّ مهمته، قال له رسول الله ﷺ: «أوقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون، وقالوا قلوبنا في أكنه مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾.

ومضى رسول الله ﷺ يقرأ عليه سورة فصلت، وعتبة منصت لها، وقد ألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى آية السجدة من السورة، فسجد وسجد معه عتبة، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك.

وفي بعض الروايات أنه ﷺ لما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل

أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ قال له عتبة: ناشدتك الله والرحم أن تمسك، إذ لم يعد عتبة يتمالك نفسه أمام هذا الذي يسمع مما لا قبل لأهل الأرض به.

ثم قام عتبة إلى أصحابه الذين بعثوه عنهم رسولاً ومفاوضاً، إلّا أنه كان قد سمع ما سمع، فأثر القرآن في نفسه وجوارحه، حتى بدا ذلك في وجهه، فقال القوم بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟.

قال: ورائي أني سمعت قولاً، والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلو بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم.

وهذا اعتراف آخر من الوليد أمام سادة قريش وكبرائها بإعجاز القرآن وأثره في النفوس والقلوب والجوارح.

النضر بن الحارث:

وها هو النضر بن الحارث، وهو من شياطين قريش وأشدائهم على رسول الله ﷺ، يقف في قريش ويقول: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أنتم له بحيلة بعد، قدم محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيه، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاء به، قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم عقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، فقد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، فقد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله، ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه.

يا معشر قريش.. فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

فهذه اعترافات أساطين قريش وسادتها، الكل يلهج بكلام واحد، وقد تصوّر تصوراً واحداً، ألا وهو أن هذا القرآن ليس من صنع البشر، وأنه معجز لا قبل لهم بمعارضته، بل إن كل من يسمعه منهم، يخفق له قلبه، وتنفعل به أحاسيسه، ويحن إلى سماعه المرة تلو الأخرى، لا يستطيع أن يفطم نفسه عنه.

ولذلك كان النفر من قريش يتعاهدون على عدم سماع القرآن حتى لا يتأثروا به، ويذهبون إلى بيوتهم، إلا أن الواحد منهم، لا يلبث أن يرجع إلى الكعبة ليسمع القرآن الذي ملك عليه عقله وقلبه، فيجد أن صاحبه الذي كان قد عاهده، قد سبقه إلى العودة لسماع القرآن المعجز، ندياً من صوت محمد ﷺ، فيجتمعان أمام الكعبة، وكلٌ منهم قد نقض ما عاهد عليه صاحبه.

وحق لهم هذا..

فمن ذا الذي يرى المعجزة ويملك نفسه أن لا يتأثر بها..؟ إذ لو كان الناس يملكون هذا، لما كان للمعجزة ذلك الأثر...

اتفاق المشركين على اللغو في القرآن لمنع تأثيره:

لم يكن من المشركين إزاء هذا التأثر العظيم بالمعجزة القرآنية إلا أنهم بدأوا يعلنون إسلامهم الواحد تلو الآخر، مما أثار حفيظة المشركين، وجعلهم يفكرون بالوسائل التي يمكن بواسطتها التخفيف من أثر المعجزة القرآنية، فاتفقوا على أن لا يسمعوا للقرآن، ولا يمكّنوا أحداً من سماعه، خشية أن يتأثروا بإعجازه، ويستجيبوا لهديه، كما اتفقوا على أن يلغوا في القرآن إذا قرأه رسول الله ﷺ، حتى يشوّهوا - فيما يزعمون - جماله، ويذهبوا برونقه، ويشوشوا على الناس لمنعهم من الإنصات له. قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا: لا تسمعوا لهذا القرآن، وألغو فيه لعلكم تغلبون﴾ (سورة فصلت: آية ٢٦).

إلّا أنهم رغم هذا لم يفلحوا، بل ربما كان الأمر على نقيض مرادهم، فجمال القرآن لا يمكن تشويهه، وإعجازه لا يمكن إخفاؤه، فالشمس في رابعة النهار لا يمكن أن تحجب بكف أحمق، وكما قال المتنبي:

وهبني قلتُ: هـذا الصبـحُ ليـلٌ أيـعمى العـالمـون عـن الضـيـاء؟

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، كل ممنوع مرغوب، ولا سيما إذا كان المنع على الطريقة العشوائية التي اتبعتها قريش في محاولة الصد عن القرآن...

الطفيل بن عمرو الدوسي:

فهذا هو الطفيل بن عمرو الدوسي، وهو من سادة قريش وأشرافهم، كان شاعراً لبيباً، وعاقلاً حكيماً، جاء مكة، فجاءه سادتها من المشركين، يخذلونه عن السماع من محمد ﷺ، خشية أن يؤمـن به، إلاّ أن النتيجة كانت على عكس ما رموا إليه وأرادوه، لأن ما أثر في نفوسهم لا بدّ وأنْ يؤثر في نفس الطفيل وغيره، من كل من عقل كلام العرب وتذوقه.

يقـول الطفيـل: كنت رجلاً شـاعراً، سيـداً في قومي، فقـدمت مكة، فمشيت إلى رجالات قريش، فقالوا: إنك امرؤ شاعر سيد، وإنا قد خشينا أن يلقاك هذا الرجل، فيصيبَك ببعض حديثه، فإنما حديثه كالسحر، فاحذره أن يدخل عليك وعلى قومك ما أدخل علينا، فإنه فرق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وابنه، فوالله ما زالوا يحدثوني في شأنـه، وينهوني عن أن أسمع منه حتى قلت: والله لا أدخل المسجد إلاّ وأنا ساد أذني..

قال: فعمدت إلى أذني فحشـوتها كـرسفاً ـ أي قـطناً ـ ثم غـدوت إلى المسجد، فإذا برسول الله ﷺ، قائماً في المسجد، فقمت قريباً منه، وأبى الله إلاّ أن يسمعني بعض قوله.

فقلت في نفسي: والله إن هذا للعجز، وإني امرؤ ثبت، ما تخفى عـلي الأمور، حسنها وقبيحها، والله لأتسمعن منه، فإن كان أمره رشداً، أخـذت منه، وإلاّ اجتنبته، فنـزعت الكرسفـة، فلم أسمع كـلاماً أحسن من كلام يتكلم به، فقلت: يا سبحان الله، ما سمعت كاليوم لفـظاً أحسن ولا أجمل منه.

فلما انصرف تبعته، فـدخلت معه بيتـه، فقلت: يا محـمد! إن قومـك

جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأخبرته بما قالوا، وقد أبى الله إلا أن أسمعني منك ما تقول، وقد وقع في نفسي أنه حق، فأعرض علي دينك، فعرض على الإسلام، فأسلمت[1].

عمر بن الخطاب:

وما حدث للطفيل بن عامر الدوسي، من التأثر بكلام الله، وإعلان الإسلام، حدث لمن هو أشدّ منه بأساً، وأكبر قوة، وأكثر إيذاء للمسلمين، ألا وهو عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ إذ دفعه حقده وحدته لأن يعزم على قتل رسول الله ﷺ، وقد بلغه أنه مجتمع مع أصحابه في بيت عند الصفا.

فلقيه نعيم بن عبدالله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً، هذا الصابىء، الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها ـ فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بني عبد منافٍ تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً..؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم...؟.

قال: وأي أهل بيتي..؟.

قال: ختنك، وابن عمك سعيد بن زيد، واختك فاطمة بنت الخطاب..، فقد والله أسلما.

فرجع عمر إلى أخته وختنه ـ أي زوجها ـ وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة فيها «سورة طه» يقرئهما إياها.

فلما سمعوا حسَّ عمر، اختبأ خبابٌ في بعض البيت، وخبأت فاطمة الصحيفة، وكان عمر قد سمع شيئاً من القراءة حين دنا من البيت.

فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت...؟.

قالا له: ما سمعت شيئاً.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٣٤٤.

قال: بلى... ولقد أُخبرتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بسعيد، فقامت إليه اخته تدافع عن زوجها، فلطمها وأدماها، فلما فعل ذلك قالا له: نعم لقد أسلمنا... فاصنع ما بدا لك..

ثم طلب من أخته الصحيفة التي سمع قراءتها، ووعدهما أن يردها عليهما إذا قرأها.

فلما طمعت أخته في إسلامه، قالت له: يا أخي إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلّا طاهر.

فقام عمر، واغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها:

﴿بسم الله الرحمن الرحيم، طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى، تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى، الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾.

فلما قرأ عمر صدر السورة، هدأت ثورته، وذابت حدته، وسطع أمامه نور المعجزة بما لا يستطيع دفعه.

إنه الكلام الذي تترنم به السموات والأرض، ويتفاخر به الإنس والجن، وتغبط الملائكة به بني آدم...

وانفعلت نفس عمر بهذا الكلام...

كيف لا..؟ وهو العربي القرشي الذي يتذوق العربية، ويتمايل لسماعها طرباً...

فما كان منه إلا أن قال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه».

وما كان منه إلّا أن ذهب إلى رسول الله ﷺ... ولكن.. لا ليقتله هذه المرة.. وإنما ليعلن إسلامه وليضيف إلى التاريخ حادثاً من أهم الحوادث في تاريخ المعجزة القرآنية، إذ كان اعترافه بها، وإيمانه بصاحبها، مغيراً لمجرى الحوادث في حياة المسلمين، وتاريخ الرسالة.. بل كان مغيراً لمجرى الحياة الإنسانية كلها.

وما حدث لعمر، والطفيل بن عامر الدوسي، حدث لكثير من المشركين مما دفعهم للدخول في الإسلام.

بل جعل كثيراً منهم يذهل عن كل صورة من صور الجمال الفني في لغة العرب أمام بلاغة القرآن، وجماله وإعجازه.

فهذا لبيد بن ربيعة العامري، أحد أصحاب المعلقات السبعة، الذين سارت بشعرهم الركبان، ومن أشراف الشعراء المجيدين الفرسان، يفد على رسول الله ﷺ، ويسمع كلامه، ويسلم، ولكن.. ماذا فعل بالشعر، الذي جرى في كيانه مجرى الدم من عروقه، وجبلت به نفسه، وعرفت به حياته، وتناقله الناس عنه، يتفاخرون به، ويتمايلون طرباً لسماعه، بل يصل بهم الأمر لدرجة الجنون لأجله، كما فعل الفرزدق حين مر بمسجد لبني أقيصرٍ بالكوفة، وسمع رجلًا ينشد قول لبيد:

وجلا السيولُ عن الطلولِ كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

فما كان من الفرزدق إلا أن سجَد..

فقيل له: ما هذا يا أبا فراس..؟.

فقال: أنتم تعرفون سجدة القرآن، وأنا أعرف سجدة الشعر[1]..

لقد وصل الأمر بالفرزدق، وهو أحد فحول الشعراء الذين لا ينازعون ولا يدافعون، وصل الأمر به لدرجة الافتتان بشعر لبيد...

فما هو حال لبيد في الإسلام أمام القرآن...؟.

لقد ذهل هذا الرجل الفصيح البليغ، الذي فتن الناس بشعره، لقد ذهل عن نفسه وشعره، فلم يعد يتمكن من قول الشعر، إذ أفحمته عظمة القرآن وبلاغته، فلم يقل بعد إسلامه إلّا بيتاً واحداً، وهو قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالاً

---

(١) مختارات ابن منظور ٩/٣٤٠.

وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول له يوماً ما: أنشدني من شعرك.. فيقرأ سورة البقرة، ويقول له: ما كنت لأقول الشعر بعد أن علمني الله سورة البقرة..؟[1].

لقد أذهلته سورة البقرة عن الشعر وقوله، وحق له هذا، إنه شعور العظماء عند معاينتهم الحقائق.

إنه اعتراف أهل الفضل بالفضل وإذعانهم له.

إن الفنان العادي ليفخر بفنه أمام من هم أقل منه شأناً، وأدنى منه منزلة، إلّا أنه عندما يكون منصفاً عاقلاً، يتصاغر أمام عباقرة الفن وعظمائه، ويستحيي من عرض إنتاجه أمام إنتاجهم، وفنه أمام فنهم، لأنه يدرك بملكته الفرق الشاسع بينه وبينهم، ويعلم أنه مهما حاول فلن يصل لدرجتهم، ولذلك يحتفظ بكرامته، وينسحب إلى حيث يضمن لها المدح والتكريم.

وهكذا كان شأن لبيد بن ربيعة، لقد أذهلته بلاغة القرآن وفصاحته، ورأى فيه الإعجاز الذي لا يستطيع أحد أن يدانيه أو يقاربه، وما شعره مهما بلغ من الدقة والبلاغة، والعظمة والروعة، إلّا من سقط القول أمام هذا القرآن المعجز.

ولذلك كان من إكرام لبيد لنفسه أن لا يقول شيئاً من الشعر بعد أن قرأ القرآن.

تأثر حسان بن ثابت:

وما حدث للبيد بن ربيعة، حدث لغيره من الشعراء، فها هو حسان بن ثابت، وهو من فحول شعراء الجاهلية المعمرين، يسلم، فيقرأ القرآن، ويتأثر ببلاغته وفصاحته، مما أذهله عن كثير من المعاني الشعرية التي كان يجيدها في الجاهلية ويفخر بها، مما جعل مستواه في الشعر يهبط في الإسلام، عما كان عليه في الجاهلية.

---

(١) دائرة المعارف ٨/٢٨٢.

فقد أجمع نقاد الشعر على أن شعر حسان بن ثابت قد تأثر في الإسلام، وتراجع أمام عظمة القرآن وإعجازه.

لم يمتنع حسان من قول الشعر في الإسلام، بل أمره رسول الله ﷺ أن يقول الشعر، ويرد به على المشركين ما كانوا يهجون به الإسلام والمسلمين.

ولكن حساناً لم يمكنه أبداً أن يتناسى هذا الصرح البلاغي المعجز، الذي عصف بكل بلاغة وفصاحة وشهرة أمام بلاغته وفصاحته، مما يجعل عند الإنسان عجزاً باطنياً خفياً يفرض عليه التراجع والاستسلام، ولا سيما بعد أن يئس كل من في الأرض عن الوصول إلى أدنى مراتب بلاغته.

وهذا ما جعل شعر حسان يتراجع ويضعف إذا ما قيس بشعره الذي كان يقوله في الجاهلية قبل أن يسمع القرآن.

* * *

وما حدث للبيد وحسان، حدث لكثير من شعراء العرب وفصحائهم، مما يدل على مدى التأثير القرآني في نفوسهم، وعلى كلامهم.

لماذا لم يسلم جميع العرب ممن أدرك معجزة القرآن؟:

بعد هذا الذي قدّمناه من تأثر العرب بالمعجزة القرآنية، واعترافهم بها..، وما رافق ذلك من إعراض بعضهم عن قول الشعر أو تأثر شعره أمام الإعجاز القرآني، قد يثار سؤال، ألا وهو:

ما دام القرآن قد وصل لهذا الحد من الإعجاز والتأثير، فلماذا وجدنا كثيراً من العرب، ممن مهر في العربية وأتقنها، وبلغ الذروة العليا فيها، كالوليد بن المغيرة، وأبي جهل، وأبي لهب، وعتبة بن ربيعة، وغيرهم كثير، ممن لا يخفى مكانهم على أحد، لماذا لم يسلموا وقد سمعوا القرآن..؟!.

إن الجواب على هذا السؤال سهل ميسور، وذلك أن الناس على مر العصور، وكر الدهور، لم تخل ساحتهم يوماً ما من جاحد معاند، أو متكبر

بطر، أو حاسد حاقد، أو كذاب أشر.

وإن نظرة سريعة خاطفة عبر التاريخ إلى علاقة الإنسان بالحقائق، مع الأنبياء والرسل وغيرهم، لتدلنا على هذه الحقيقة دلالة قاطعة.

ولا أريد أن استطرد في ذكر الأمثلة، بل سأكتفي بمثالين يقينيين من التاريخ، الأول في العناد مع الرسل، والثاني في العناد مع الحقائق العلمية.

عناد قوم إبراهيم عليه السلام:

وهذا هو المثال الأول الذي سأتكلم عليه، وهو عناد الناس مع الرسل.

وهو يتمثل لنا جلياً واضحاً في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، حينما كسر أصنامهم، وأقام عليهم الحجة في عدم صلاحية الحجارة للعبادة، وأنها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً، علاوة عن أن تملك هذا للآخرين، ولذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من الأذى الذي ألحقه بها إبراهيم عليه السلام.

وآمن قومه بهذه الحقيقة، وأن هذه الحجارة لا تصلح للعبادة، إلا أنهم أخذتهم العزة بالإثم، فعادوا ثانية يناقضون أنفسهم، بالتنكر للحقائق التي لا سبيل إلى إنكارها، وأجمعوا على الباطل لنصرة تلك الحجارة، رغم ما آمنوا به من حقيقة حالها.

ولنستمع إلى القرآن يقص علينا قصتهم، قال تعالى:

﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين، قال: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين، قالوا: أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟ قال: بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن، وأنا على ذلكم من الشاهدين، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، قالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، قالوا: فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله

كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم، فقالوا: إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم، أف لكم ولما تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون؟ قالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾.

إنهم لم يجتمعوا على إحراقه لأنه أخطأ، ولا لأنه فشل في إقامة الحجة، ولا لأنه أتى بما لا يعقل ولا يفهم.

إن ما ادّعاه أمر مفهوم ومعقول لكل ذي عقل، وإنما هو الجحود والعناد، والكبر والاستبداد. . .

فلا يمكن أن يقال: إن ما ادّعاه إبراهيم عليه السلام من عدم صلاحية الحجارة للعبادة، وأنها لا تضر ولا تنفع، شيء باطل، لأن قومه لم يسلموا له، ولم يؤمنوا به.

وذلك لأن عدم إيمانهم جحود منهم وعناد، باعترافهم بألسنتهم.

وما جرى من العناد مع إبراهيم عليه السلام، جرى مع غيره من الأنبياء والرسل، مما لا يخفى على أحد، وهو عينه ما جرى مع النبي محمد ﷺ، على ما سنبينه أيضاً بأقوالهم بعد قليل إن شاء الله.

وهذا العناد ليس مع الأنبياء والرسل فقط، وإنما هو عناد مع كل حقيقة من الحقائق عبر التاريخ.

فالعناد هو العناد، لا يختلف باختلاف الزمان، ولا المكان، ولا الأشخاص.

وهذا يظهر جلياً واضحاً في المثال الثاني الذي سنضربه الآن، وهو عناد الكنيسة في العصور الوسطى في أوروبا، مع الحقائق العلمية.

عناد الكنيسة مع الحقائق العلمية:

لقد مارست الكنيسة باسم الدين أبشع أنواع الطغيان والاستبداد، مع

العلماء، والمفكرين، محاربة كل الحقائق العلمية الحسية اليقينية، والنظرية المظنونة، خشية على سلطانها الباطل، فقتلت وأحرقت كل من أتى بأي حقيقة علمية ما دامت لا توافق عقل القس أو الراهب، فقتلت وأحرقت ما يزيد عن ثلاثمائة وخمسين ألفاً من العلماء والمفكرين، عناداً وطغياناً، على ما يقوله مؤرخو الغرب.

مما ملأ القلوب بالحقد، واستفز النفوس للثورة، فكانت الثورة على الكنيسة، وعلى الدين، وكان الشعار الرهيب «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

فعندما وقفت الكنيسة في وجه الحقائق العلمية، لم تقف في وجهها لأنها أمور باطلة، ولم تقتل العلماء والمفكرين لأنهم أتوا بمفاهيم لا برهان عليها، وإنما فعلت ما فعلت جحوداً وعناداً.

فلا يمكن أن يقال أبداً، وفي أي حال من الأحوال، لماذا لم يؤمن الرهبان بالحقائق العلمية، والنظريات الفكرية، فإن عدم إيمانهم دليل على بطلان ما أتى به العلماء والمفكرون..؟.

وذلك لأن ما أتى به العلماء والمفكرون حقائق علمية، ثابتة بالبرهان اليقيني، ولا سبيل إلى إنكاره، وإنما أنكرته الكنيسة وأربابها جحوداً وعناداً، وخشية على سلطانها الباطل، الذي بدأ يترنح تحت صدمات تلك الحقائق، بينما آمنت بها جماهير الناس، التي رأت فيها البرهان الساطع، والدليل القاطع، مما جعلها تستسلم لها، وتؤمن بمضمونها.

وهذا عينه هو ما حدث لرسول الله ﷺ على ما سنعرفه الآن.

عناد الوليد بن المغيرة:

فها هو الوليد بن المغيرة يأتي رسول الله ﷺ، ويسمع منه القرآن، ويرق له قلبه، ويتأثر به.

ويبلغ ذلك أبا جهل، فيأتي الوليد ويقول له: يا عم، إن قومك يريدون

أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله.

فيقول الوليد: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً.

قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له.

قال الوليد: وماذا أقول فيه؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته.

قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر.

* * *

ولما اجتمعت قريش عند حضور الموسم، قال لهم الوليد: إن وفود العرب ترد، فأجمعوا في محمد رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول: كاهن.

قال: والله ما هو بكاهن، ولا هو بزمزمته ولا سجعه.

قالوا: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، ولا بخنقه، ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه، وقريضه، ومبسوطه، ومقبوضه.

قالوا: فنقول ساحر.

قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده.

قالوا: فما نقول؟.

قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا وأنا أعرف أنه لا يصدق، وإن أقرب القول فيه أنه ساحر، وأنه سحر، يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجته، والمرء وعشيرته.

فتفرقوا، وجلسوا على السبل، يحذرون الناس.

إذن فهم يعلمون أن ما أتى به محمد ﷺ ليس من صنع البشر، ولا قبل للبشر بالإتيان بمثله، والذي دفعهم إلى عدم الإيمان به، ليس عدم ظهور الإعجاز فيه، وإنما هو الكبر والعناد، والأنانية والأثرة والاستبداد.

عناد الأخنس بن شريق صراحة:

جاء الوليد بن المغيرة إلى الأخنس بن شُريق فقال: ما تقول فيما سمعت من محمد؟.

فقال الأخنس: ماذا أقول؟ قال بنو عبدالمطلب: فينا الحجابة، قلنا: نعم.

قالوا: فينا السدانة، قلنا: نعم.

قالوا: فينا السقاية، قلنا: نعم.

يقولون: فينا نبي ينزل عليه الوحي؟! والله لا آمنت فيه أبداً..

فعدم الإيمان إذا ليس للحق الذي جاء به رسول الله، وإنما هو الأنانية والأثرة، والحقد والحسد...؟!.

إعلان المشركين أن كفرهم كبر وعناد:

لما قامت الحجة على المشركين، وأسقطوا في أيديهم، ورأوا أنه لم ينفعهم كذبهم على رسول الله ﷺ، ومحاولة تشويه دعوته، قالوا: إننا لا نعارض في أمر النبوّة والرسالة، ولا في أمر القرآن والإعجاز، وإنما نعارض أن يكون المرسل محمد بن عبدالله، ولو كان من عظماء مكة، كالوليد بن المغيرة، أو عظماء الطائف كمسعود بن عمر الثقفي لآمنا به، ﴿وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾.

* * *

وبهذا الذي ذكرناه يتبينّ لنا أن عدم إيمان المشركين بمحمد ﷺ، لم يكن لعدم صلاحية ما جاء به من المعجزة الدالة على نبوته، وإنما كان جحوداً وعناداً، مع تسليمهم أن ما جاء به الحق، وأنه ليس من صنع البشر.

ولذلك قال تعالى مسلياً لنبيه عليه الصلاة والسلام، وكاشفاً لحقيقة القوم: ﴿قد تعلم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

وقال تعالى: ﴿وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾.

وقال: ﴿وما يجحد بآياتنا إلّا الظالمون﴾.

إذن فليست المسألة مسألة حق وباطل، وإنما هي مسألة جحود وعناد.

والذي يهمنا نحن هنا في ظاهرة الإعجاز هو اعتراف الجميع بأن هذا القرآن ليس من صنع البشر، وإنما هو من عند الله.

وما علينا بعد ذلك آمن الناس أم كفروا، فلا يضر الحق قلة المؤيدين، كما لا يفيد الباطل كثرتهم.

فالحقائق لا تتغير بكثرة الأتباع وقلتهم.

على أنه ـ ومما لا شك فيه ـ أن الذين جحدوا ولم يؤمنوا، لا يشكلون أية نسبة أمام الذين دخلوا في دين الله، وآمنوا بمعجزته، ولا سيما أن الجميع قد اعترفوا بإعجاز القرآن، وعلى رؤوسهم بلغاء العرب وفصحاؤهم، من الشعراء، والخطباء، والحكماء.

* * *

الدليل على عدم وقوع معارضة القرآن:

والآن، وبعد أن أثبتنا إعجاز القرآن لبلغاء العرب عن التحدّي، يمكن أن يتساءل أهل العصر ويقولوا: إنك أثبت إعجاز القرآن بالتحدّي وعدم إمكان المعارضة.

أما التحدّي فهو مسلم، وما زال قائماً.

وأما عدم إمكان المعارضة فلا، فما هو الدليل عليه؟ أليس من الجائز أن يكون القرآن قد تحدّي، وبطلت المعجزة، إلّا أن هذا التحدّي لم ينقل إلينا، بل كتمه المسلمون عصبية..؟.

فما الدليل على عدم وقوع المعارضة..؟.

إنه سؤال يطرح لأحد أمرين، ومن قبل رجلين، فهو إما أن يطرح من قبل جاحد للتشكيك، وهذا منهج معروف، وإما أن يطرح من قبل جاهل للاستفهام، وعلى كلا الحالين فلا بد من الجواب، وأظن أنه السؤال يجيب عن نفسه بنفسه، وذلك لما يلي:

التحدي لم يكن خاصاً بالعرب بل كان شاملاً لجميع الأمم، في كل زمان ومكان، ولكل جيل من الأجيال، ممن يصل إلى سمعهم ذلك الكتاب، من العرب والعجم، والإنس والجن، كما كان تحدياً للمشركين، واليهود، والنصارى، والمجوس، وكل ذي شرعة أو منهاج.

قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

وقال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

وقال جلّ ذكره: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

وقال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

فإننا نرى في هذه الآيات أن التحدّي لم يكن للعرب فقط، وإنما كان لكل من في الأرض، ممن يبلغه هذا الكتاب...

وقد كرّر الله هذا المعنى في كل آية من آيات التحدّي، ليرسخ في النفوس، ويستقر في القلوب، وليكون البرهان أوضح، والحجة أبلغ، ليعلم كل إنسان، في كل زمان ومكان، أن هذا الكتاب برهان ساطع، ودليل قاطع على أنه من عند الله، وليس من قبل البشر.

التحدي ليس مقصورا على اللغة:

ويضاف إلى هذا الذي ذكرناه، أن التحدّي لم يكن في أن يأتي العرب بنظم كنظم القرآن، في البلاغة والفصاحة، والدقة والجمال فقط، بل كان في كل جانب من الجوانب التي خاض فيها القرآن، من الأحكام، والحلال والحرام، والأخبار عن المغيبات، والخوض في العلوم، والدقة المتناهية في كل سور القرآن، إذ أن الله وصفه بأنه ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ وأن الفرق بينه وبين ما يعمله البشر، أنه لا يوجد فيه اختلاف كما يوجد في ما يصنعه البشر، ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

فالتحدّي لم يكن قاصراً على جانب اللغة فقط، لأن هذا خاص بالعرب، ومن أتقن العربية من غيرهم، بل كان عاماً لكل جانب من جوانب القرآن، لأنه كان تحدّياً لكل من في الأرض، من كل الأمم، من عرب وغيرهم، ولذلك كان ومن البديهي أن يتظاهر كل من في الأرض، ممن يخالف الدين الجديد، على أن يعمل عقله، ويبذل جهده، ويستنفد طاقته، من أجل إبطاله، بإظهار العجز والتناقض فيه، أو بمعارضته، أو بتكذيبه في إخباره، أو غير ذلك من وجوه المعارضة والتحدّي.

استنفار كل من تُحدُ للمعارضة:

ولذلك استنفر كل من بلغهم هذا الكتاب ـ من المشركين، واليهود، والنصارى، وغيرهم ـ استنفروا كل طاقاتهم وإمكانياتهم من أجل هذا الأمر، وأخذوا يرمون القرآن بكل وصف يمكن أن ينفر الناس منه.

فقالوا: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾[1].

وقالوا: ﴿ما هذا إلاّ سحر مفترى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾[2].

---

(١) سورة الأنفال: آية ٣١.

(٢) سورة القصص: آية ٣٦.

وقالوا: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكرُ إنك لمجنون﴾[1].

وقالوا: ﴿أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾[2].

﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ إفك افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلماً وزوراً، وقالوا: أساطير الأولين أكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾[3].

و ﴿قال الظالمون: إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾[4].

إلى آيات كثيرة حكاها الله عنهم، تزيد من أمر التحدّي، وتدل على حيرتهم واضطرابهم أمام القرآن.

فإنهم ما فزعوا إلى ما فزعوا إليه من هذه الأقوال الباطلة المتناقضة، إلاّ لعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله، ولتنفير الناس منه، وإبعادهم عنه.

ولو تمكّنوا من معارضة القرآن، لما كانوا بحاجة إلى مثل هذه الأقوال، ولكفتهم المعارضة في إبطال المعجزة عن مثل هذه التهم التي هذوا بها، لا لتدل على بطلان المعجزة، بل لتدل على عجزهم وانهيارهم.

محاولة المشركين في المعارضة:

لم يقف المشركون عند هذا الحد من الهذيان في التهم الباطلة، بل حاولوا المعارضة وإبطال المعجزة بإيجاد التناقض في القرآن.

فلما نزل قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾[5] شق ذلك على كفار قريش، وقالوا: شتم آلهتنا، ولجأوا إلى ابن الزِّبَعْرى، وكان من أشد الناس على النبي ﷺ قبل أن يسلم، وكان من أشعر

---

(١) سورة الحجر: آية ٦.
(٢) سورة الصافات: آي ٣٦.
(٣) سورة الفرقان: آية ٤، ٥.
(٤) سورة الفرقان: آية ٨.
(٥) سورة الأنبياء: آية ٩٨.

الناس وأطبعهم، ويقولون: إنه أشعر قريش قاطبة[1].

فقال ابن الزِّبَعْرى: والله لأخْصِمَنَّ محمداً، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال له: «ألست تزعم أن عيسى عبد صالح، وأن الملائكة صالحون؟»، قال: «بلى»، قال: فهذه النصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيزاً، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة؟».

فضج أهل مكة، وفرحوا ظناً منهم أنه أحرج رسول الله ﷺ، وأبطل معجزته.

وذلك أن القرآن يثني على أولئك العباد الصالحين، من عيسى وعزير والملائكة، ثم بعد ذلك يقول: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ ـ أي العابد والمعبود ـ في النار، وعيسى، وعزير، والملائكة، قد عبدوا، إذن فهم في جهنم مع من عبدهم، وهذا فيما يزعمون تناقض في القرآن، ولذلك فرحوا به، وظن ابن الزبعرى أنه قد خصم رسول الله ﷺ.

وعند ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾[2]، [3]، فبيّن أن أمثال هؤلاء الصالحين ليس داخلاً في عموم الآية السابقة، لأنهم لم يعبدوا برضاهم، ولا تناقض في كتاب الله، فبهت ابن الزبعرى والمشركون، إذ تبيّن لهم فشل محاولتهم.

وما فعله المشركون قد فعل مثله اليهود، لأن التحدّي شامل لهم، وهم أحرص من غيرهم على إبطال المعجزة على ما ستراه.

محاولة اليهود في المعارضة:

لم تقتصر محاولة المعارضة وإظهار التناقض في القرآن على المشركين، بل

---

(١) شرح أبيات المغني البغدادي ٤/٢٥٦.

(٢) سورة الأنبياء: آية ١٠١.

(٣) الدر المنثور ٤/٣٣٨، والقرطبي ١١/٣٤٣.

تعدتهم إلى اليهود، وذلك لما كان من التحدّي العام لجميع من في الأرض.

فعندما نزل قوله تعالى: ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾[1] جاء ناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ ليحرجوه، فقالوا: يا محمد..! أفي الجنة فاكهة..؟.

قال: نعم فيها فاكهة ونخل ورمان.

قالوا: أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟.

قال: نعم، وأضعافه.

قالوا: أفيقضون حوائجهم؟.

قالا: لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون[2].

وفي بعض الروايات أنهم قالوا: من يأكل تكون له الحاجة، فكيف يقضون حوائجهم..؟.

فقال: مسك يرشح من جنوبهم.

فهم أرادوا بسؤالهم هذا إثبات التناقض بزعمهم، وذلك أن الآكل يريد قضاء الحاجة، وقضاء الحاجة من المستقبحات التي تتنافى مع نعيم الجنة، فكيف يتفق نعيم الجنة مع هذا؟.

فكان الجواب الحكيم أنه يصير عرقاً كالمسك يفيض من جنوبهم.

استعانة المشركين باليهود على المعارضة:

لم يقف الأمر عند فشل محاولة المشركين، ومحاولة اليهود، بل تعداه إلى طور آخر، وهو استعانة المشركين بغيرهم من اليهود والنصارى، ليكون بعضهم ظهيراً لبعض، ليتحقق التحدّي في قوله تعالى: ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾، فطلبوا منهم أن يكتبوا لهم بأشياء، يسألون عنها رسول الله ﷺ، عسى أن يحرجوه في جوابها.

---

(١) سورة الرحمن: آية .

(٢) الدر المنثور ٦/١٥٠.

فكتب إليهم اليهود أن يسألوه عن أمر أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح.

فلما أتى ذلك قريشاً أتى الظفر في أنفسها، فقالوا: يا محمد قد رغبت عن ديننا ودين آبائك، فحدثنا عن أمر أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، فقال أئتوني غداً، ولم يستثن - أي لم يقل إن شاء الله - فمكث عنه جبريل ما شاء الله لا يأتيه، ثم أتاه، فقال: سألوني عن أشياء لم يكن عندي بها علم فأجيبَ، حتى شق ذلك علي، فنزل ما ذكر من أصحاب الكهف، وذي القرنين، و ﴿يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾[٢].

استعانة المشركين بالنصارى:

وكما استعان المشركون باليهود، حاولوا أن يستعينوا بالنصارى على الإسلام والمسلمين وإبطال الدعوة والمعجزة، فعندما هاجر المسلمون الهجرة الأولى إلى الحبشة، فراراً بدينهم من الفتن، أرسل المشركون خلفهم وفداً منهم، يحمل معه الهدايا والتحف للنجاشي وبطارقته.

وبعد مفاوضاتٍ فاشلة معه، ليردَّ المسلمين إلى مكة، قال عمرو بن العاص - وكان رئيس الوفد - والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم، والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد!.

ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فأرسل إليهم الملك ليسألهم، فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟.

---

(١) الدر المنثور ٤/٢١٧ بالمعنى.

(٢) سيرة ابن هشام، ومختصر السيرة ص ٧٦.

فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبدالله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأغضب هذا الكلام البطارقة الذين كانوا حول النجاشي، ونخروا نخرة رجل واحد، وكادت تقع الكارثة.

إلا أن النجاشي ضرب بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلتَ هذا العود.

وجه الاستدلال على عدم المعارضة بما ذكرناه:

فهذا غيض من فيض، وقليل من كثير، من المحاولات التي لا سبيل إلى حصرها، والتي كانت تهدف إلى إيجاد التناقض أو الخلل في القرآن، وإحراج رسول الله ﷺ، لإبطال دعوته، من المشركين على حدة، واليهود على حدة، والنصارى على حدة، ومن المشركين واليهود، أو المشركين والنصارى معاً.

محاولات يائسة، وأوهام باطلة، كلها تهدف إلى التشكيك في أمر القرآن والدين الجديد.

فلو كان القرآن قد عورض من قبل فصحاء العرب، لشاع هذا الأمر وذاع، وملأ الفيافي والبقاع، ولقال كل مشرك، وكل يهودي، وكل نصراني، وكل معارض لهذا الدين: إن معجزة محمد ﷺ قد بطلت، وقد أتى العرب بكلام هو أفصح من القرآن وأبلغ، وهذا يدل على بطلان دينه.

لأن هذا من أهم الأمور التي تتوفر الدواعي على نقلها وإشاعتها، بل يتهافت الناس عليها تهافت الفراش على النار، ومن المستحيل كتمانها.

وإذا كان المشركون يفرحون بالأمور التافهة، التي ذكرنا بعض أمثلتها، والتي كانوا يظنون أنها سوف توجد التناقض أو الخلل في القرآن، ويشيعونها ويذيعونها، فكيف يكون حالهم لو أن القرآن عورض حقاً.

إنه لأمر ـ لو وقع ـ يستدعي من أعداء الدين والمتربصين أن يجعلوا منه تاريخاً وعيداً.

فكونه لم ينقل إلينا عن واحد من المشركين، أو اليهود، أو النصارى، أو غيرهم من أعداء الدين، على كثرتهم، واهتمامهم بالأمر، وتوفر دواعيهم على إشاعته ونقله، كونه لم ينقل عن واحد منهم أنه قد وقعت المعارضة، يدلنا دلالة قاطعة لا تردد فيها أن القرآن لم يعارض، ولو عورض لنقلت إلينا معارضته، ولملأ المشركون بها الدنيا، ولما كان هناك من سبيل لكتمانها، علماً بأن القرآن كان يقرع أسماعهم صباح مساء بآيات التحدّي تتلى على رؤوس الأشهاد.

ومما اتفق عليه العقلاء أن الأمر إذا كان مما تتوفر الدواعي على نقله وإشاعته، كهذا الأمر الخطير، ثم لم ينقل إلينا إلّا من قبل رجل واحد، أو آحاداً، فإننا نقطع بكذبه، فكيف يكون الحال فيما إذا لم ينقله إلينا أحد. . .؟؟.

إنه يدل على عدم وقوعه دلالة قاطعة، وهذا شأن معارضة القرآن التي لم ينقلها إلينا أحد مع توفر الدواعي على نقلها لو وقعت، ولا سيما والتحدّي قائم على مر العصور وكر الدهور، يطلب المعارضة، ويعلن عجزهم عنها قبل أن يفعلوها، ويُهددهم بوخيم العقاب، وأليم العذاب ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ مما يثير حفيظتهم، ويبعث هممهم على فعلها، فكونها رغم كل هذا لم ينقل إلينا أنها فعلت، يدل دلالة قاطعة على عدم وقوعها.

استدلال آخر على فشل المشركين في المعارضة:

قد عرفنا في الأمثلة السابقة ما بذله المشركون لإبطال المعجزة، فلو حدث أن عورضت، لشاع وذاع، واشتهر وانتشر، فكونه لم ينقله إلينا أحد، رغم توفر الدواعي على نقله، يدل دلالة قاطعة على عدم وقوعه.

ولا سيما أن المشركين قطعوا الأرحام، وأراقوا الدماء، وهجروا المؤمنين

وهجَّروهم، وشنوا عليهم الحروب والغارات، من أجل القضاء عليهم، ولو كان بإمكانهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بدون هذا، عن طريق معارضة المعجزة، لما لجأوا إليه، فإن الإنسان لا يلجأ إلى الحرب، التي ربما استأصلت شأفته، وأبادت قومه، إلّا عندما يعجز عن غيرها من الوسائل التي هي أبسط منها وأيسر.

قال الإمام أبو بكر الباقلاني: «وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب، وجاهدوه ونابذوه، وقطعوا الأرحام، وأخطروا بأنفسهم، وطالبوه بالآيات، والإتيان بالملائكة، وغير ذلك من المعجزات، يريدون تعجيزه، ليظهروا عليه بوجه من الوجوه.

فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم ـ وذلك يدحض حجته، ويفسد دلالته، ويبطل أمره ـ فيعدلون عن ذلك، إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور، التي ليس عليها مزيد من المنابذة والمعاداة، ويتركون الأمر الخفيف..؟!.

هذا مما يمتنع وقوعه في العادات، ولا يجوز اتفاقه من العقلاء»[1].

* * *

بعض المحاولات اليائسة في المعارضة

إلّا أننا رغم هذا لم نعدم بعض السفهاء المشعوذين الذين تفوهوا ببعض الكلمات، زاعمين أنها معارضة للقرآن، إلّا أنها كانت الدليل على عجزهم وسخفهم، والبرهان على إعجاز القرآن وعظمته، وذلك كمسيلمة.

٭ محاولة مسيلمة الكذاب:

لقد زعم مسيلمة أنه أوحي إليه قرآن كقرآن محمد ﷺ، فأتى بسَقَط من القول يدل على جهله وسخفه، وضعف عقله ورأيه، مما أصبح نادرة يتندر بها أهل المجالس، وأنموذجاً للهزء والسخرية على مدى التاريخ.

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٢.

ما سمعه إنسان إلاّ وحمد الله على ما أنعم عليه من العقل والفهم.

فمما كان يزعم أنه أنزل عليه من السماء «والليل الأطخم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم».

وقال:

«والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس».

وقال:

«والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تجتمعون».

وقال:

«ضفدع بنت ضفدعين، نِقي ما تنقين، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماءَ تكدرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً قوم يعتدون».

وقال:

«والمبديات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترَّ فآووه، والباغي فناوئوه».

وقالت سجاحِ بنت الحارث بن عقبان، وكانت تتنبأ كمسيلمة، فاجتمعت به، فقالت: ما أوحي إليك؟

فقال: «ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشاً».

قالت: فما بعد ذلك؟

قال: «إن الله خلق النساء أفواجاً، وجعل الرجال لهن أزواجاً، فينتجن لنا سخالاً إنتاجاً».

فقالت: أشهد أنك نبي[1].

إلى آخر ما نقل عن مسيلمة من مثل هذا الهزء، مما لا داعي للإطالة به، ومما يدل على فساده بنفسه.

ولذلك لم يشتغل الناس به، ولم يلتفتوا إليه.

أين هذا الكلام من كلام الله الذي يكشف أسرار الكون، ويزيل ألغاز الحياة، ويضع للإنسان أعظم المبادىء التي تضمن له السعادة والطمأنينة والاستقرار، بأسلوب سبى العقول، وأثر في القلوب، وأذهل فحول الشعراء والبلغاء والعظماء..؟!.

ولذلك روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سأل أقواماً قدموا عليه من بني حنيفة، سألهم عما يقوله مسيلمة، فحكوا له بعض ما ذكرناه عنه في الأسطر السابقة، فقال رضي الله عنه: سبحان الله، ويحكم إن هذا الكلام لم يخرج عن إلٍّ، فأين كان يذهب بكم؟.

يريد بذلك أنه لم يخرج عن ربوبية.

لقد أدرك ـ رضي الله عنه ـ بسليقته العربية، كما يدرك كل متذوق للغة، أدرك أن هذا الكلام لا يمكن أن يخرج عن الربوبية، لما فيه من الركة والسخف، والعجز والضعف..

أَوَ يقال بعد هذا: إن القرآن عورض..؟ اللهم لا..

إلا أنه قد يقال: هب أن العرب قد عجزوا عن معارضة القرآن، أو ليس من الممكن أن يكون غير العرب من الأمم الأخرى قد عارضوه، ولا سيّما أنه لم يقصر التحدّي على العرب فقط، بل كان شاملاً لجميع من في الأرض؟.

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ١/١٥٦.

احتمال المعارضة من غير العرب والرد على كتاب ماني وزرادشت

قد ذكرنا في الفقرة الماضية احتمال إثارة سؤال حول إمكانية معارضة القرآن من غير العرب، من الأمم الأخرى، التي تحداها القرآن أيضاً، إذ لم يكن الخطاب موجهاً للعرب فقط، وإنما كان موجهاً لكل من في الأرض من العرب والعجَم، والإنس والجن.

والجواب على هذا: هو ما ذكرناه من عدم النقل إلينا، مع توفر الدواعي، وذلك أن الاهتمام بإبطال النبوّة لم يكن من قبل العرب فقط، بل من قبلهم وقبل غيرهم، كما رأينا في الفقرات الماضية، ومع هذا لم ينقل إلينا عن واحد من أهل الأرض، لا من العرب، ولا من غيرهم أنهم عارضوه، ولو عورض لنقل، على ما ذكرناه سابقاً.

وثانياً: إذا كان العرب وهم أهل اللسان، وفرسان البلاغة والبيان، قد عجزوا عن المعارضة، فلا شك أن غيرهم من الأمم الأخرى التي لا تعرف اللسان العربي، لا شك أنها تكون أعجز.

قال الإمام الباقلاني: فإن قيل: إن المجوس تزعم أن كتاب زرادشت وكتاب ماني معجزات..؟.

قيل: الذي يتضمنه كتاب ماني من طرق السحر، وضروب الشعوذة، لا يقع فيها إعجاز، ويزعمون أن في الكتاب الحِكَم، وهي حِكَمٌ منقولة، متداولة على الألسن، لا تختص بها أمة دون أمة، وإن كان بعضهم أكثر اهتماماً بها، وتحصيلاً لها، وجمعاً لأبوابها.

دعوى معارضة ابن المقفع

قال الباقلاني: وقد ادّعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، ثم قال: وليس يوجد له كتاب يَدَّعي مدع أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة، ثم فرق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره، فإن كان كذلك، فقد

أصاب وأبصر القصد، ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء، ثم يلوح له رشده، ويتبيّن له أمره، وينشكف له عجزه.

دعوى المعارضة في أهل الأعصار التالية للعصر الأول

قال الباقلاني: فإن قال قائل: قد يجوز أن يكون أهل عصر النبي ﷺ قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن، وإن كان من بعدهم من أهل الأعصار لم يعجزوا.

قيل: هذا سؤال معروف، وقد أجيب عنه بوجوه.

منها: أنا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز.

لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول، مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم، وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم، فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم، فلا.

ومنها: أنا قد علمنا عجز سائر أهل الأعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الأول.

والطريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد، لأن التحدّي في الكل على جهة واحدة، والتنافس في الطباع على حد واحد، وكذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾[1] (سورة الإسراء: آية ٨٨).

لماذا لا ندرك إعجاز القرآن في هذا العصر

بقي عندنا سؤال مهم، يتردد على ذهن كل إنسان من أبناء العصر، ألا وهو، ما دام القرآن معجزاً بلغته وأسلوبه، يسبي العقول، ويملك القلوب،

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٥٠.

ويؤثر في النفوس، ويملي على كل إنسان إعجازه، ليعترف كل من سمعه أنه ليس من صنع البشر، وإنما هو كلام الله، ما دام القرآن كذلك، لماذا لا ندرك نحن أهل هذا العصر إعجازه..، ولماذا لا نجد أثر فصاحته وبلاغته في قلوبنا كما وجدها أهل العصر الأول، بل ربما لا يفرق الواحد منا بين كلام الله وكلام كثير من الناس، وربما أعرض عن سماعه أو تلاوته..؟.

إنه لكلام حق، وأمر واقع، لم يعد أكثر الناس في عصرنا يدركون وجه الإعجاز في القرآن، ولم يعودوا يرون فيه ما رآه سلف هذه الأمة وأولها، ولا يكاد يميّز قارىء القرآن اليوم بينه وبين غيره من أساليب الكلام، بل ربما تأثر بغير القرآن أكثر من تأثره بالقرآن.

ولكن.. ليس السبب في هذا هو عدمَ وجود الإعجاز في كتاب الله، فكتاب الله ما زال هو الكتاب المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولقد تكفل الله بحفظه وبقائه إلى يوم القيامة ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولكن السبب في ذلك هو جهلنا بلغتنا العربية، لغة القرآن، التي لم نعد نعرف منها القليل ولا الكثير، وإن كنا نسمى عرباً، وننطق العامية العربية.

وإذا جهل الإنسان هذه اللغة، فإنه لن يستطيع أن ينطق بها، علاوة عن أن يفهمها ويتذوقها.

ولذلك نجد معظم أهل العصر لا يستطيعون أن يتكلموا العربية دون أن يلحنوا بها، ومن كان هذا شأنه، فإنه من المحال عليه أن يدرك إعجاز القرآن أو يضع يده على بلاغته.

إن العربي المعاصر اليوم ليس فقط لا يستطيع أن يدرك إعجاز القرآن، بل إنه لعاجز أن يفهم الكثير من تراكيب العربية بصورها البيانية والبلاغية، ولو قرأنا عليه شيئاً من الشعر الذي سجد لمثله الفرزدق، لما كان منه إلاّ النفار والإعراض، لا لأن الشعر ليس جميلاً، ولكن لأنه ليس في مقدوره فهم ذلك الشعر.

ومن كان بهذا الوصف لا يجوز له أن يقول: لماذا لا أدرك إعجاز القرآن..؟ ومن ثم فليس في القرآن إعجاز.

إن الأعمى الذي لا يبصر الضياء أو الألوان، لا يجوز له أن يقول: ما دمت لا أرى الضياء والألوان فلا ضياء ولا ألوان.

وما مثل من يقول مثل هذا إلّا كما قال المتنبي:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

إن العيب ليس في بلاغة القرآن، وإنما هو في جهلنا بلغة القرآن، ومن ثم فلن يضير القرآن جهلنا.

ومن يكُ ذا فَمٍ مُر مريضٍ يَجِدْ مراً به الماءَ الزلالا

على أن من درس هذه اللغة، وتعمّق فيها، يستطيع أن يضع يده، في كل زمان ومكان، على كثير من وجوه الإعجاز اللغوي في القرآن.

هل معنى هذا أن أهل العصر فقدوا إعجاز القرآن

بناء على ما ذكرناه، من أن أهل العصر الحاضر قد عجزوا عن تذوق وفهم وإدراك الإعجاز في القرآن، لجهلهم بلغة القرآن.. فهل معنى هذا أنهم أصبحوا اليوم بدون وسيلة يعرفون بها إعجاز القرآن..؟؟.

إذن فمعجزة نبينا كمعجزة غيره من الأنبياء؟.

أم أنه توجد في القرآن وجوه أخرى من الإعجاز، نتمكن من خلالها من الوقوف على أنه من عند الله، وليس من عند البشر؟ فإذا ما فاتنا الإعجاز اللغوي فلن يفوتنا والحالة هذه تلك الوجوه الأخرى من الإعجاز؟.

والجواب.. بلى.. إن في القرآن لوجوهاً كثيرة من الإعجاز سوى الإعجاز اللغوي، كل واحد منها يدل على أنه من عند الله، ويستطيع أهل العصر، كأهل العصر الأول، وأهل العصور القادمة، يستطيعون أن يدركوها

إدراكاً بيّناً، بحيث يستدلون من خلالها على إعجازه، ليكون القرآن المعجزة الناطقة لكل إنسان، في كل زمان ومكان، مهما تطاولت الأيام، وتطورت العلوم، وارتقت الحضارة، وتباينت الشعوب والأمم.

الفرق بين معجزة نبينا عليه السلام ومعجزة غيره من الأنبياء

إن ما ذكرناه من وجوه الإعجاز الكثيرة الموجودة في القرآن، سوى الإعجاز اللغوي، مما سنذكره قريباً بالتفصيل، إن هذا هو الفرق الجوهري بين معجزة نبينا محمد ﷺ، ومعجزة غيره من الأنبياء السابقين.

فقد كانت معجزة الأنبياء السابقين معجزة مؤقتة، باقية ببقاء النبي أو الرسول، فإذا ما مات، انقضى عهد معجزته، ولم يبق منها إلّا تاريخها ووصفها.

وذلك لأنها معجزة مادية، لا تظهر إلّا على يد النبي أو الرسول، وبناء على ذلك لا يستطيع أهل العصر الثاني مشاهدتها، ولا يبقى لديهم إلا تاريخها ووصفها، وهذا ليس له من الأثر في النفس ما للمعجزة نفسها، ولذلك يضعف تأثيره في النفوس مع تطاول الأزمان، ولا سيما إذا صحبها الاضطراب في النقل، كما وقع للأنبياء السابقين في الأمم الخالية.

وعلى افتراض أنه نقل نقلاً متواتراً لا خلاف فيه، ويدل على وجود المعجزة دلالة يقينية، فإنه لا يفيد شيئاً، لأن المستدل عليه بهذه المعجزة، وهو الدين، قد بدّل وغيّر وحرّف.

وعلى افتراض عدم التحريف، فإن الرسالات السابقة كانت خاصة بأمم معينة، كما كانت مؤقتة بزمان معين.

وأما رسالتنا الإسلامية فهي رسالة خالدة على الأزمان إلى يوم القيامة، وعامة لجميع بني الإنسان، من كل أمة، وفي كل مكان، ﴿وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين﴾.

ولذلك كان من الضروري أن تكون هناك وسيلة تدل أهل كل جيل على

صدق هذه الرسالة، وتعتبر معجزة لكل من نظر فيه، وتكون باقية ببقائه.

من أجل هذا وجدت وجوه كثيرة من الإعجاز، إذا فات أهل العصر بعضها، لسبب من الأسباب، فلن يفوتهم بعضها الآخر.

وهذه الوجوه لا يمكن التحكم بحصرها، لأنها خاضعة لدقة النظر في كتاب الله، واختلاف الأشخاص، والأحوال، والعلوم، والمكتشفات، فربما اكتشف أهل الأجيال القادمة، بما يتوصلون إليه من العلوم والمكتشفات، ربما وضعوا أيدهم على وجوه جديدة من الإعجاز، لم يستطع أهل جيلنا، ولا أهل الأجيال السابقة معرفتها، أو وضع أيديهم عليها.

وهذا في رأيي نوع من أعظم أنواع الإعجاز في القرآن الكريم، الذي لا تفنى غرائبه، ولا تنتهي عجائبه، كما سأشير إليه في الفقرات القادمة إن شاء الله.

قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلّا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1].

فهذا الوحي هو معجزة رسول الله ﷺ التي آمن عليها الناس في الصدر الأول، وقد تكفل الله بحفظها إلى يوم القيامة: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾ حتى تراها الأجيال التي جاءت بعد الجيل الأول إلى يوم القيامة، وترى فيها ما يدل على صدق الرسول والرسالة، ومن ثم يؤمن عليها.

فهي معجزة خالدة خلود الزمان، يجد فيها أهل كل جيل من الإعجاز ما يدل على صدق الرسول والرسالة، ليؤمنوا بالله عن بينة حية ماثلة بين أيديهم، لا عن أمر نظري تاريخي قابل لكثير من أنواع الاحتمال.

وهذا هو السر في دخول الآلاف المؤلفة من الناس في الإسلام، على مر

---

(١) البخاري ٦٦، كتاب فضائل القرآن باب كيف نزول الوحي، ومسلم ١/٩١ ـ ٩٢.

التاريخ الإسلامي الطويل، وفي أيامنا المعاصرة، من العامة والعلماء، ومن جميع الأمم والنحل والمبادىء.

فإنه ما من عالم منصف ينظر في القرآن نِظْرة تأمل وإنصاف، إلا ويجد فيه من الآيات الناطقة ما يدل على أنه من عند الله، مما يفرض عليه أن يحني رأسه مهما كان شامخاً، وأن يعلن استسلامه مهما كان معانداً جباراً، وأن يدخل في دين الله عن رضى وقناعة.

إنه الإعجاز الحي الناطق، لكل زمان ومكان، والذي لا يموت ولا يبلى، ولا تزيده الأيام إلّا شدة وقوة، وظهوراً ووضوحاً.

وجوه الإعجاز في القرآن الكريم

إن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ـ سوى الإعجاز اللغوي ـ كثيرة ومتعددة، وكما ذكرت في الفقرة السابقة لا يستطيع الإنسان حصرها في جانب أو عدد معين بحيث لا يمكن الخروج عنه، وذلك لأن الواقع علمنا أن هذا غير ممكن، لما نجده كل يوم من الوجوه الجديدة في الإعجاز، مما كان خافياً على أهل العصر السابق، ومما عرفنا اليوم بتقدم العلوم، وتطور الحضارات.

وكما ذكرت قبل قليل هذا نوع من أهم أنواع الإعجاز في القرآن، إذ أن من أعظم ما يلفت النظر عند الإنسان المنصف ما يجده من الآيات المعجزات التي تتماشى مع أعظم ما وصل إليه الإنسان من تطور وعلم وحضاره.

إلّا أنه رغم هذا يمكننا أن نحصر أهم وجوه الإعجاز التي تكلم عنها العلماء قديماً وحديثاً بما يلي:

أولاً: وجوه الإعجاز التي لا تخفى على أحد في أي عصر من العصور، أو أي مكان من الأمكنة، وإن كان الناس يتفاوتون في مدى إدراكها بسبب تفاوت معارفهم وحضاراتهم، وتتلخص في وجهين مهمين هما:

١ ـ الإعجاز الغيبي.

٢ ـ الإعجاز العلمي.

ثانياً: وجوه أخرى من الإعجاز، أشار إليها العلماء قديماً وحديثاً، تتفاوت في ظهورها وخفائها، ويتداخل بعضها في بعض، وربما كان وجه الإعجاز في بعضها غير ظاهر، ولذلك فهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: وجوه يظهر فيها الإعجاز، وإن كان متفاوتاً، بل ربما كان في بعضها خفياً، وهي:

١ ـ التناسب في جميع ما تضمنه القرآن ظاهراً وباطناً، بحيث خلا عن التعارض والتناقض.

وهذا من وجوه الإعجاز العظيمة في القرآن، على ما سنبينه في مكانه إن شاء الله.

٢ ـ قوة تأثيره في النفوس، بحيث جعلت كل من يسمعه يتأثر به، على ما ذكرناه من أحوال المشركين حينما كانوا يسمعون القرآن الكريم.

٣ ـ أنه توجد فيه روحانية جديدة تدب في جسد المؤمن، فتحركه تحريك الروح للأجساد، وتجعل منه إنساناً جديداً، بعقل جديد، وفهم جديد، وطاقة جديدة[1].

٤ ـ عدم ملال السمع له، مهما تكرر عليه، أو تردد أمامه[2].

٥ ـ هدايته للنفوس، وإيجاده للديانة الجديدة بقهر الديانة القديمة[3].

القسم الثاني: وجوه من الإعجاز أشار إليها بعض العلماء، إلا أنها لا إعجاز فيها، فيما ظهر لي من الرأي والله أعلم، وهي:

١ ـ احتواء القرآن على أساليب القرآن المنطقية.

---

(١) وجدي ٦٧٧/٧ دائرة المعارف.

(٢، ٣) محاسن التأويل ٧٧/٢ ـ ٧٩.

٢ ـ تضمنه علوم الحلال والحرام وسائر الأحكام.

٣ ـ احتواؤه على الحكم البالغة.

ثالثاً: وجوه باطلة، زُعم أنها معجزة، وليس الأمر كذلك قطعاً، وذلك كالإعجاز العددي الذي ادّعاه رشاد خليفة، على ما سنذكره ونبيّنه في مكانه بالتفصيل، وذلك بعد الانتهاء من الإعجاز العلمي، لعلاقة هذا النوع بالعلوم والمكتشفات الحديثة فيما زعم قائله.

رابعاً: القول بالإعجاز عن طريق الصرفة، وهو المنسوب إلى بعض المعتزلة.

وسنتكلم إن شاء الله على كل نوع من أنواع الإعجاز التي أشار إليها العلماء بالتفصيل، مع النقد والتأييد، وبيان وجه القوة في كل منها، مع بيان ما يؤخذ عليها إن وجد.

ثم نعقب هذا كله ببيان رأينا في موضوع الإعجاز.

وسنبدأ أولاً وقبل كل شيء ببيان بعض الوجوه التي أشار إليها بعض العلماء على أنها معجزة، وهي لا إعجاز فيها.

وتقديم الكلام عليها إنما هو لقلتها ويسر موضوعها.

ثم نتكلم على الإعجاز بالصرفة، لكونه أيضاً من الأباطيل في موضوع الإعجاز.

ثم ننتقل إلى الكلام على الإعجاز الغيبي والإعجاز العلمي، الذين أعتبرهما ذروة الإعجاز لكل أمة وزمان ومكان، بعد الإعجاز اللغوي الذي تحدى به العرب، وهما من أنواع الإعجاز التي لا تخفى على أحد.

وبعد ذلك نعرض إن شاء الله للإعجاز العددي الذي ادّعاه رشاد خليفة، ونبيّن وجه بطلانه والكذب فيه، وهو وإن كان من الوجوه الباطلة التي كان يجب أن نقدمها الآن إلّا أنني سأضطر لتأخيره لما له من علاقة بالعلوم الحديثة

والحاسب الآلي ـ الكمبيوتر ـ كما زعمه قائله، وسأذكره إن شاء الله بعد الانتهاء من الإعجاز العلمي.

وفي النهاية نذكر بعض وجوه الإعجاز التي أشرنا إليها مع بيان رأينا في موضوع الإعجاز.

وأما الإعجاز اللغوي، فسأفرد له بحثاً مستقلاً إن شاء الله في المستقبل مكتفياً هنا بما ذكرته من الوجهة النظرية، وذلك لما للإعجاز اللغوي من الأهمية، ولما للبحث فيه من الدقة والتشعب، مما يحتاج معهما البحث مستقل، ولا يمكن أبداً أن يكون الإعجاز اللغوي فصلاً من كتاب، والله الموفق.

المَبحَث الأوّل
في
بَعض الوجُوه التي لا إعجَاز فيهَا


مكتبة المهتدين الإسلامية

ما لا إعجاز فيه

قبل أن نخوض في وجوه الإعجاز الرئيسية والفرعية في القرآن، أود أن أنبه إلى أنه قد ذكر كثير من العلماء وجوهاً من الإعجاز في زعمهم، إلا أننا حينما ندقق النظر فيها، نجد أنها لا تعدو المزية والفضيلة للقرآن على غيره من الكتب، إلا أنها ليست من الإعجاز في شيء.

فالمعجزة هي ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله وتحديه، على ما بيناه في أولى فقرات هذا البحث.

فليس كل ما يكون فضيلة للقرآن يكون معجزة، وإلا فكلام رسول الله ﷺ له فضيلة على غيره من الكلام لكنه ليس معجزاً.

كما أن كلام كثير من الفصحاء والبلغاء والحكماء جاهلية وإسلاماً له فضل على غيره من الكلام، لكنه ليس بمعجز، ولم يزعم أحد من الناس أنه معجز.

وسنضرب على ذلك عدداً من الأمثلة يتضح بها المقال، ويزول الإشكال.

١ - زعم بعضهم أن من وجوه الإعجاز احتواؤه على أساليب الكلام المنطقية.

وأنا لا أدري ما وجه الإعجاز في احتوائه على هذه الأساليب، مع أنها علوم مدونة عند اليونان وغيرهم، بل هي على الجملة من المعارف العامة عند أرباب العقول السليمة.

فكيف تكون من وجوه الإعجاز وهي مستعملة من قبل الكفرة قبل أن تستعمل من قبل المؤمنين..؟.

إلا إذا كان مراد القائل أن القرآن استعمل هذه الأساليب المنطقية بأسلوب بلاغي واضح، على خلاف العادة في استعمال مثل هذه الأساليب، وعند ذلك نرد هذا النوع إلى النوع الأول من أنواع الإعجاز الرئيسية، ألا وهو الإعجاز اللغوي.

٢ ـ تضمنه للحلال والحرام:

فقد ذكر الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره[1] أن من وجوه الإعجاز في القرآن، ما تضمنه من العلم في الحلال والحرام، وفي سائر الأحكام.

وهذا أيضاً لا إعجاز فيه، وذلك لأن مسألة الأحكام، والحلال والحرام، ليست مما امتاز به القرآن، بل هي مما عرفته كل الأمم، قديماً وحديثاً، على تفاوت بينهم في نوع الحلال والحرام، وبغض النظر عن كون ما حللوه أو حرموه مستنداً إلى شرع أو عقل، أو كانوا مصيبين فيه أم مخطئين.

فكل أمة، وكل أصحاب دين أو نحلة، يزعمون أن عندهم حراماً وحلالاً، ينبني عليهما الثواب والعقاب، في الدنيا عند الماديين، والدنيا والآخرة عند المتدينين.

ومسألة الحلال والحرام في القرآن مبنية على الإيمان بالله، فالمؤمن يسلم بها، والكافر ينكرها، ويزعم بطلانها.

ولكن المعجزة لا يمكن لإنسان ما أن ينكرها، فمن سمع اليوم شيئاً من الإعجاز الغيبي في القرآن، أو الإعجاز العلمي، لا بد له ـ مهما بلغ عناده في الكفر ـ أن يقف، ويتردد في مصدر القرآن، بل لا بد له أن يذعن في نهاية المطاف أنه ليس من عند البشر، إذ لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثل هذا، كما سنشير إليه قريباً إن شاء الله.

على أن مسألة الحلال والحرام ـ قبل هذا كله ـ مبنية على الإيمان بالله،

---

(١) ١/ ٧٥.

فمن آمن به قبلها، ومن جحده كفر بها وردها، فلا يمكن أن يَكون الإيمان بالله متوقفاً عليها.

فلا يمكن أن نقول لجاحد: إن تحريم الزنا، وإباحة النكاح، وحل البيع، وحرمة الربا، معجزة دالة على صدق الرسول ووجود الله . . . ، لأنه هو أيضاً يوجد عنده ممنوع وجائز وواجب، وهو من صنعه، وقد يوافقنا في بعض التشريعات، ومع ذلك فما وجد فيها لا الإعجاز ولا غيره.

٣ ـ احتواؤه على الحكم:

وقد ذكر القرطبي أيضاً أن من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم احتواؤه على الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي.

وهذا أيضاً بعيد من الإعجاز كل البعد، وهو أبعد من المثالين السابقين.

وذلك لأن كتب الحكمة أيضاً كانت قديمة، عرفها العرب وغيرهم من الأمم.

أما العرب، فلا يخفى على أحد ما كان عندهم من الحكمة التي انتشرت في شعرهم ونثرهم، حتى بلغوا بها الذروة العليا بين الأمم.

وأما غير العرب، فقد فخر الهنود بكتاب «كليلة ودمنة» الذي كان خاصاً بملوكهم، لما فيه من الحكمة، ثم انتقل إلى الفرس، وصار مقصوراً على ملوك الهند والفرس، إلى أن جاءهم قدر الله بالإسلام، وترجم الكتاب، ليكون من المعارف العامة عند كل الناس، من مسلمين وغيرهم.

كما فخر الفرس بعهد أردشير، الذي امتلأ بالحكمة، وازدان بها، ولا أريد أن استطرد بسرد الكتب التي اشتملت على الحكمة، فهي كثيرة، ولم نسمع أبداً أن أحداً قال: إن هذه الكتب معجزة، لاحتوائها على ذلك القدر الكبير من الحكمة.

بل لو جاء إنسان، وجمع كل الحكمة الموجودة في الكتب السابقة، مع

الحكمة الموجودة في القرآن، وفي العصر الحديث، وأدركها وحفظها، لما قيل: إنه أتى بالمعجزة أو قاربها.

فالمعجزة شيء، وإدراك الحكمة والإحاطة بها شيء آخر.

نعم... لا شك في كثرة الحكمة البالغة في القرآن تجعل له مزية، ولكنها ليست معجزة...

الإعجاز بالصرفة

والإعجاز بالصرفة ليس نوعاً من الإعجاز، كالذي سبق ذكره وبيـان بطلانه، وإلا لهان الخطب، وإنما هو في الحقيقة شبهة حول إعجاز القرآن.

وخلاصة هذا القول أن القرآن الكريم ليس بمعجزة في ذاته، وأنه إنما صار معجزة بإعجاز الله الخلق عن تحديه ومعارضته.

وذلك أنهم قالوا: إن القرآن مؤلف من كلام العرب وتراكيبهم، ولم يخرج عن أساليبهم وصورهم، بل هو جار على منوالهم، سالك سبيلهم، ولذلك فإنه لا يزيد بفصاحته عن فصاحة بعض الفحول من شعراء الجاهلية، أو أن فصاحة بعض الفحول من شعراء الجاهلية لا يكون دون فصاحته[1].

أي أن العرب كانوا قادرين بما عندهم من الفصاحة والبلاغة التي لم يخرج القرآن عن طورها ـ كانوا قادرين على معارضة القرآن والإتيان بمثله، أو بمثل بعض سوره، فهو في ذاته لا إعجاز فيه.

وإنما صار القرآن معجزاً، لأن الله تعالى أعجز الخلق بمنعهم من الإتيان بمثله، مع قدرتهم عليه.

وإني لا زلت منذ أن سمعت هذا القول في أوائل طلبي للعلم، إلى هذا اليوم، لا زلت أستغرب من هذا القول وقائله، ولا سيما بعد أن اطلعت على ما اطلعت عليه من ضروب الإعجاز الغيبي والعلمي في القرآن، مما سنذكره إن شاء الله في الصفحات القادمة.

---

(١) القواطع ص ٢٥٤.

وإني لأظن أن كل من يسمع هذا القول، وإن لم يكن على معرفة بلغة العرب وبلاغتها ـ سوف تأخذه الدهشة، ويملكه العجب، إذ يسمع أن قائل هذا القول يسوي بين قدرة الله، وقدرة البشر في الكلام، فلا يرى لكلام الله مزيد فضل على كلام الفحول من شعراء الجاهلية.

وسوف تزيد دهشته، وتتسع دائرة تعجبه حينما يعلم العارف بلغة العرب وأساليبها أن قائل هذا القول هو من أكبر أدباء العربية وعلمائها، ألا وهو الجاحظ، وأنه ينسب أيضاً للنظام وبعض المعتزلة، والمرتضى من الشيعة، وأبي إسحق الإسفراييني من أهل السنة.

أما نسبته إلى النظام فإنها قريبة وليست ببعيدة، لما كان يعرف عن النظام من الكفر والإلحاد والزندقة، حتى صنف كتاب «نصر التثليث على التوحيد» على ما قاله ابن السبكي.

ولكن العجب من نسبته إلى المرتضى والإسفراييني، وإني لعلى شك من صحة هذه النسبة إليهما.

وأما نسبته للجاحظ فقد قال الإمام أبو مظفر بن السمعاني بعد أن ذكر هذا الكلام عن الإعجاز في القرآن، قال:

وهذا قول باطل، وزعم كاذب. وسمعت والدي ـ رحمه الله ـ يقول: إن هذا قول اخترعه الجاحظ، ولم يسبقه إليه أحد، ومن قاله بعده فإياه اتبع، وعلى منواله نسج، وهو في نفسه مستثمج مستهجن.

والتأمل في نظم القرآن، وجزالته وفصاحته، وعرضُه على كل نظم عرف من أساليب كلام العرب، وكل كلام فصيح عرف من كلامهم، ثم امتيازه عن الكل ـ بروائه وبهائه، وطلاوته وحلاوته وإعراقه وإيناقه، وإعجازه ـ ظاهر لكل ذي لب من الناس، لولا خذلان يلحق بعض القوم، ونسأل الله العصمة بمنه[1] اهـ.

والخلاصة أن قائل هذا القول، والآتي بهذه الفرية، يزعم أن القرآن لم يصل بذاته إلى حد الإعجاز الذي لا يستطيع البشر معارضته به، بل إن الإعجاز فيه كان عارضاً له بصرف الله الناس عن معارضته، وذلك لأحد الأسباب الآتية: ـ

١ ـ إن بواعث معارضة القرآن ودواعيها لم تتوفر عند العرب، ولو توفرت عندهم دواعي المعارضة وبواعثها لعارضوه، إذن فقدرة الله تعلقت بالبواعث التي تبعث على المعارضة، فلم توجدها، حتى لا توجد المعارضة وتسلم المعجزة.

٢ ـ إن البواعث والدواعي قد وجدت، إلا أن الله تعالى صرفهم عن المعارضة بتزهيدهم بها، وعدم اهتمامهم لها، ولذلك تقاعسوا وقعدوا عن المعارضة، فقدرة الله صرفتهم عن المعارضة بتزهيدهم فيها.

٣ ـ إن البواعث وجدت، والدواعي توفرت، والهممَ استوفزت، والرغبةَ في المعارضة ظهرت، وكانوا يريدون هذا، إلا أن الله عطل مواهبهم، وأذهب قدرتهم، فلم يستطيعوا معارضة القرآن.

«وإذا تأملنا هذه الفروض الثلاثة التي التمسوها، أو التمست لهم، علمنا أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تجيء من ناحية إعجازه البلاغي في زعمهم، بل جاءت على الفرضين الأولين من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة، ولو أنهم حاولوها لنالوها، وجاءت على الفرض الثالث من ناحية عجزهم عنها، لكن بسبب خارجي عن القرآن، وهو وجود مانع منعهم منها قهراً، وذلك المانع هو حماية الله لهذا الكتاب، وحفظه إياه من معارضة المعارضين، وإبطال

(١) القواطع ٢٥٤.

المبطلين، ولو أن هذا المانع زال، لجاء الناس بمثله، لأنه لا يعلـو على مستواهم في بلاغته ونظمه»[1].

وسـوف نتكلم إن شاء الله عـلى كل واحـد من هذه الاحتمـالات التي توهموها بما يوضح المقال، ويزيل الإشكال، ويبين الحقيقة، ونبدأ بالكلام على الاحتمال الأول الذي فرضوه لتعليل الصرفة، وهو عدم وجود الدواعي التي تدعو إلى معارضة القرآن، ولذلك صرفت هممهم عنها فنقول:

إن هذا زعم باطل، ووهم كاذب، وخروج عن طور النقاش والجدل، إلى طور العناد والبهتان، وإعراض عن الواقع البين الصريح إلى الخيال العاجز القبيح.

وذلك أن الخيال يقبل من الإنسان إذا كان له إلى التصديق سبيل، ولو كان هذا السبيل من قبيل الاحتمال المرجوح الضعيف، أما إذا وصل الخيال لدرجة لا يمكن فيها أن يصدق ولو على سبيل الاحتمال المرجوح، فإن الأمر في هذه الحالة يرجع إلى العجز والضعف، والسفسطة والسخف،

وكيف يجوز لعاقل أن يفرض مثل هذا الاحتمال، وآيات القرآن الكريم تتلى صباح مساء، تقرع أسماع العرب بفصحـائهم، وشعرائهم، وبلغـائهم، وسـادتهم، وسوقتهم، تقـرع أسماعهم بعبـارات التحدي، الـذي بدأ بكـل القرآن، ثم نزل إلى عشر سور منه، ثم نزل إلى سورة واحدة، كما بينا ذلك مفصلاً في أول البحث[2].

ثم بعد ذلك وصل ذروته حينما أخبرهم القرآن بأنهم لن يستطيعوا ذلك إلى يوم القيامة، في قوله جلّ ذكره: ﴿فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا فاتقوا النار﴾ (سورة البقرة: آية ٢٤).

---

(١) مناهل العرفان ٢/٤١٤.
(٢) انظر: ص ٣٣.

أو يُقال بعد هذا: إن الدواعي التي تدعـو إلى المعارضة لم توجد؟ على ما هو معروف للعامة والخاصة من حمية العرب، وأنفتهم، وعدم صبرهم على ما هو دون هذه التحديات بكثير؟.

ومتى تتوفر الدواعي إذا لم تتوفر ساعة التحدي..؟؟.

ولا سيما أن القرآن لم يكتفِ بالتحدي في مجال المعارضة فحسب، بل أثار حفائظ العرب، واستنفر كل طـاقاتهم لتحـديه، وذلـك بتسفيهه لأحـلامهم، وتشويهه لمعتقداتهم، وتغييره لعاداتهم، ولا يمكن للإنسان أن يستثار أبداً استثارة أقوى وأعنف من استثارته في مجال عقيدته، عندما تهان، أو يعتدى عليها.

فكيف يمكن أن يقال: إن بواعث المعارضة لم توجد رغم هذا التحـدي لهم؟.

إن البواعث بلا ريب قد وجدت، وكانت كافية لا لإثارة الإنسان العربي فقط، بل لإثارة كل من قرع سمعه ذلك التحـدي الرهيب في أعـظم وأبلغ معانيه، مما أثار الحفائظ، وأضرم نار الحقد والتحدي عند كل المعارضين لهذا الدين، والواقع أكبر شاهد على هذا ودليل.

وذلك بإعلان العداء الصريح لمحمد ﷺ، ولأصحابه، من كل من آمن معه، من وجوه العرب وغيرهم.

فآذوه بكل أنواع الأذى حتى هموا في نهاية المطاف بقتله.

وآذوا أصحـابه أشـد أنواع الأذى، وسـاموهم أبشـع أنـواع العـذاب، من رجال ونساء حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الموت في أبشع صوره وألوانه، على أيدي الحاقدين من رجال قريش وساداتهم.

ولم يقف الأمر عند حد العداء في مكة بل تابعوا أصحاب رسول الله في

مهاجرهم، فتبعوهم إلى الحبشة، يحرضون عليهم النجاشي، ويطالبونه بتسليمهم.

وناصبوهم العداء بعد الهجرة إلى المدينة، فشنوا عليهم الحروب والغارات، حتى بلغت المواقع بينهم وبين المسلمين خمساً وسبعين موقعة كانوا حريصين فيها كل الحرص على القضاء على كل ماله علاقة بهذا الدين.

ورصدوا الجوائز العظيمة لمن يقتل محمداً ﷺ، ورموه بكل عظيمة، فرموه بالجنون، ورموه بالسحر، ورموه بالكهانة، ورموا القرآن بأنه شعر، وأنه أساطير الأولين اكتتبها، وأنه يمليه عليه رجل، إلى غير ذلك من الأقاويل والأباطيل التي حاولوها لتشويه القرآن.

أو يقال بعد هذا: إن البواعث والدواعي لم تتوفر ليثور الناس إلى المعارضة، أو أن البواعث وجدت، إلا أن العرب زهدوا فيها، وأعرضوا عنها..؟!.

إن من يشن الحرب، ويستنفر كل ما لديه من قوة، للوقوف في وجه القرآن، والقضاء على الإسلام، لا يمكن أن يلجأ إلى هذه الوسيلة التي يحتمل أن تذهب به، إلا بعد العجز عما دونها من الوسائل والأسباب، وما إعلان الحرب إلا الدليل الساطع، والبرهان القاطع، على اعترافهم بإعجاز القرآن وفشلهم في معارضته.

وأما الاحتمال الثالث، وهو أن الله تعالى قد أعجزهم عن معارضة القرآن بتعطيل مواهبهم، وإذهاب بلاغتهم، فإنه لا يقل ركة وضعفاً، وسفسطة وسخفاً، عن الاحتمالين السابقين.

وذلك أن التحدي لم يكن موجهاً إلى جيل واحد من البشر، وإنما هو موجه لكل أمة، ولكل جيل، في كل زمان ومكان، فإذا كان هذا القائل قد يتبين له أن مواهب الأولين قد تعطلت عن المعارضة، فلماذا لم يعارضه أهل الجيل الثاني أو الثالث، بل لماذا لم يعارضه هو نفسه؟ ولا سيما أنه قد وجد في

الإسلام من فحول الشعراء والبلغاء العـدد الكبير، والجم الغفيـر، كجريـر، والفرزدق، والأخطل، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي، وأبي علاء المعري، وابن المقفع، إلى جانب الكثير من أمثال هذه الطبقة؟.

ولم يبلغنا عن واحد منهم أنه قال: إن مواهبه معطلة، بل كلنا نعلم أنهم كانوا على رهان دائم في ميدان البلاغة والبيان، في الشعر والنثر، حتى خيـل لبعضهم أنه يلقى عليه الإلهام الشعري، مما بَرَّز فيه من البيان الفني.

وما يقال فيمن عاصر القائل بالصرفة من الشعراء، يقال فيمن عـاصر نزول القرآن منهم، فلقد قيل الشعر في كل الأغراض الشعرية في زمن نزول القرآن، كما كان الحال قبل القرآن، ولم تتغير في شاعـر ممن لم يسلم ملكته، بل كانوا ما زالوا متمتعين بها، ولكنهم كانوا يعترفون بإعجاز القرآن، على ما عرفناه في هذا البحث أيضاً بالتفصيل والبيان.

ولنفترض جدلاً أن مواهبهم قد تعطلت عن المعارضة، ولكن لننظر في كلامهم السابق الذي كان لا يقل - في زعم القائل بالصرفة - عن القرآن بلاغة، هل كان يجاري القرآن في بلاغته وإعجازه...؟.

إذا كان كذلك، فالقرآن إذن لم يأتِ بشيء معجز جديد، وبناء على ذلك فلا تحـدي، ولا داعيَ للتحدي.

إلا أن الواقع يقول: إن الأمر ليس كذلك، وذلك أنه ما من عربي سمع القرآن، إلا وأدرك الفرق الشاسع بين كلام كل من نطق بالعربية من شاعـر وناثر، وبين كلام القرآن، وأسلوبه، وبلاغته، مما هو معروف بالتواتر، وممـا جعل فحول شعراء الجاهلية، وأعظم العارفين بشعر العرب ونثرهم، يقر بهذه الحقيقة، ويعترف بأن أسلوب القرآن وبلاغته مما لم ينظم العرب على منواله، ولا اقتربوا من بيانه وإعجازه، على ما نقلناه وبيناه في مكانه.

ومما يبين هذا، ويجعله يقينياً هو أنه ما من شاعر إلا وقد عيب عليه شيء من شعره، إما في قوانين الشعر، وإما في صوره وخيالاته، وتعليلاته وتحليلاته،

وإما في بنية الكلمة وفصاحتها، ودقتها ومناسبتها، أو في تركيب الجملة من الفصاحة والبلاغة وغير ذلك من العيوب الكثيرة.

ومن كان يريد الوقوف على هذا فليرجع إلى كتب النقد في الأدب العربي، ليرى من ذلك العجب العجاب.

وليرجع بصورة خاصة إلى معلقة امرىء القيس أمير شعراء الجاهلية، ولينظر ما فيها مما قاله الإمام الباقلاني، من نقد واعتراضٍ ووهم وتناقض، وغير ذلك من العيوب التي لا تليق بفصاحة امرىء القيس وبلاغته، إذ أبدى فيها الباقلاني العشرات والعشرات من العيوب.

وإذا كان هذا شأن امرىء القيس سيد شعراء الجاهلية، في خير شعره وأبلغه، فما هو شأن غيره، ممن لم يبلغ مبلغه؟.

فأين هذا من كلام القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو في الذروة العليا، من الدقة والإحكام، والتناسق والترابط، وعدم التناقض والاضطراب، في كل باب طرقه، من كل شؤون الكون والحياة؟!.

إن التحدي لم يكن فقط بأن يأتي العرب بمثل القرآن، بل كان بأن يوجد البشر فيه أي نوع من أنواع الخلل أو الخطأ، أو الاضطراب والتناقض فقال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

وإن هذا التحدي ما زال قائماً، وسيبقى إلى يوم القيامة، فمن عرف في القرآن تناقضاً أو خللاً فليوجدناه، وليخبرنا به، في كل جانب من جوانب العلم، وفي كل شأن من شؤون الكون والحياة التي ذكرها القرآن، وإن كل من في الأرض من أهل الكفر والشقاق مدعوون إلى هذا، وإنهم لإلى الوقوف عليه بالأشواق...، إلا أن الواقع أنه لا تناقض فيه ولا خلل، في كل ما عرض له أو خاض فيه، باعتراف كل عاقل في الأرض.

على أنني أريد أن أختم هذا الموضوع بقولي: إن من زعم أن إعجاز القرآن كان بالصرفة، إنما هو إنسان ساذج، ولئن كان بحاجة للرد عليه في الماضي، فهو ليس بحاجة للرد عليه في وقتنا الحاضر، في عصر الاكتشافات

العلمية التي فاقت الخيال، ولم تخطر للإنسان يوماً على بال، والتي وجد فيها أصحابها ـ على ما سنذكره في الإعجاز العلمي ـ أنهم على أعتاب القرآن، الذي كان قد سبقهم إليها، وأخبر عنها، قبل أن يضع الإنسان اللبنة الأولى في صرح حضارته العلمية الحديثة بقرون طويلة.

إن التحدي بالقرآن لم يكن أبداً بالموضوع اللغوي فقط، بل كان بكل ما في القرآن من إعجاز لغوي، وغيبي، وعلمي، وغير ذلك.

فعلى افتراض أن بعض العرب كان قادراً على الإتيان بما يشبه القرآن في أسلوبه، فأنى له، بل لكل من في الأرض من إنس وجن أن يأتوا بمثل القرآن في غيوبه وعلومه؟ على ما سنبينه ونوضحه؟.

وإني لعلى يقين بأن من قال بالصرفة يوماً ما، لو وجد في عصرنا، ورأى إعجاز القرآن العلمي والغيبي، لذهل، ولعلم أنه حينما قال قالته تلك، كان في غاية الغفلة والسذاجة والبعد عن الواقع...

لقد كان الملاحدة يوماً ما يتناقلون فيما بينهم أن أحدهم ـ فيما يزعمون ـ قد عارض القرآن، ولما قيل له: لماذا لا يترنم الناس بكتابك حينما يقرأونه؟ قال لهم: لم تصقله المحاريب خمسة قرون... أي أن الترنم بكتاب الله كان لما للقرآن من كثرة التلاوة في المحاريب في الصلاة وغيرها، مما جعله سهلاً على الألسن، لذيذاً في القلوب... ولو أن كتابه تردد على ألسنة الناس كما تردد

القرآن لاستعذبوه كما استعذبوا القرآن إن هذا الكلام يكون صحيحاً لو كان الأمر في التحدي أمر ترنم واستعذاب، إلا أن التحدي لم يكن بهذا، وإعجاب الناس بالقرآن قديماً وحديثاً لم يكن أبداً لهذا، بل إننا نرى كثيراً من الناس ينكر أن يقرأ القرآن بالألحان.

إن إعجاب الناس بكتاب الله لما ذكرناه وسنذكره من احتوائه على أنواع وأنواع من الإعجاز التي تفرض على كل من يقف عليها أن يحني أمام القرآن هامته، ويعلن بين يدي الله عجزه وعبوديته.

إن التحدي يكون بالاستعذاب حينما يكون أغنية أو ترنيمة نصرانية في كنيس، ولم ولن يكون أبداً في كتاب أحكمت آياته وفصلت ليكون للبشرية نبراساً وهادياً، وللمجد سائقاً وحادياً، وشتان بين أغنية للطرب، وترنيمة للهو، وآية معجزة تكشف حجب الغيب، وتضع أسس الحياة الفاضلة، وتشير إلى أدق وأبلغ قوانين العلم، وتحل ألغاز الكون والحياة. . .

المبحث الثاني

في

الإعجاز الغيبيّ

في

القرآن الكريم

لقد أخبرنا الله تعالى في كتابه الكريم عن بعض الأمور الغيبية، وأخبرنا أنها ستقع، ووقعت هذه الأمور التي أخبر القرآن عنها على نحو ما أخبر، مما يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وليست الغرابة في الإخبار عن أمر، ووقوع الأمر على نحو ما جاء به الخبر، ففي كل زمان ومكان نجد من الناس مَنْ يتنبأ، ويخبر عن أمور ستقع في المستقبل، وقد تقع الأمور على نحو ما أخبر به، وقد لا تقع.

فإذا وقعت على نحو ما أخبر به ذلك المتنبىء عزاها الناس إلى الصدفة في كثير من الأحيان، ولا سيما إذا كان ما تنبأ به المتنبىء بعيد الوقوع، أو مستحيله عادة، فلم لا يقال: إن الأمور التي أخبر عنها القرآن، ووقعت على نحو ما أخبر به، إنما كانت من قبيل المصادفات التي تقع لكل متنبىء في الحياة...؟.

سؤال يطرح نفسه، ويطرحه الماديون، على أنه الجواب لما وقع في القرآن من ظاهرة الإخبار عن الغيب.

إلا أنه توجد أمور، تفرض علينا القول بأن تحقق الأشياء التي أخبر عنها القرآن لم يكن من قبيل الصدفة، التي تحققت بها نبوءات كثير من المتنبئين في العالم، بل لأن الإخبار من الله، خالقِ الكون ومدبره، وعالم سره وعلنه، والعالم بما جرى فيه، ويجري، وسيجري إلى يوم القيامة، أخبر بما سيقع في المستقبل ليقع على وفق الخبر الذي أخبر به، وليكون المعجزة الناطقة الدالة على صدق الرسول فيما جاء به، وإن هذا القرآن من عند الله، وليس من صنع البشر.

أما هذه الأمور التي تفرض علينا هذه النتيجة الحتمية، فإننا نستطيع أن نوجزها فيما يلي:

إن من طبيعة الإنسان أن يتنبأ لمستقبله، وكلما كبرت آماله وطموحاته، كثر تنبؤه لمستقبله، وزادت اهتماماته به.

وإنه عندما يتنبأ يبني نبوءته على طبيعة الواقع الذي يعيش فيه، والطاقة التي يستطيع أن ينطلق من خلالها، والاحتمالات التي يمكن أن يحققها.

ولذلك لا بد أن تكون نبوءته متمشية مع طاقاته وإمكانياته، وإلا كانت ضرباً من الخيال الساذج، الذي لا يغني ولا يُسمن، بل سرعان ما يصحو منه صاحبه على حقيقة واقعه الباسم أو اليائس، وسرعان ما ينهار ذلك الصرح الخيالي الشامخ الذي بناه بعيداً عن حقيقة طاقاته وإمكانياته.

ولذلك نجد الناس جميعاً يهللون لبطل من أبطال العالم، في أي نوع من أنواع الرياضة ولتكن الملاكمةَ مثلاً، نجدهم يهللون لبطلها، عندما يعلن لهم أنه سيهزم خصمه في الجولة الثانية أو الثالثة... نجد الآذان صاغية، والقلوب واعية، لكل كلمة يقولها لهم قبل موعد مباراته مع خصمه، وذلك لأنه يقولها من منطق القوة التي يتمتع بها، والحقيقة التي يعيش فيها.

ومع ذلك نجد كل سامع وهاتف يضع احتمال الهزيمة لذلك البطل، مع أنه في ذروة قوته، وأوج عظمته، ولذلك يتريث كثيراً في مراهناته، ويضع القيود والضوابط لتحدياته.

ولكن.. متى تكون الغرابة، وتتعالى صيحات الإنكار...؟!

تكون الغرابة بالغة، والإنكار قوياً، عندما يعلن صعلوك ضعيف، لا يتماسك حينما يقوم من مقامه، ولا يمكنه أن يدافع عن نفسه أمام عاجز من العجزة، ومع ذلك نجد أنه يعلن أمام الناس جميعاً أنه يريد أن يتحدى بطل العالم في الملاكمة، وأنه سيهزمه في الجولة الثانية أو الثالثة...؟!.

إنها كلمات لا تلفت الأنظار، وتثير الاستنكار فقط، بل هي كلمات تدفع

كل من يسمعها إلى الهزء والسخرية من قائلها، لأنه إنما يقول وهو في واقع وحقيقة لا يُمكنانه من مثل هذا القول الساخر الهازىء.

ولذلك لا تأخذ كلماته طريقها إلى الآذان والقلوب، بل تأخذ طريقها إلى السقوط في سجلات العابثين الساخرين، أو الحمقى المغفلين.

ومن خلال هذه المقدمة البديهية المسلمة، سننظر إلى نبوءات الزعامات السياسية، والقيادات الحربية في العالم، وننظر إلى مصيرها.

كما أننا من خلال هذه المقدمة سننظر إلى نبوءات القرآن، وننظر إلى نهايتها ومصيرها، ليرى كل ذي عقل سليم الفرق بين نبوءات البشر ونبوءات القرآن وليؤمن بأن نبوءات القرآن، إنما هي إخبار من خالق الكون والحياة، وعالم السر والعلن، وأنها المعجزة الدالة على صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند ربه.

نبوءات عظماء العالم

إنه ـ كما ذكرنا ـ ما من عظيم من عظماء العالم إلا وتنبأ لمستقبله، ومستقبل حروبه وحياته، وكانت نبوءاته وهو في ذروة مجده، وأوج عظمته، وكل الظروف من سياسية، وعسكرية، توافقه وتؤيده، ولذلك كان لنبوءاته الأثر البالغ في النفوس، مع احتمال الفشل.

ولذلك كثرت المراهنات عليها، وتحزب الناس لها، ولكنها رغم هذا كانت في كثير من الحالات ـ إن لم أقل في كل الحالات ـ كانت يصاحبها الفشل الذريع، والهزيمة المرة، رغم كل ما كان يحيط بها من الظروف التي تساعد على التكهن بمثلها.

نبوءة نابليون:

فهذا نابليون بونابرت. . . من أعظم قواد الجيوش الذين عرفهم العالم في عصره، وقد سمت به فتوحاته التي أحرزها لدرجة أنه صار يتكهن بأنه سيكون ندا للإسكندر المقدوني، وأخذ الغرور مأخذه من رأس نابليون حتى أصبح يتوهم أنه مالك لقدره، فقال: لا يوحد في قدري إلا الغلبة والنصر. . .؟!.

لقد قال بونابرت هذا الكلام وكل الظروف المحيطة به تساعده على أن يقول مثل هذا الكلام، ويتنبأ مثل هذه النبوءة.

إنه القائد الذي هز العالم، وهتفت له الجماهير، وحيكت حوله القصص والأساطير، وكل من يسمع كلامه هذا يقول: إنه يحق له أن يتنبأ مثل هذه النبوءة. . .

ولكن. . . ما هو مصير هذه النبوءة. .؟.

بل ما هو مصير نابليون نفسه...؟

لا داعي للإطالة بسرد الوقائع التي هزم فيها، بل يكفينا أن نعرف أنه بعد أن هزمه «دوق ولنجتون» شر هزيمة في «ووترلو» بأراضي بلجيكا، وأيقن من مصيره المحتوم، فر هارباً من القيادة الفرنسية، متوجهاً إلى أمريكا، حيث القي عليه القبض، وانتهى به قدره إلى أن نفي في جزيرة «سانت هيلانه» حيث مات بعد معانات سنوات طويلة من البؤس والشقاء، مع آماله المحطمة ونبوءاته الفاشلة..!!.

لا نستطيع أن نقول: إن نبوءته ساذجة، فإن كل الظروف كانت تساعد على مثل تلك النبوءة.

ولكنا نستطيع أن نقول: إنها نبوءة فاشلة، بعد أن عرفنا المصير الذي صارت إليه مع قائدها.

نبوءة ماركس:

وها هو كارل ماركس يتنبأ سنة ١٨٤٩ بأن الجمهورية الحمراء ستبزغ في سماء باريس.

إلا أنه رغم مرور قرن وثلث قرن على هذه النبوءة، لم نر شمس الجمهورية الحمراء تسطع في سماء باريس.

كما تنبأ البيان الشيوعي الصادر سنة ١٨٤٨ بأن أول البلاد التي ستقود الثورة الشيوعية هي ألمانيا.

إلا أنه رغم مضي ما يقارب القرن ونصف القرن على هذه النبوءة لا تزال ألمانيا بعيدة كل البعد عن هذا النبوءة، وخالية من مثل تلك الثورة.

نبوءة هتلر:

وها هو هتلر القائد الألماني الشهير، الذي هز العالم بأسره، وقد اجتاحت قواته معظم دول أوروبا في أيام، خلال الحرب العالمية الثانية، يقول في خطابه

الشهير الذي ألقاه في ميونخ، في مارس سنة ١٩٣١.

«إنني سائر في طريقي، واثق تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لي».

كما قال في خطابه الشهير الذي ألقاه في المجلس النيابي الألماني، في ١ أيلول سبتمبر ١٩٣٩، قال:

«هناك لفظة ما عرفتها في حياتي قط، ألا وهي الهزيمة».

ولكن... ما هو مصير ألمانيا... بل ما هو مصير هتلر نفسه..؟.

لقد قال كلماته هذه وهو في أوج عظمته، وكل الظروف تساعده لقول مثل تلك الكلمة...

ولكنها النبوءة الفاشلة، التي أدركناها بعد أن رأينا ألمانيا مقسمة أسيرة في أيدي الحلفاء... عندما بحث الناس عن هتلر فلم يعثروا له على أثر..؟!.

* * *

إنها نبوءات كبار قواد العالم في أحسن الظروف التاريخية، وهم في قمم مجدهم، وكل من يسمع نبوءاتهم يقول: إن الظروف مواتية لهم، وربما تحقق ما يطمعون إليه، بل ربما جزم بما تنبأوا به...

* * *

إلا أنه الواقع المرير الذي كشف لنا عن غرورهم، وأبان لنا عجزهم، بعد أن مرغ كرامتهم بالهزائم، ودفن أحلامهم ونبوءاتهم تحت أنقاض بلادهم المدمرة..؟.

الفرق بين نبوءات البشر ونبوءات القرآن

وإننا إذ نسوق هذا الكلام، لا نسوقه لنتكلم عن تاريخ العالم، وتاريخ المغامرين فيه.

كما أننا لا نسوقه لنتشفى من أولئك القادة، فإن من حق كل إنسان أن

يتنبأ، والقدر إما أن يصدق نبوءته، وإما أن يكذبها.

ولكننا نسوقه لنبين الفرق بين نبوءات البشر، ونبوءات القرآن الكريم.. التي تحققت حرفاً حرفاً، رغم أنها نزلت في أقسى الظروف وأعتاها على محمد ﷺ، وعلى المسلمين معه... والتي كانت من أكثر الأمور إثارة للدهشة، وسبباً للاستغراب.. إذ كانت من النوع الذي لا يمكن صدوره عمن عقل حقائق الأشياء، وأدرك حقيقة الواقع، بل كانت من أبعد الأمور التي يمكن للعقل السليم أن يتصورها.

إلا أنها رغم هذا كله... وفي هذه الظروف الحرجة تلاها رسول الله ﷺ غير عابيء بكل الحقائق التاريخية التي كانت تحيط به، ولا بالواقع الذي كان يعيش فيه.. وجاءت الأيام، لتثبت كل ما تلاه من القرآن الكريم حرفاً حرفاً، دون أن يتخلف منها خبر واحد، وليثبت للناس جميعاً أن هذا القرآن من كلام الله... وليس من صنع البشر، وليكون المعجزة الناطقة الدالة على صدق الرسول ﷺ في دعواه، على مر الأيام والأعوام، إلى قيام الساعة..

نبوءات القرآن

لنستمع الآن إلى نبوءات القرآن. . وإخباره عن الأمور الغيبية في المستقبل، والظروف التي جاءت فيها تلك الأخبار، لنعرف بعد ذلك أن مثل تلك الأخبار، يستحيل أن يكون من قبل البشر، وإنما هو من قبل الله.

١ - التنبوء بانتصار المسلمين وسيادتهم

لقد بدأ رسول الله ﷺ دعوته، وكل من في الأرض يخالفه، المشركون في مكة، واليهود في المدينة، والنصارى في الشام، والفرس في العراق، وكل أصحاب الملل والنحل في كافة أصقاع الأرض.

بدأت الدعوة، وبدأ التصدي لها، وبدأ العناد والتحدي، وبدأ الضر والأذى ينصبان على الضعفاء من المسلمين، الذين ساروا في ركب هذه الدعوة الجديدة الضعيفة.

وما زالت الأحقاد تنمو، والأذى يكبر، إلى أن وصل لدرجة السجن، والتنكيل، والقتل. . .

وحوصر المسلمون في الشعب، حتى وصل بهم الضر لأن يأكلوا الأخضر واليابس، بل ما تعافه النفس وتأباه.

وخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، لعله يجد فيها ما يسري عنه، من بعض الأتباع الجدد، في بعض بيوتات ثقيف وهوازن، إلا أن الأمر كان على

خلاف ما توقع، صد وطرد، استكبار وهزء، وعاد رسول الله ﷺ إلى مكة، ولكنه لم يستطع أن يدخلها كما كان يدخلها سابقاً، مما اضطره لأن يدخلها في جوار أحد المشركين، ألا وهو المطعم بن عدي.

فالتحدي على أشده، والأذى في أوجه، والمؤامرات تحاك من قبل سادة قريش، لإيقاع الأذى ببعض المسلمين في هذه المرة، بل للقضاء على الدعوة الجديدة بأسرها.

فلقد أخذت العزة بالإثم قريشاً، فأنفقت الأموال، ورسمت الخطط، وأعلنت العداء السافر، وهددت بإبادة كل من يعتنق الدين الجديد.

في هذه الظروف الحرجة الصعبة من مسيرة الدعوة الجديدة، وفي هذه الحالة التي تشبه ساعات ما قبل النهاية المحتومة، بين قوي جبار عنيد، وضعيف مضطهد مغلوب، في هذه الحالة البائسة اليائسة في ميزان العقل المادي حينما ينظر إلى جوع المسلمين وفقرهم، واضطهادهم وتعذيبهم، وتشريدهم وقتلهم، في هذه الحالة يخرج رسول الله ليقول قولة القوي المنتصر، وهو في أوج سلطانه وذروة انتصاراته، يخرج ليقول للمشركين، وكأنه هو القوي وهم الضعفاء، يخرج ليقول لهم: «لقد جئتكم بالذبح».. وينزل قول الله تعالى، رداً على خيلاء قريش وغرورها، ينزل متهدداً متوعداً، ومعلناً لأغرب خبر يمكن للإنسان أن يسمعه في مثل هذه الحالة... ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر، سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾.

وينزل قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون، فتول عنهم حتى حين، وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ (سورة الصافات: آية ١٧١ - ١٧٥).

وينزل قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقونها، ثم تكون عليهم حسرة، ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ (سورة الأنفال: آية ٣٦).

إنه لأغرب خبر يمكن للإنسان أن يسمعه في مثل ذلك الظرف وتلك الحالة، وبين فئتين لا تكافأ بينهما، فئة تملك كل وسائل البطش والقوة، وفئة ضعيفة لا تملك شيئاً لا لغيرها ولا لنفسها.. وهي في حالة اضطهاد وتشرد واستعباد، ومع ذلك يأتي هذا الخبر المرعب المفزع، الغريب المستنكر في ميزان جميع العقول المادية، وجميع الاحتمالات والتقديرات...، فإنه لا يمكن لأي عاقل أن يتنبأ مثل هذا النبأ في مثل ذلك الظرف.

ويهلل المسلمون لهذا الخبر، وترتسم على وجوههم علامة الفرح بهذه البشارة، وكأنهم يرونها رأي العين.. ويحيى الأمل في نفوسهم.. وتغمر الطمأنينة قلوبهم، ويعدون الأيام والليالي لاستقبال ذلك اليوم الذي يتحقق فيه هذا الخبر الذي أيقنوا به...

ويزداد بأس قريش، ويتضاعف أذاها، وتطارد ضعاف المسلمين في كل ناحية وصوب.. مما دفع المسلمين للهجرة إلى الحبشة.

ويهاجر المسلمون إلى الحبشة، وتطاردهم قريش فيها، تريد استئصال شأفتهم، وتبديد شملهم.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويحقق وعده، فتقوم دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة، على عاتق أولئك الضعفاء من المهاجرين والأوفياء من الأنصار، وسرعان ما تدور الدائرة على المشركين في مكة، وتتغير الموازين عندهم، وتتلاشى طموحاتهم وأحلامهم، إذ أعلنوا النفير العام، ولكن ليس للهجوم في هذه المرة.. وإنما للدفاع عن تجارتهم القادمة من الشام مع أبي سفيان، والتي عزم المسلمون على مهاجمتها.

وتتطور الأمور، لتنكشف عن أعظم معركة في التاريخ، وأغرب معركة في ميزان العقل المادي.. إذ هزم أولئك الضعفاء المهاجرون، والفقراء الجياع، هزموا جيش المشركين في بدر، وقد بلغ في العدد ثلاثة أضعافهم، مع ما لديهم من العدد، وكان أول إعلان عن تحقيق وعد الله، وصدق نبوءة القرآن.

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: كان بين نزول قوله تعالى: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ وبين غزوة بدر سبع سنين.

إن أي عاقل في الكون كان يسمع الخبر، بأن أولئك المستضعفين في مكة، سيهزمون قريشاً، وينتصرون عليها، كان يعجب ويدهش، بحسب الموازين المادية، ويعتبره ضرباً من الخيال الساذج الذي يراود محمداً ﷺ، ولكن أي إنسان يعرفه اليوم، يعلم يقيناً أنه ما كان ليصدر عن بشر، لأن موازين البشر وطاقاتهم لا تسمح لهم بمثل ذلك التفاؤل، ولذلك فإنه يقطع بأنه خبر الله، ويقطع بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الخالق العليم، معجزة ناطقة دالة على أن هذا القرآن من لدن حكيم خبير.

٢ ـ التنبؤ بانتصار المسلمين على الفرس والروم

إن ما ذكرناه في الفقرة الماضية كان مما أخبر عنه القرآن في مكة، ورأينا كيف وقع ما أخبر به القرآن مع أن كل الظروف كانت ضد ما أخبر عنه حينما جاء الخبر.

ولو ذهبنا نعدد الآيات والمواقف التي كانت من هـذا القبيل في مكـة، لعددنا من ذلك الشيء الكثير.

ولكننا سننتقل إلى المدينة المنورة لنقف على نظير هذا المـوقف في مكة، هناك في المدينة، بل لنرى موقفاً أشد منه غرابة، وأكثر بعداً في مقاييس العقل البشري، ولنرى فيه المعجزة القرآنية آية بينة صريحة.

لقد تظاهرت القبائل العربية بعضها مع بعض، وكونت جيشاً جباراً من عشرة آلاف مقاتل، بقيادة أبي سفيان بن حرب، وتحالفت مع اليهود من بني النضـير وغيرهم لغـزو المدينـة، وقتال المسلمين واستئصـالهم، وكـانت غـزوة الأحزاب، أو غزوة الخندق.

وجمع رسول الله ﷺ المسلمـين الذين لم يـزد عددهم عـلى ثلاثـة آلاف مقاتل، ينقصهم الكثير من العَدَد والعُدَدِ، وهم لما يقو عودهم بعد، ولم يستريحوا من آثار غزواتهم السابقة المتلاحقة التي أرهقتهم.

إنها المحنة الشديدة، والبلاء المزلزل، إذ حوصرت المـدينة من أسفلهـا وأعلاها، وزاد الأمـر شدة عنـدما نقض بنـو قريـظة عهدهم مـع المسلمين، وانحازوا إلى مشركي مكة في أعظم فرصة تسنح لهم للقضاء على الدين الجديد،

الذي هدد كيانهم ووجودهم.

فعظم البلاء على المسلمين، واشتد خوفهم، كما اشتد جوعهم وعوزهم، وظهرت علامات الاجهاد عليهم، وزلزلوا زلزالاً شديداً.

ولقد صور القرآن هذه الحالة البائسة التي مروا بها في ذلك الموقف العصيب بقوله تعالى: ﴿إذ جاؤوكم من فوقكم، ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾.

في هذا الظرف الحرج، وفي هذا الموقف العصيب المتأزم، تعرض للمسلمين صخرة عظيمة أثناء حفر الخندق، يعجزون جميعاً عن اقتلاعها، ويشكون أمرهم لرسول الله ﷺ، ويأخذ رسول الله المعول، ويضربها الضربة الأولى مسمياً الله، فيكسر بعضها ويقول: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله، ويضربها الضربة الثانية، ويكسر بعضها ويقول: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم يضربها الضربة الثالثة، ويقول: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء... ووعد الأمة بأن ملكها سيصل إلى تلك الأماكن، ويردد قول الله تعالى الذي نزل في المدينة، مؤكداً لما نزل في مكة: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ ويردد قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾.

إنه لإخبار رهيب، عن غيب مكتوم، تقول كل الظروف المحيطة بالمسلمين إنه إخبار من أبعد ما يكون على العقول أن تصدقه وتؤمن به، أمة خائفة، محاصرة، انهكها الجوع، وأتعبتها الغزوات، وأحاطت بها الجيوش الجبارة الحاقدة من كل جانب، تفوقها في العدد والعدد، وتساندها كل الظروف المادية.

وبدلاً من أن يسارع قائدها للاستسلام، والتخلي عن فكر الهجوم بل

والدفاع، يعلق وبكل صراحة وعزم وطمأنينة، بأنه سيفتح العالم.

إنه لأمر غير مفهوم أبداً في معايير العقل المادي.. لأنه يتنافى مع أبسط مبادىء القوة والحرب والقتال.. ويتنافى مع ما جرت عليه العادة، وألفه البشر، وقامت به سنة الكون.

وفي هذه الحالة ظهر النفاق، فأخذ المنافقون يروجون في صفوف المسلمين ما يغل عزائمهم، ويضعف هممهم، ويقولون لهم: لا يأمن أحدكم على قضاء حاجته خوفاً من الأحزاب، ومحمد يعدكم مفاتيح كسرى وقيصر..؟؟.

ويستأذن بعض الناس رسول الله ﷺ في الرجوع إلى المدينة قائلين: ﴿إن بيوتنا لعورة، وما هي بعورة، إن يريدون إلا فراراً﴾.

ومن خلال هذا الموقف الرهيب، وهذه العاصفة العاتية، التي جمعت بين المشركين، واليهود، والمنافقين...

من خلال الظلام الدامس المخيف في موازين البشر، يظهر بصيص الأمل، فتنطلق جنود الله التي لا نراها.. وتنقلب المعركة، وتندحر جيوش الشرك، وينقلب ذاك البصيص من الأمل إلى نور ساطع يبهر العيون، ويغمر القلوب، وتظهر آيات القرآن الكريم، ونبوءات الرسول العظيم، متلألأة براقة، لتعلن على الملأ بأن تلك الآيات التي كانت تتلى في ذلك الموقف الرهيب، ما كانت من قول البشر، وإلا لما كانت في هذا المستوى من التفاؤل المستحيل في موازين العقل، وإنما هي من قول الله، خالق الكون ومدبره، ليدل بها أخا الإنكار والجحود والإلحاد على جوانب الإعجاز الغيبي في كتاب الله.

لقد وعد الله المؤمنين بالنصر في أحرج الظروف التي مرت بهم في حياتهم، وقبلها المسلمون، لإيمانهم بالغيب، وإيمانهم بأن هذا الكلام إنما هو كلام الذي لا يتخلف وعده، وهزىء بها المشركون والمنافقون.. وعاش من عاش من الفريقين ليرى وعد الله قد تحقق... وليرى جيوش المسلمين تقتحم حصون

فـارس وقلاع الشـام وأبواب صفـاء، لتنهي أسطورة كسـرى وقيصر، وليعلم الجميع أن هذا من جوانب الإعجاز الغيبي في القرآن الكريـم.

٣ ـ الإخبار عن انتصار الروم على الفرس

إنه الحادث الذي يعتبر أشد إثارة، وأبعد غوراً من الحادثتين السابقتين، اللتين تنقلنا فيهما بين مكة والمدينة، وجموع المؤمنين، والحاقدين، من المشركين واليهود والمنافقين. . .

إنها نبوءة لا تتعلق بالعرب، ولا بجزيرة العرب، وإن كانت من نوع ما ذكرناه من النبوءتين السابقتين.

وإنما هي نبوءة تتعلق بمصير دولة من الدول العظمى في ذلك الزمان، في صراعها مع دولة أخرى. . .

إنها دولة الروم في صراعها مع دولة الفرس.

ولندرك حقيقة الإعجاز القرآني في هذه الحادثة، لا بد لنا أن نقف على بعض الحقائق التاريخية لدولة الفرس والروم، لنتصور الظروف التي نزلت بها الآية القرآنية التي نريد أن نتكلم عنها.

لقد اعتنق الملك قسطنطين الديانة النصرانية سنة ٣٢٥ م، وجعلها الديانة الرسمية للبلاد، مما جعل أكثر رعايا الدولة الرومانية يعتنقونها ويؤمنون بها.

واستمر الحال في الدولة الرومانية على ما هي عليه من القوة والمنعة إلى أن تولى زمامها الملك «موريس» في أواخر القرن السابع الميلادي.

وكان «موريس» غافلاً عن شؤون البلاد، وعن السياسة، مما دفع قادة جيشه للقيام بثورة ضده، بقيادة «فوكاس» الذي أصبح هو الملك في الدولة الرومانية، بعد أن نجحت الثورة، وقضى على العائلة الملكية، ومن ثم أرسل

سفيراً له إلى امبراطور الدولة الفارسية «كسرى أبرويز الثاني» إلا أن كسرى هذا كان مخلصاً شديد الإخلاص للملك «موريس» الذي قتله «فوكاس».

وذلك لأن كسرى كان قد لجأ إليه عام ٥٩٠ ـ ٥٩١ م بسبب مؤامرة داخلية في الإمبراطورية الفارسية، وقد ساعده «موريس» في ذلك الوقت بجيشه لاستعادة عرشه، فحفظ كسرى هذه اليد لموريس، ولم ينسها.

فلما عرف بأخبار انقلاب الروم، وقتل فوكاس لصديقه الملك موريس، غضب غضباً شديداً، وأمر بسجن السفير الرومي، وأعلن عدم اعترافه بشرعية الحكومة الجديدة.

ومن ثم قاد حملة حربية على بلاد الروم، وعبرت جيوشه نهر الفرات إلى الشام، ولم يتمكن فوكاس من مقاومة جيوش الفرس، التي استولت على «إنطاكية» و«القدس»، واتسعت حدود الدولة الفارسية فجأة إلى وادي النيل.

وكانت بعض الفرق النصرانية ـ «كالسنطورية» و«اليعقوبية» ـ حاقدة على النظام الجديد في روما، فناصرت الفاتحين الجدد، وتبعها اليهود، مما سهل غلبة الفرس.

في هذا الظرف الكئيب الحرج الذي تمر به الدولة الرومانية، أرسل بعض أعيان الروم رسالة سرية إلى الحاكم الرومي في المستعمرات الإفريقية، يناشدونه فيها إنقاذ الإمبراطورية.

فأرسل الحاكم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه «هرقل» الذي استولى فجأة على الإمبراطورية الرومانية، وقتل «فوكاس».

إلا أنه رغم هذا لم يتمكن من إيقاف زحف الفرس الذين علت راياتهم العراق، والشام، ومصر، وآسيا الصغرى.

وتقلصت الإمبراطورية الرومانية إلى عاصمتها، وحوصرت حصاراً اقتصادياً قاسياً، مما أدى إلى كساد التجارة، وإغلاق الأسواق، وتفشي الأمراض، وتحول دور العلم إلى مقابر موحشة مقفرة.

وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم المسيحيين للقضاء عليهم، وبدأوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة، فدمروا الكنائس، وقتلوا ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف من المسيحيين المسالمين، وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار، واغتصبوا الصليب المقدس، وأرسلوه إلى «المدائن».

وانقلب كسرى من ثائر لأجل صديقه الحميم موريس، إلى حاقد، وفاتح، لم يعد لأطماعه في دولة الروم حدود. . . في استعلاء وكبرياء، يظهران من الرسالة التي وجهها إلى هرقل من بيت المقدس، قائلاً فيها:

«من لدن الإله كسرى، الذي هو أكبر الآلهة، وملك الأرض كلها، إلى عبده اللئيم الغافل هرقل، إنك تقول: إنك تثق في إلهك، فلماذا لا ينقذك إلهك المقدس من يدي. . .؟.

واستبد اليأس والقنوط بهرقل، وحاول الفرار والهرب إلى قصره الواقع في قرطاجة، لينجو بنفسه، بعد أن يئس من إمكانية الدفاع عن الإمبراطورية الرومانية، التي أصبحت مهددة بالسقوط بين الساعة والأخرى.

وخرج يريد الركوب في إحدى السفن الملكية التي أعدت لهربه.

إلا أنه في هذه اللحظة، تمكن كبير أساقفة الروم من إقناع هرقل بالبقاء مع شعبه، وأرسل هرقل سفيراً إلى كسرى يطلب منه الصلح.

إلا أن كسرى رفض وصاح بغضب شديد: «لا أريد هذا القاصد، وإنما أريد هرقل مكبلاً بالأغلال تحت عرشي، ولن أصالح الرومي حتى يهجر إلهه الصليبي، ويعبد الشمس إلاهنا».

إنها ذروة اليأس التي وصل إليها هرقل، ووصل إليها الروم، وذروة الاستعلاء التي وصل إليها الفرس.

وإنها لحالة أشبه ما تكون بحالة المؤمنين في مكة مع أعدائهم من المشركين

الذي يسومونهم أشد أنواع العذاب، ويعملون كـل ما في وسعهم من أجـل القضاء على الدين الجديد.

وازداد بأس المشركين بغلبة الفرس على الروم، إذ كانوا يرون الروم وهم على الدين النصراني أقربَ إلى محمد ﷺ والمسلمين منهم، وكانوا يرون الفرس أقرب إليهم من المسلمين، لاجتماعهما على الوثنية.

فبلغت النشوة أوجها عند المشركين بانتصار الفرس على الروم، واعتبروا هذا انتصاراً لهم، فهللوا لهذا النصر ورحبوا به، وأخذوا يرددون أمام المسلمين قولهم: «لقد غلب إخواننا على إخوانكم».

وفي هذا الظرف الحرج، البائس اليائس عند الروم، وفي حالة الضيق والشدة التي كان فيها المسلمون.. نزل قول الله تعالى كالصاعقة بما لم يتوقعه أحد من أهل الأرض، لا من المسلمين ولا من غيرهم، نزل قوله تعالى: ﴿آلم، غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم، وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

إنه لكلام لا يكاد العقل المادي يفهم مراده وبواعثه، المسلمون في محنة، يعمل فيهم المشركون ما يعمله الفرس بـالروم، من القتـل، والسجن، والتشريـد، والروم في يأس وشدة، ملكهم يريد الفرار وتسليم آخر ما بقي في يـديه من مملكته، والفرس في نشوة النصر والفرح، وفي هـذا الموقف الصعب الحـرج، وبدلاً من أن يكسب المسلمون ودّ الفرس المنتصرين، أو على الأقل دفع نقمتهم بالتزام الصمت، بدلاً من هذا يعلن القرآن هذا الموقف الرهيب، ويخبر بهذا الخبر العجيب، وتنزل آياته بأغرب نبوءة يمكن للعقل البشري أن يتنبأ بها في مثل تلك الظروف، تثير دهشة المشركين، كماتلفت نظر الفرس إلى مواقف الدين الجديد الذي بدأ يطل على العالم من مكة، ومن المحتمل أن تثير أحقادهم ضد المسلمين.

إنها لنبوءة عجيبة غريبة، تجاوزت الوعود المحلية للمسلمين بالنصر على أعدائهم ـ كما سمعنا في الفقرات السابقة ـ إلى الوعود الدولية بانتصار الروم وهم

في أدنى الأرض على الفرس، رغم حالة البؤس واليأس التي وصل إليها الروم، والقوة والبأس التي يتمتع بها الفرس.

ما علاقة المسلمين بالإمبراطورية الرومانية..؟.

وما علاقة محمد ﷺ بتلك الأمة البعيدة، والديار النائية، وأصحابه يسامون أشد أنواع العذاب في مكة..؟.

وكيف ينزل القرآن بمثل تلك الأخبار العجيبة التي ينكرها العقل المادي، وتزيد من حدة الصراع بين المسلمين وأعدائهم، كما تثير على المسلمين طائفة من الشكوك الجديدة في دينهم وأخبار قرآنهم..؟؟.

ولماذا يتورط المسلمون في مثل تلك الأخبار..؟؟.

إلا أنهم لا سلطان لهم على هذا.. ولا دخل لهم ولا لمحمد ﷺ، ولا لأحد من أهل الأرض به.

إنها كلمات خالق السماء والأرض، والمهيمن عليهما وعلى مقاديرهما، يريد أن ينبه البشر إلى أن هذا الكلام إنما هو من كلامه، لعلمه بما جرى، ويجري، وسيجري في هذا الكون الذي خلقه وعرف أسراره، وليس من قول البشر، ولا من قبيل نبوءاتهم، بل هو على نقيض كامل لما يمكن أن يتنبأ به أي مخلوق، في هذا الكون بمثل ذلك الظرف الرهيب العجيب.

إنها كلمات الخالق الحكيم العظيم، التي يريد أن يجعل منها معجزة دالة على وجوده وقدرته وعلمه وصدق نبيه.

ولذلك قال المؤرخ إدوارد جِبْن تعليقاً على هذه النبوءة: «في ذلك الوقت حين تنبأ القرآن بهذه النبوءة، لم تكن أية نبوءة أبعد منها وقوعاً، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكومة هرقل كانت تؤذن بانتهاء الإمبراطورية الرومانية».

لو كان هذا الكلام الذي يتلوه محمد ﷺ، ويردده المسلمون من بعده، لو كان من كلام محمد ﷺ، أو من كلام البشر، لكان من المحال أن يتنبأ بمثل تلك النبوءة العجيبة الغريبة، التي تثير الدهشة، وتبعث في أقل احتمالاتها على السخرية والاستهزاء بالمسلمين وبقرآنهم.

لو كان محمد ﷺ هو الذي يقول القـرآن من قبل نفسـه، أو من قبل إيحاءات البشر إليه، كما زعمه المشركون، لتنبأ كما يتنبأ كل عاقل من البشر، لتنبأ بأن الغلبة ستكون للفرس ـ ولصدقه في هذه الحالة كل مشـرك وهلل له ـ أو لسكت على الأقل أمام تحديات المشركين ونشوتهم بانتصار إخوانهم الفرس.

ولئن كان يريد أن يتنبأ بانتصار الروم ـ ولو كانت النبوءة بعيدة فاشلة ـ لضمن ماء وجهه، وحفظ خط الرجعة فيما لو سقطت دولة الرومان نهائياً، فلم يحدد زمن انتصارهم ببضع سنين، كما هو صريح في الآية القرآنية، وكما جرى عليه الرهان مع المشركين على ما سنسمعه في بقية أحداث القصة.

ولكنه حدد لهم الزمان ببضع سنين، وكأن النصر بيديه، أو كأنه مشرف عليه وناظر إليه.

نعم.. إنه واثق كل الثقة به، لأنه يعلم أنه لم يقله ولم يفتره، وإنما هو كلام الله، خالق الكون ومسيره، وقد أمره أن يبلغه للناس، على ما فيـه من الغرابة والبعد، ليكون آية ناطقة دالة على وجوده، وصدق نبيه فيما يخبر به من آيات ربه.

ولننظر إلى ما حدث بعد هذا الخبر.

لقد صدم خبر القرآن عـن انتصار الروم الغريب على الفرس ـ لقد صدم هذا الخبر المشركين، وأثار دهشتهم، ودفعهم لأن يضيفوا إلى سخريتهم السابقة بالمسلمين سخرية جديدة بهذا النبأ العجيب.

إلا أن هذه النبوءة، في تلك الآية الكريمة، كانت على العكس من ذلك عند المسلمين، إذ أعطتهم عزيمة وقوة، وزادتهم يقيناً وثقة، ولـذلك خـرجوا يردون على المشركين فخـرهم بانتصـار إخوانهم الفـرس، ويبلغوا خبـر الله في انتصار الروم عليهم في بضع سنين.

فقد ذكرت لنا دواوين السنة أنه حينما نزلت هذه السورة قرأها رسول الله ﷺ على المسلمين في صلاة الفجر، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم، لأنهم

وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش تحب ظهور الفرس، لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ولا إيمان ببعث.

فخرج أبو بكر رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة: ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾.

فقال ناس من قريش لأبي بكر: ذاك بيننا وبينكم، يزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين...! أفلا نراهنك على ذلك؟.

قال: بلى.

وكان ذلك قبل تحريم الرهان.

وولي رهان المسلمين أبو بكر، وولي رهان المشركين أبي بن خلف، فتراهنا على أن الروم سيغلبون الفرس في ثلاث سنين، أو خمس سنين.

ثم عرض ذلك على رسول الله ﷺ فقال: «ألم تكونوا أحقاء أن تؤجلوا أجلادون العشر؟ فإن البضع ما بين الثلاث إلى العشر» ثم قال لأبي بكر: «إذهب إليهم فزايدهم في الرهان، وزد في الأجل».

فخرج أبو بكر، وزادهم في الرهان، وزادوا الأجل إلى تسع سنين.

إنه عمل الإنسان الواثق المطمئن، الذي يوقن بوعد الله، ويثق بنصره ونصرته.. وهل تحقق ما أخبر الله به..؟.

نعم.. لقد تحقق كفلق الصبح، ليصدق الخبر، ويفرح المؤمنون بنصر الله، ويعرف من لم يكن قد عرف أن هذا الكلام إنما هو كلام الله، وليس بكلام البشر.

يقول المؤرخون: إنه حينما حاول هرقل الفرار، بعد أن أوشكت عاصمة الإمبراطورية على السقوط، استطاع كبيرأساقفة الروم أن يقنعه بعدم الهرب، والبقاء مع شعبه، ثم عرض الصلح على كسرى، فأبى كسرى ذلك، كما عرفناه أول القصة، إلا أنه بعد ستة أعوام من الحرب رضيَ كسرى بالصلح مع هرقل، ولكنه كان صلحاً مُخزياً، التزم هرقل بموجبه أن يدفع ألف تالنت Talent

من الذهب، وألف تالنت من الفضة، وألف ثوب من الحرير، وألف جواد، وألف فتاة عذراء. . .

ولكن ماذا حدث بعد هذا. . ؟!.

لقد حدث بعدها العجب العجاب، إذ انقلب هرقل اللاهي اليائس إلى بطل شجاع، هجر ترفه، وانقطع عن ملذاته، وبدأ بوضع الخطط الرهيبة لهزيمة الفرس، وكان يعرف أن قوة الفرس البحرية ضعيفة، ولذلك أعد العدة البحرية، للإغارة على الفرس من الخلف، ورغم هذا كان الكثير من سكان القسطنطينية يرون أن هذا الجيش الذي يعده هرقل آخرُ جيش في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية.

وشن هرقل هجومه الأول المفاجيء على الفرس الذين لم يستطيعوا مقاومة هذه الغارة، ولاذوا بالفرار.

مما أغرى هرقل أن يفاجيء الفرس مرة أخرى وينزل بهم هزيمة ثانية، ليرجع بعدها إلى القسطنطينية عاصمته، عن طريق البحر، ويعقد معاهدة مع الأقارين، استطاع بواسطتها أن يسد سيل الفرس ويوقف تقدمهم.

وبعد ذلك شن هرقل ثلاثة حروب أخرى ضد الفرس في سنوات ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، واستطاع أن ينفذ إلى أراضي العراق القديم المعروفة بـ «ميسوبوتانيا» عن طريق البحر الأسود.

واضطر الفرس للانسحاب من الأراضي الرومية نتيجة لهذه الحرب، وأصبح هرقل في مركز يسمح له بالتوغل في قلب الإمبراطورية الفارسية، وكانت آخر هذه الحروب المصيرية تلك التي خاضها الفريقان في «نينوى» على ضفاف دجلة، في ديسمبر ٦٢٧ م.

ولما لم يستطع كسرى أبرويز مقاومة سيل الروم حاول الفرار من قصره المحبب إليه «وستكرد» ولكن ثورة داخلية نشبت في الامبراطورية، واعتقله ابنه

«شيرويه» وزج به في سجن، داخل القصر الملكي، حيث لقي حتفه في اليوم الخامس من اعتقاله.

ولكن شيرويه هو الآخر لم يستطع أن يجلس على العرش أكثر من ثمانية أشهر، حيث قتله أخوه.

وهكذا بدأ القتال داخل البيت الملكي، وتولى تسعة ملوك زمام الحكم في غضون أربعة أعوام، مما جعلهم عاجزين عن متابعة الحرب مع الروم، مما دفع «قباز الثاني» ابن كسرى أبرويز الثاني ـ إلى طلب الصلح مع الروم، وأعلن تنازله عن الأراضي الرومية، كما أعاد الصليب المقدس إلى الروم.

ورجع هرقل إلى عاصمته القسطنطينية في مارس عام ٦٢٨ م، في احتفال رائع حيث كان يجر مركبته أربعة أفيال، واستقبله الآلاف من أبناء شعبه خارج العاصمة، وفي أيديهم المشاعل وأغصان الزيتون...

وعمت الفرحة أيضاً صفوف المؤمنين، إذ تحقق وعد الله الذي وعدهم به، وصدق خبره الذي أخبر به قبل بضع سنين، في وقته المحدد له مسبقاً، وخرج المسلمون يطالبون المشركين رهانهم... ولم يبق بعد هذه الحادثة ريبة لمرتاب، ولذلك دخل كثير من المشركين في الإسلام إثر هذه الحادثة، كما تروي لنا كتب الحديث عن أصحاب رسول الله.

أفيجوز لعاقل بعد أن يرى مثل هذه الحادثة، ويسمع مثل تلك القصة أن يقول: إن هذا القرآن من كلام محمد ﷺ، أو أنه من إيحاءات وتعاليم البشر...؟.

إنه لمن أبسط صور العدل والإنصاف أن يقول كل من يسمع مثل هذا: إن هذا لا يمكن أن يصدر عن البشر، لأن البشر مهما كانت طاقاتهم، ومهما بلغت إمكانياتهم، ومهما زادت تفاؤلاتهم، لن يتمكنوا من مثل ذلك الفأل الغريب البعيد، ولئن تمكنوا من مثله، فلن يتمكنوا من تحديده بذلك الزمن القريب.

إنه إخبار الله عن الغيب الذي يعلمه، والذي لا بد له أن يقع على نحو ما يعلمه، ليعلم من فاته العلم أن هذا من المعجزات الباهرة الناطقة الدالة على أن هذا القرآن من كلام الله.

معجزة أخرى ضمن هذه المعجزة:

لم يكن هذا الذي ذكرناه من هذه المعجزة هو كل ما في الآية من الإعجاز، بل كان فيها معجزة أخرى، حملتها نبوءة ثانية ضمن النبوءة الأولى، ألا وهي قوله تعالى: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾.

ما هو النصر الذي سيفرح به المؤمنون؟ هل هو انتصار الروم على الفرس؟ أم هو شيء آخر وراء ذلك؟.

إن مما يتبادر إلى الأذهان أن الفرح حينذاك إنما هو بانتصار الروم على الفرس، كما هو متبادر من سياق الآية، ومبعث هذا الفرح تحقق وعد الله وإخباره.

إلا أن الحقيقة هي أن فرح المؤمنين كان بشيء آخر وراء ذلك، ألا وهو انتصارهم في غزوة بدر الكبرى.. إذ كان وقت انتصار الروم ووقت انتصار المؤمنين في غزوة بدر الكبرى، في وقت واحد.

إنه لأمر مذهل مدهش، نبوءة ضمن نبوءة، وكل منهما أبعد من الأخرى، وكلاهما يقع دون تخلف أو تأخر.

مما يدفعنا ويدفع كل عاقل أن يقول: اللهم إنا لنشهد أن هذا يستحيل أن يصدر عن أحد سواك.

٤ ـ الاخبار عن عصمة الله لرسوله من الناس

وهذا ضرب آخر من الإعجاز في الإخبار عن المغيبات، ربما كان أبلغ في الدلالة على أن القرآن من عند الله ومن كلامه، وليس من صنع البشر، ولا من إيحاءاتهم، وذلك لأنه في هذه المرة يتعلق بشخص نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، فهو من الأمور التي تستحيل فيها المزايدات، ويستحيل فيها التغرير والخداع والمجاملات.

إننا جميعاً نعرف ما كان يلاقيه رسول الله ﷺ من عنت، بسبب أذى المشركين.

كما أننا جميعاً نعرف أن كثيراً من المشركين كانوا يتربصون برسول الله ﷺ الدوائر، وينتهزون الفرص لإلحاق الأذى به، بل لقتله إن وجدوا لذلك سبيلاً.

ولذلك حرص رسول الله ﷺ من مكرهم وتربصهم به، واتخذ لنفسه حرساً من أصحابه، يرقبون له الطريق، ويحفظونه من كيد العدو... إلى أن نزل قول الله تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس﴾.

أخبر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه سيحفظه من الناس، وأمره أن لا يلقي لهم بالاً، ولا يخشى منهم بأساً.

إنه لأمر غريب... الأعداء كثر، وأقوياء، وذووا بأس، والمؤمنون قلة، وضعفاء، يتوارون من الخوف، ويستترون من الضعف، ورغم هذا، ورغم احتياج رسول الله للحراسة والاستتار... رغم هذا كله يؤمر بمثل هذا الأمر الغريب.

ويخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما أوحي إليه، ويأمرهم بالانصراف عن حراسته، ويقول لهم: إن الله كفل له ذلك... فلم يعد بحاجة إليهم... كما يخبرنا بذلك أصحاب السير، وكما تروي كتب الحديث.

إن كثيراً من طغاة هذا الكون عبر التاريخ قد قتلوا وهم بين جنودهم وحراسهم، رغم اتخاذهم أشد تدابير الحيطة والحذر... ومحمد ﷺ رغم إعلان الحرب عليه من قبل أعدائه، ورغم تهديداتهم المتكررة له بالقتل، يأمر حراسه بالانصراف عنه بقوله: «أيها الناس.. انصرفوا.. فقد عصمني الله»[1] ويمشي وحده، لا يهاب أحداً، ولا يحسب حساباً لأحد.

أو كان يمكن لمن كان في مثال حال محمد ﷺ من الضعف، والمطاردة، والتهديدات المتوالية أن يخدع نفسه بمثل هذا الأمر الخطير...؟!.

إن كل عاقل في الأرض يقول: لا... إنه من المستحيل أن يخدع أي إنسان نفسه بمثل هذا، ولا سيما إذا كان في ظرف كظرفه.

ولو كان هذا القرآن من صنع رسول الله لكان مخادعاً نفسه قبل أن يكون مخادعاً للأصحابه، في مثل هذه الآية، ومثل هذا التصرف العجيب.

ولكنه الدليل القاطع، والبرهان الساطع، الذي يتلألأ في سماء الحقيقة، التي لا تدع مجالاً للشك في أن هذا القرآن لم يكن من صنع البشر، وإنما هو كلام خالق الإنسان، ومالك زمامه وتصرفاته.

ولقد بقي رسول الله ﷺ طيلة حياته على هذه الحالة، وقد حقق الله وعده، وحفظه من بأس عدوه.

عندما هاجر رسول الله ﷺ لم يكن معه أحد من الحرس، وإنما هي حراسة عين الله التي لا تنام... وحاول المشركون قتله، ولكن الله الذي عصمه من الناس صرف الناس عنه، وهو أمام أعينهم، وبين ظهرانيهم، في فراشه،

---

(١) الطبراني عند أبي سعيد، وانظر: الدر المنثور ٢/٢٩٩.

قبل أن يغادر مكة، وفي الغار، بعد أن غادرها من بين صفوفهم.

ولما لحق به سراقة بن مالك ليقتله، كانت النتيجة أن طلب الأمان من رسول الله لما رأى من آية الله في حفظ رسوله.

وكان أصحاب رسول الله إذا أتوا في سفر على شجرة ظليلة، تركوها له، فلما كانت غزوة ذات الرقاع، نزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، وعلق سيفه فيها، فجاء رجل من المشركين، فأخذ السيف، فاخترطه، وقال للنبي ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا»، قال: من يمنعك مني؟ قال: «الله يمنعني منك، ضع السيف» فما كان من المشرك إلا أن وضعه، كما رواه مسلم في صحيحه.

ومن أبلغ الشواهد في هذا الموضوع، ما ثبت من أنه ﷺ في يوم حنين، حين أعجبت المسلمين كثرتهم، وأدبهم الله بالهزيمة حتى ولوا مدبرين، أنزل الله سكينته على رسوله، حتى لقد جعل يركض بغلته إلى جهة العدو، والعباس بن عبدالمطلب آخذ بلجامها، يكفها، إرادة ألا تسرع، فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ، فلما غشوه لم يفر، ولم ينكص، بل نزل عن بغلته، كأنما يمكنهم من نفسه، وجعل يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب» كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه، فوالله ما نالوا منه نيلاً، بل أيّده الله بجنده، وكفّ أيديهم عنه بيده. كما رواه البخاري ومسلم.

ولقد وصل الأمر بأصحاب رسول الله ﷺ إلى أن صاروا يتقون به بأس العدو، ويحتمون به في شدة المعركة.

فقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «كنا إذا احمر البأس، وحمي الوطيس، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد منا أقربَ إلى العدو منه».

لقد أخبر الله بحمايته، وأنجز له ما وعد، وإن في ذلك لأكبر الشواهد على إعجاز القرآن.. فهل من مدكر..؟!.

٥ ـ الإخبار عن حفظ القرآن إلى يوم القيامة

لقد بعث الله نبيه محمداً ﷺ، ليس نبياً للعرب، بل رحمة للعالمين.

وليس لزمان معين ومكان مخصوص، وإنما لكل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

إذن فهو يخاطب كل من في الأرض، من عربي وأعجمي، ومشرك وكتابي، وملحد ومادي.

وأنزل عليه القرآن الكريم، كتاباً يتلى إلى يوم القيامة، ناسخاً لكل كتاب قبله، من التوراة، والإنجيل، وغيرهما من الكتب السماوية، فيجب على كل إنسان أن يدين الله به، حتى عيسى عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان سيكون حاكماً به وتابعاً له، وحتى موسى لو كان حياً لما وسعه إلا اتباعه.

إذن فمهمة رسول الله شاقة، ودعوى القرآن عريضة، والمجابهة حينما تقوم، لن تكون مجابهة بين رسول الله وقومه خاصة، بل بين رسول الله وكل من يدعى إلى دينه من أهل الأرض.

والثورة التي ستقوم ضد القرآن، لدعواه التفرد بأحكام الله إلى يوم القيامة، من بين سائر الكتب الموجودة على الأرض، هذه الثورة لن تكون من قبل العرب فقط، بل من قبل كل صاحب دين، أو نحلة، أو ملة.

نعم.. لقد نزلت آيات القرآن الكريم على رسول الله ﷺ تدعو الناس جميعاً، وتتحدى الناس جميعاً، بل تتحدى كل موجود على الأرض، أو في الكون، من الإنس والجن..

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

وما هو حال رسول الله ﷺ حين تلى هذه الآيات..؟ هل كان في حالة العز والمنعة والقوة..؟ إذاً فهو جدير بأن يعمل مثل هذا أو أن يقول مثل هذا؟.

ولكن الحقيقة أنه كان في حالة من الضعف، وعدم وجدان الناصر أو المعين، جعلته يحتمي بعمه أبي طالب، وجعلت كثيراً من أصحابه يتوارون خوفاً من ثأر المشركين، أو يهاجرون طلباً لحياة الأمن...

فالظروف كلها ضد رسول الله ﷺ وضد القرآن، وكل من يراقب مجرى الأحداث، ويعرف التحديات التي أتى بها القرآن لكل من في الأرض، كان يتوقع أن تندثر تلك الدعوة، كما كان يتوقع أن يزول القرآن وتنسى آياته، شأنه في ذلك شأن كثير من المبادىء التي مرت بها ظروف مشابهة للظرف القرآني، بل ربما كانت في ظروف أحسن بمئات المرات من ظروف القرآن، ولكنها مع ذلك زالت من الوجود، ومحيت من الأذهان، ولم يبق لها من الذكر إلا ما يكتب عنها في بطون كتب التاريخ في أحسن أحوالها.

في هذه الظروف التي صورناها، نزل قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾.

تحد جديد يضيفه القرآن إلى تحدياته السابقة، لا يخاطب به العرب، وإنما يخاطب به كل عاقل في الأرض، ويتحداه، بكلام يعتبر من أكثر أنواع الكلام تأكيداً، وأوضحه مضموناً.

وذلك أنه ألقاه مؤكداً بثلاثة أنواع من التأكيد، ليزيل به أي شبهة أو شك يمكن أن يعتري العقل الإنساني، من إمكانية احتمال التخلف في هذا الخبر عند قائله ومنزله.

فأكد أول الكلام بـ «إنَّ» في قوله: «إنا».

ثم أكد بلام التأكيد أو اللام المزحلقة في قوله: «لحافظون».

ثم أكد ثالثاً بالجملة الإسمية التي تفيد الاستمرار والدوام الدوام.

بحيث لا يدع للقارىء أو السامع مجالاً في أن قائل هذا الكـلام مصر عليه، جازم به، لا يتردد في تنفيذه وإثباته على نحو ما أخبـر به، عـلى عادة العرب في إلقائهم للكلام المؤكد.

كما أكد نسبة هذا الكلام إليه، وأنه هو الذي أنزله بقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾.

إنه إخبار عن غيب مجهول، إلى مدى بعيد، يطول طيلة استمرار الحياة، بدعوى عريضة، لا يضمن الإنسان تحقق وجودها حالة حياته، حينما تكون كل الظروف مواتية له، عـلاوة عن إمكانيـة تحققها بعـد موتـه، فكيف بها وكـل الظروف معادية لها، عاملة على إبطالها، ولا يتوقع أبـداً أن تسير في القـريب العاجل لصالحها، على الأقل كما كان يتوهم مشركـو مكـة، ومعلنوا الحرب على الإسلام والقرآن.

إنها الدعوى بأن هذا القرآن محفوظ من قبل منزله، إلى قيام الساعة، لن يتمكن أحد من أهل الأرض، مهما بلغوا في قوتهم، وعنادهم، وطغيانهم، لن يتمكنوا من أن يقضوا على هذا القرآن، وسيحفظه الله إلى قيام الساعة ليدل بهذا كل من سينظر في القرآن أنه من كلام الله.

وفي نفس الوقت، نزلت دعوى جديدة أخرى، متممة لهذه الدعوى، فيها إخبار عن غيب بعيد مجهول، فيه بيان نوع الحفظ الذي سيحفظ الله به قرآنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾.

لا شك أن كل عربي سمع هذا الكلام في ذلك الوقت، لا شـك أنه أخذته الدهشة، وتملكه العجب، أمام هذه النبوءة العجيبة، عن غيب بعيد لا يدري ماذا ستحمله الأيام فيه، سواء أكان ذلك في صالح القرآن، أم في غير صالحه، ولا شك أن كل من يهمه أمر القرآن ممن عاداه من أهل الأرض، كانت

تهمه هذه النبوءة، ويتمنى أن يرى نقيضها، ليدل على إيجاد التناقض في هذا القرآن.

لقد تكفل الله بحفظ القرآن الكريم واستمراره استمرار الحياة، كما تكفل بحمايته من التبديل والتحريف، والتغيير والتزييف، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن دعوى الحفاظ على القرآن من يد التبديل والتحريف دعوى عريضة، ولا سيما بعد أن عرفنا الظروف القاسية التي كان يمر بها المسلمون حينما نزلت هذه الآيات..

إننا لا نكاد نجد على وجه الأرض كلاماً يحافظ على معناه ولفظه إلى الأبد، دون أن تتبدل بعض ألفاظه، أو تتغير بعض معانيه.

فهذه الكتب السماوية السابقة، رغم كثرة أتباعها، وحرصهم عليها، قد بدلت وغيرت، وحرفت وزيفت، حتى أصبحت مغايرة لأصولها، ومنافية لها.

وليس هذا شأن الكتب السماوية فقط، بل هو شأن كل منقول يطول عليه الأمد.

إننا حينما نقرأ اليوم شعراً لبعض شعراء الجاهلية نجد فيه اختلافاً كثيراً، وقلما يخلو البيت الواحد من القصيدة ـ قلما يخلو من تغاير في ألفاظه، بسبب الرواة قديماً، وبسبب تعدد النسخ حديثاً، رغم حرص العرب على نقل الشعر، والتغني به، والفخر بمضمونه، ولا سيما أنه كان المعبر عن أيامهم، والحافظ لسيرتهم وتاريخهم، وكرمهم ومآثرهم، وأمجادهم وبطولاتهم.

وهذا لا نجده في الشعر الجاهلي فقط، بل نجده في الشعر الإسلامي، في كافة العصور، رغم كثرة الرواة وشيوع الكتابة والتدوين.

بل إننا لنجد اختلافاً فيما ينقل إلينا من مئتي أو مائة عام، أو ما دون ذلك، وهذه طبيعة النقول.

وهذا الاضطراب أو الخلاف، لا نجده فقط في رواية الشعر، بل نجده في متن اللغة، وكتب التراث حينما نحققها، وربما اختلفت الأحكام، وتغيرت المعاني بسبب اختلاف النسخ، وضبط الناسخين.

بل إننا نزيد على ذلك ونقوله: إن الاختلاف بين الرواة في النقل، بسبب جودة الحفظ أو رداءته، وبسبب الضبط وعدمه، وبأسباب أخرى معروفة مضبوطة في علوم الحديث ـ أدى هذا إلى الاختلاف في متن حديث رسول الله ﷺ، ولا سيما وقد أجاز المحدثون الرواية بالمعنى، لمن عرف العربية، وأدرك المعاني والأحكام، بضوابط رسموها في قواعد الرواية، مما اضطر العلماء إلى تصنيف قواعد الترجيح بين الروايات المختلفة عند تعارضها، مما هو معروف عند علماء الأصول.

لقد كان من المتوقع لكل ذي عقل، أن ينال القرآن ما ينال غيره من الكتب، من الاختلاف والاضطراب، والتغيير والتبديل، بين النُّسَخِ، وبين الأقاليم والأمم.

ولكن الله أراد أن يطمئن رسوله والمؤمنين إلى أن هذا القرآن لن يكون كغيره من الكتب والمنقولات التي تغيرت وتبدلت، وذلك لأن تلك الكتب قد وكل حفظها إلى البشر، ولذلك كان لا بد من الاضطراب والاختلاف فيها، وأما القرآن فقد تكفل الله بحفظه وبقائه.

ومرت الأيام، وتتابعت السنون والقرون، ومر المسلمون في حالات من القوة والعزة والمنعة والرفاهية، كما مروا في حالات من البؤس والذل والهوان، والقرآن رغم كل هذا لم يتأثر، بل لم يزدد إلا قوة وثباتاً.

يقرؤه المسلم في اليمن، بنفس الصيغة والرسم اللذين يقرؤه بهما المسلم في الصين، ويقرؤه المسلم في أوروبا، كما يقرؤه المسلم في أمريكا، كما يقرؤه المسلم في أفريقيا ومكة المكرمةِ أو المدينة المنورة، أو الشام، أو مصر.

صيغة واحدة، ورسم واحد، لا زيادة فيه ولا نقص، ولو بحرف واحد.

نـرجع إلى النسخ التي كتبت منذ أربعـة عشر قرنـاً، فنجـدهـا بنفس الكلمات والحروف التي كتبت بها النسخ بعد ذلك بقرن، أو قرنين، أو ثلاثة، أو عشرة، إلى يومنا هذا.

والأعجب من ذلـك أن المسلم الصيني، أو الروسي، أو الأوروبي، أو الأفريقي، أو الأمريكي، يقرأ القرآن بلغة العرب التي أنزل فيها، في كثير من الحالات، بل في أكثرها لا يفهم معناه، ولكنه رغم هذا، يقرؤه ويحفظه، بنفس الصيغة والأسلوب اللذين كان يقرأ بهما القرآن في زمن رسول الله ﷺ، وفي كل زمان ومكان، وكما يقرؤه المسلم العربي الذي يكاد يفهم معنى كل حرف من حروفه، وكل كلمة من كلماته.

ما السر في هذا؟.

وكيف ثبت القرآن هذا الثبوت؟.

وكيف وصل إلى هذه المرحلة، خلال هذه القرون الطويلة التي ما أتت على شيء إلا وبدلته وغيرته..؟.

إنه إعجاز القرآن الغيبي.. الذي أخبر الله عنه من أربعة عشر قرنـاً: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾ ﴿إنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد﴾.

ولكن... هل هذا كل ما في الأمر من هذه المعجزة الغيبية..؟.

الجواب: لا..

إن وجه الإعجاز سيظهر جلياً واضحاً اليوم، في العصر الحاضر، أوضح مما ظهر في أي يوم من الأيام...

لقد دارت الدائرة على دولة الإسلام، فانهارت خلافتها، وتمزقت وحدتها، وقامت الحدود الإقليمية المصطنعة بين أبنائها، فجعلت منهم العربي والأعجمي، ثم قامت الحدود بين أبناء الأمة العربية ذاتها، وقسمت البلاد العربية إلى دول ودويلات، وفي كل هذا التراجـع، تتراجـع راية المسلمـين، وتلين عزيمتهم، وتضرب حولهم السدود المنيعة حتى لا يقووا على الحركة والنهوض.

فقد تداعى الشرق والغرب، من اليهود، والنصارى، والماديين الملحدين للقضاء على الإسلام، وإلا قضى عليهم.

وتسابق فلاسفة هذه الدعوة لوضع الخطط الكفيلة بهدم ذلك الصرح الشامخ الذي بناه الآباء والأجداد خلال مئآت السنين، في أعظم وأسرع حضارة عرفتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل.

وتظاهر المبشرون والمستشرقون في مؤتمرات عديدة لمثل هذه الغاية، وكان مما قرروه وعزموا عليه، هو القضاء على القرآن، الذي عرفوا أنه سر من أسرار التماسك والاتحاد بين المسلمين، فقالوا: ـ وقائلهم غلادستون رئيس وزراء بريطانيا ـ ما دام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق[1].

وقال الحاكم الفرنسي في الجزائر، في ذكر مرور مئة سنة على استعمار الجزائر:

«إننا لن تنتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم»[2].

إذن لا بد من شن حملة على الإسلام والقرآن، تستأصله من بين أيدي المسلمين، وترفعه من أوساطهم، لتتحقق التفرقة التي يحلم بها أعداء هذا الدين.

لقد قرروا هذا وهم يملكون من القوى ما تمكنوا بواسطته من إزالة كثير من الحضارات، وتغيير كثير من الخرائط، وإنشاء أو إفناء كثير من الدول.

إذن ففي وهمهم أنهم سيتمكنون من الوصول إلى هذا الهدف الذي

---

(١) الإسلام على مفترق طرق لمحمد أسد ص ٣٩.
(٢) المنار عدد ٩ ـ ١١ ـ ١٩٦٢.

رسموه، يتحدون بذلك ليس إرادة البشر، وإنما إرادة الله، ويثبتون أن خبر القرآن كان كاذباً حينما ألقي إلى محمد ﷺ: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولكن هل وصلوا إلى ما أرادوا..؟

لقد تمكن المخططون من الوصول إلى كثير من مآربهم في أمتنا الإسلامية، فنقضوا الخلافة، ثم مزقوا الأمة، ثم كروا على دور العلم الإسلامية فقضوا عليها، بالتطوير تارة، وبتجزئة المناهج تارة أخرى، ليحولوا بين الناس وبين ينابيع ثقافتهم الإسلامية.

ثم بثوا في صفوف المسلمين مناهجهم التعليمية، وما زالوا يعملون ويدأبون إلى أن وصلت أمتنا إلى ما لا تحسد عليه، مما يسر العدو، ويحزن الصديق، إذ كادت تندثر في صفوفها كثير من العلوم الإسلامية، والعربية، فعلوم الفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، لم يبق منها اليوم إلا أطلال دارسة، ومعاهد خاوية.

وعلوم اللغة اندثرت أو كادت، مما يهدد بكارثة في جانب علوم الشرع بأسرها.

وكل هذا لم يكن من قبيل الصدفة، وإنما كان نتيجة لتخطيط ماكر رهيب.

ويضاف إلى كل هذا أن أعداءنا نشروا في أوساط الأجيال المعاصرة روح الإلحاد والإباحية، حتى لم تعد للقرآن أية قيمة في نفوسهم، كما أنه لم تعد للفضيلة مكانة عندهم، وصار كثير منهم يهزأ هو نفسه بالقرآن وبتعاليم القرآن بدلاً من أن يهزأ بها عدوه.

وإلى جانب هذا وصل المسلمون إلى حالة من الضعف والوهن، لم يصلوا إليها طيلة تاريخهم الطويل، حتى أصبحوا هدفاً لحملات الإبادة الإفرادية والجماعية، في معظم بقاع العالم، وهم الآن لا حول لهم ولا طول، مثلهم مثل

الشاة التي تنتظر دورها في المسلخ أمام الذباح. . . ؟

ولكن وثانية ماذا حصل للقرآن في تلك الخطة المرسومة للقضاء عليه، وقد استطاع أعداؤه أن يصلوا لكل ما رسموه فيها سواه من مظاهر الإسلام والعلوم الإسلامية. . . ؟!.

لقد كان الأمر بالنسبة للقرآن على العكس تماماً مما حدث لجميع العلوم الإسلامية التي ذكرناها، والتي استغنينا بما ذكرناه عن ذكرها، علماً بأنه كان هو الهدف الرئيسي، أو من أهم الأهداف الرئيسية في تلك الحملة الصليبية الخطيرة، التي قامت، وما تزال قائمة إلى يومنا هذا.

لقد كانت دور تحفيظ القرآن محصورة في بعض بقاع العالم الإسلامي، وأما اليوم، ورغم بعد الناس عن دينهم، ورغم بعدهم عن لغتهم، ومن ثم عن فهم قرآنهم، فقد انتشرت مدارس تحفيظ القرآن في معظم بقاع العالم الإسلامي.

وإن الإنسان ليدهش حينما يجد الآلاف من الأطفال يتخرجون كل عام حفظة للقرآن الكريم، من ماليزيا، في جنوب شرق آسيا، إلى مكة قلب جزيرة العرب، وفي معظم بلاد الإسلام، إلى جانب ما يرصد لحفظة القرآن من الجوائز في بعض الأحيان، مما لا يخفى على كل من يتتبع أحوال القرآن وحفاظه في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حتى وصل الأمر لبعض المؤسسات التعليمية الإلحادية فأخذت ترصد الجوائز، وتعمل المسابقات لحفظ القرآن الكريم. . . ؟.

كما أصبحت طباعة القرآن، والعناية به من المظاهر التي يتباهى بها كثير من الدول والحكام في العالم.

فكثير من الحكام نشروا القرآن بأسمائهم، وطبعوه على نفقاتهم.

وكثير من الدول عملت هذا باسم الدولة التي نشرته.

وإن الإنسان ليعجب حينما يعلم أن روسيا ـ رائدة الإلحاد في العالم ـ قد طبعت القرآن، وهي توزعه على الزائرين والضيوف وبعض المسلمين في الاتحاد السوفيتي؟.

كما أن أجمل طبعة للقرآن وآنقها كانت في المانيا الغربية رائدة الحروب الصليبية. . . ؟.

لقد كانت قراءة القرآن في الماضي مقصورة على من يعرف القراءة، وأما اليوم فقد صار بإمكان المسلم ـ ممن يقرأ ولا يقرأ ـ أن يسمع القرآن، ويتعلم تجويده ويحفظه، بعد أن سجل القرآن الكريم على الاسطوانات، ثم على الأشرطة، بأصوات أمهر القراء في العالم الإسلامي، وبالقراءات المختلفة من السبعة المتفق على تواترها، فصار بإمكان الأمي، والقارىء، والبدوي، والحضري، والعربي، والأعجمي، أن يستمع إلى القرآن متى شاء، وفي أي زمان أو مكان، وأن يتعلمه ويحفظه. . ؟.

المدارس تعمل المسابقات لحفظ القرآن، والجامعات تعمل أيضاً المسابقات، وبعض الدول الإسلامية النائية كماليزيا مثلاً تعمل سنوياً مسابقة دولية لحفظ القرآن وترتيله، والحكام يسارعون للتفاخر بنشر القرآن على نفقاتهم، بأسمائهم أو بأسماء دولهم، والإذاعات تتسابق لتسجيل القرآن بأصوات القراء، ودور النشر تعمل كل ما في وسعها من أجل جذب الزبائن عن طريق إصدار أجمل الطبعات للقرآن. . . ؟

إن كل من يرى هذه الظاهرة اليوم ليقول: إنه من المستحيل إزالة القرآن من الوجود، أو إبعاده عن الناس، بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من الثبات والتوثيق فيما ذكرناه من الوسائل.

ولذلك باءت كل محاولات التزوير أو التحريف التي قام بها اليهود وأعوانهم في العالم، بنشر بعض الطبعات المحرّفة للقرآن، لأنه لم يعد هناك أي مجال لمثل هذه المحاولات اليائسة، بعد أن وصل القرآن إلى ما وصل إليه.

أليس هذا دليلاً على مصداق قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾؟.

أو ليس في هذا دليل على حفظ الله قرآنه من التبديل والتغيير والتحريف في قوله تعالى: ﴿إنه لكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه،

تنزيل من حكيم حميد﴾؟.

أو ليس في هاتين الآيتين ما يبهر العقول من الإعجاز الغيبي في كتاب الله..؟

أو ليس هذا دليلاً على أن هذا القرآن من عند الله، ومن كلامه، لا من كلام البشر، وإلا لما استطاع أي إنسان في الأرض أن يجزم بحفظ القرآن على نحو ما ذكرناه.

بلى اللهم إنا لنشهد على أن في هاتين الآيتين من الإعجاز الغيبي ما يفحم به المعاند، ويذعن له المنصف العاقل.

٦ ـ الإخبار عن عجز البشر عن تحدي القرآن إلى يوم القيامة

لقد نزل القرآن الكريم في أمة الفصاحة والبلاغة والبيان، كما قدمنا ذلك وبيناه.

نزل بلغة هذه الأمة، وجرى على أساليبها في الخطاب، والخبر، والمحاورة، وتصرف في تلك الأساليب كما كان يتصرف العرب.

إلا أنه في نفس الوقت كان المعجزة اللغوية الحية الناطقة، الدالة لكل عربي تذوق لغته وعرفها على أن هذا القرآن ليس من عند البشر، لما احتواه من أساليبه المعجزة، في كل سورة من سوره، وإنما هو من عند الله، ولذلك تحداهم الله به.

ونحن لا نريد الآن أن نعيد ما تقدم، وإنما نريد أن نبين وجهاً من وجوه الإعجاز الغيبي في آيات التحدي بالقرآن.

لقد تحدى الله العرب بالقرآن في مكة في ثلاثة مواطن، تحداهم في سورة الإسراء، أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فقال: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

ثم كان التحدي في سورة هود، ليس بكل القرآن، وإنما هو بعشر سور مثله، فقال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

ثم ترقى التحدي إلى التحدي بسورة واحدة من سور القرآن، فقال تعالى في سورة يونس: ﴿أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم

من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

وكان كل من يهمه أمر القرآن، من مشرك أو مؤمن، يترقب نتيجة هذا التحدي، ويتمنى كل مشرك لو أنه وقع، إلا أنه لم يقع طيلة فترة القرآن المكي قبل الهجرة، على ما بيناه.

وبعد الهجرة نزلت آيات القرآن الكريم، ليس فقط بالتحدي للمشركين بسورة واحدة من سور القرآن، بل بأمر آخر أعجبَ وأغربَ، وفيه دلالة قاطعة أخرى على إعجاز القرآن، وأنـه ليس من صنع البشر، ألا وهي الجـزم بأن القرآن لن يعارض، ولو في سورة واحدة من سوره، فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فاتقـوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾.

إن التحدي لم يعد قاصراً على معارضة القرآن، وإنما أصبح بأمر آخـر غيبي، لا يمكن لأحد من البشر أن يتنبأ به بمثل هذا الجزم وهذاالتأكيد، ألا وهو أن هذا القرآن لن يتحدى، وبأن العرب وكل من في الأرض، وبكل تأكيـد سيعجزون عن معارضة القرآن إلى يوم القيامة.

أما الشق الأول من التحدي، وهو التحدي بمعارضة القرآن، ولو بسورة واحدة من أقصر سوره، فقد ثبت عجز العرب عنها كما رآه وأدركه كل عربي من المشركين والمؤمنين على السواء، وكما اعترف به أساطين الشرك وزعماء البلاغة والبيان في مكة، على ما ذكرناه من قبل، مما ثبت معه إعجاز القرآن.

وأما الشق الآخر ألا وهو الجزم بأمر غيبي، فلا سبيل لأن يدركه أحد ممن عاصر نزول القرآن وقيام التحدي، وربما وقـع في نفوس بعض المشـركين أو المعـادين للإسلام من اليهود والنصارى والمنافقين، ربما وقع في نفوس بعضهم أنه إذا لم يتمكن أهل الجيل الأول من معارضة القرآن، فإنه من المحتمل أن يعارضه أهل الجيل الثاني، وهذا احتمال يقبله العقل المجرد ولا يدفعه.

ولكن الواقع حسبما هو معروف في تاريخ الإسلام والقرآن يثبت أن المعارضة لم تقع، رغم تكرر الأيام، وتوالي القرون والأعوام، ورغم كثرة الحريصين على هذه المعارضة، والمهتمين بها، إذ لو وقعت لانتشرت انتشار النار في الهشيم، ولشاعت وذاعت، وملأت الدنيا ضجيجاً، ولكانت رمز الفخار لكل من رفض الإسلام وأبى الإيمان.

وهذا إلى جانب ما اكتشفناه في هذا العصر من الإعجاز العلمي في القرآن، مما جعل كل عاقل يدرك أن من المستحيل أن يأتي البشر بأي كتاب كهذا الكتاب، يخوض في كل جوانب الكون والنفس والحياة، دون أن يوجد فيه أي خلل أو تناقض، بل تأتي العلوم التي بذل الإنسان من أجلها وضحى، تأتي لتثبت صدق القرآن في كل ما أخبر به أو خاض فيه من أمور الكون والحياة... دون أي اضطراب، أو تناقض، أو خلل، كما بيناه، وكما سنبنيه إن شاء الله.

ولذلك كانت هذه الآية المخبرة عن هذا الأمر الغيبي العجيب معجزة ناطقة، لا لأهل الجيل الأول، بل لكل جيل إلى يومنا هذا، وإلى يوم القيامة، إذ أدركنا أن المعارضة لم تقع أبداً، على نحو ما أخبر الله به في القرآن قبل أربعة عشر قرناً من الزمان.

ولذلك ذهب الإمام الزمخشري إلى أن «لن» تدل على النفي المؤبد، لا على مطلق النفي، مستدلاً بهذه الآية الكريمة.

إذن فإننا حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ يجب علينا أن نذعن إذعاناً يقيناً إلى أن هذا القرآن ليس من صنع البشر، وإنما هو من كلام علام الغيوب، الذي أخبر عما علم من حال خلقه أنه سوف لا يكون بوسعهم معارضة القرآن وإن اجتمع إنسهم وجنهم على قلب رجل واحد، وكان الأمر إلى يومنا هذا على نحو ما أخبر الله به، وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة، ليدل كل من ينظر في القرآن من أهل كل جيل على أن هذا القرآن هو المعجزة الدالة على أنه من وحي الخالق وكلامه، لا من صنع البشر.

٧ - الإخبار عن دخول مكة

لقد رأينا في الفقرات السابقة كيف أن نبوءات القرآن كلها قد وقعت على نحو ما أخبر به القرآن، دون أن يتخلف واحد منها.

ومن هذا القبيل، ومما رأى المسلمون تحققه في زمن وجيز، وعلى التحديد خلال سنة من تاريخ الإخبار تقريباً - ما كان من أمر دخول النبي ﷺ مكة.

فقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير الطبري، وابن المنذر، والبيهقي في دلائل النبوة، عن مجاهد قال: «أُري رسول الله ﷺ وهو بالحديبية، أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين»[1].

فقص رسول الله ﷺ رؤياه على أصحابه، ففرحوا، وظنوا أنهم سيدخلون في ذلك العام، بناء على ما فهموه من رؤيا رسول الله ﷺ، لأن رؤيا الأنبياء حق، لا ريب فيه، بل هي من أنواع الوحي.

إلا أن الأمر جرى على خلاف ما أخبر به رسول الله ﷺ، ووقع ما لم يكن بالحسبان، إذ خرجت قريش، وصدت المسلمين عن البيت، ومنعتهم من أداء العمرة، وكادت تكون حرب، بين المسلمين والمشركين، وهو الأمر الذي لم يخرج المسلمون له وما أراوده، لولا أن الرسول ﷺ رضي الصلح الذي اشتهر بصلح الحديبية، على أن ينحر رسول الله ﷺ وأصحابه الهدي في مكانهم، ويحلقوا رؤوسهم، ويرجعوا، حتى إذا كان العام المقبل، يخلي له المشركون الحرم ومكة ثلاثة أيام، يؤدي فيها نسكه مع أصحابه، شريطة أن لا يدخلوها بسلاح، ولا

---

(١) الدر المنثور ٦/٨١.

يخرجَ معهم أحد من أهل مكة.

فنحر رسول الله ﷺ هديه، وحلق رأسه، وقفل راجعاً إلى المدينة.

فعز ذلك على أصحابه وآلمهم، وسر المنافقين، وأعطاهم مادة جديدة للبلبلة بين المسلمين، فقال عبدالله بن أبيّ رأسُ النفاق: والله ما حلقنا، ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام...، يشير إلى رؤيا رسول الله ﷺ التي رآها، وأخبر بها أصحابه، ورؤياه كما هو معروف لجميع المسلمين حق ووحي، فكيف تخلفت في هذه المناسبة..؟!.

وعلى الرغم من حرج الموقف، وعلى رغم ما هو معروف من غدر قريش، ونكثهم العهود والمواثيق، وتعطيلهم الأرحام، نزلت الآية الكريمة، تؤكد رؤيا رسول الله، وأنها حق لا ريب فيه، تحمل نفس المعاني التي رآها رسول الله في المنام، فقال تعالى:

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، محلقين رؤوسكم ومقصرين، لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾.

وفرح المسلمون وهللوا، وزاد غيظ المنافقين، وكثر دسهم، واتسعت دائرة عملهم، لما عرفوه من مشركي مكة، من نكثهم للعهود، ونقضهم للمواثيق، ظناً منهم بأن قريشاً ستنقض عهدها، ولن تسمح لمحمد وأصحابه بدخول مكة، وهي التي طردتهم منها، وحاولت بكل الوسائل قتلهم.. وما تزال تحاول.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر دينه وقدرته، فثبتت قريش على عهدها، وجاء العام التالي، وادخل المسلمون مكة، واعتمروا، وحلقوا رؤوسهم وقصروا، آمنين مطمئنين، مصداقاً لما أخبر الله به في القرآن الكريم.

﴿لتدخلن المسجد الحرام إن ' اء الله آمنين، محلقين رؤوسكم ومقصرين، لا تخافون﴾.

ليكون في هذا ما يدل كل ذي عقل على أن هذا القرآن إنما هو من عند

خالق البشر، والمتصرف بمقاديرهم وأمورهم، ما أخبر عن شيء إلا وقع كما أخبر عنه، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

وليس هذا فقط، فقد حملت الآية التي نزلت بصيغة الجزم والتأكيد ـ حملت بشارة عظيمة للمسلمين، وأخبرتهم عن أمر لم يكن بحسابهم، ألا وهو الفتح القريب الذي سيكون دون تحقق هذه الرؤيا، وكان الأمر على نحو ما أخبر الله به في هذه الآية الكريمة.

وذلك أنه بعد أن عقد الصلح، واطمأن الناس وأمنوا، التقى الناس وتفاوضوا، وتبادلوا الحديث والمناظرة، فما كُلِّم أحدٌ بالإسلام، إلا ودخل فيه، فدخل في تلك الفترة الوجيزة من الزمان، أضعاف ما كان قد دخل فيه قبلها.

فقد كان عدد المسلمين سنة ست من الهجرة يوم الحديبية ألفا وأربعمائة رجل، وكانوا بعد عام الحديبية سنة ثمان من الهجرة حوالي عشرة آلاف رجل[1].

ولذلك قال ابن شهاب الزهري: ما فتح الله في الإسلام فتحاً كان أعظم من صلح الحديبية.

إنها بَشائر متتابعة يسوقها القرآن الواحدة تلو الأخرى، وكلها تحمل الإخبار عن غيب لا يمكن لأحد من البشر أن يتنبأ عنه كما تنبأ القرآن، ولا سيما أن الظروف كلها بعيدة كل البعد عن مثل تلك النبوءات، ومع ذلك كانت تتحقق بكل صراحة ووضوح، لتدل على أن هذا الكلام إنما هو كلام الله، وليس من صنع البشر.

---

(١) القرطبي ١٦/٢٩١.

٨ ـ الإخبار عن بعض أسرار بني إسرائيل التي لم تكن معلومة حتى لليهود المعاصرين للقرآن

إن ما ذكرناه في الفقرات الماضية من صور الإعجاز الغيبي، إنما كان بالنسبة للأمور التي أخبر القرآن عنها بأنها ستقع في المستقبل.

وقد رأينا كيف أنها تحققت، دون أن تتخلف واحدة منها، على نحو ما أخبر به القرآن، ليكون في ذلك المعجزة الخالدة الناطقة الدالة لكل إنسان في كل زمان ومكان على أن هذا القرآن إنما هو من كلام الله الذي لا يجوز لعاقل أن يمتري فيه بعد أن رأى أو سمع عن تلك المعجزات اليقينية، في الإخبار عن الأمور الغيبية، التي تحقق بعضها في زمن رسول الله ﷺ، وتحقق بعضها بعد وفاته عليه السلام، وما زال بعضها تدرك حقيقته في أيامنا الحاضرة، وسيبقى القرآن هكذا، تكشف لنا الأيام عن إخباره بالغيوب إلى قيام الساعة.

وليس ما ذكرناه عن غيب المستقبل هو كل ما أخبر عنه القرآن، وإنما ذكرنا ما ذكرناه، كنموذج للإخبار عن الغيب.

وهناك أمور لم نذكرها، تعرض لها العلماء، وتعرضت لها كتب التفسير، استغنينا بما ذكرناه ـ مما اتضحت دلالته ـ عنها، ففي اليسير الواضح ما يغني عن الكثير.

ولكن الإعجاز في الإخبار عن الغيب ليس مقصوراً على غيب المستقبل، بل هو عام، يشمل غيب المستقبل، كما يشمل غيب الماضي، وغيب الحاضر.

أما بالنسبة للماضي، فذلك لأن النبي ﷺ كان رجلاً أمياً، لا يعرف قراءة ولا كتابة، وهذه حقيقة لم يختلف فيها مشرك ولا مؤمن، ولا يهودي ولا نصراني.

قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾.

وقال: ﴿ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذاً لارتاب المبطلون﴾.

وفي نفس الوقت لم يكن النبي ﷺ على علم بأخبار الأمم السابقة، على التفصيل الدقيق الذي يخفى على كثير من المتخصصين علاوة عن الأميين.

وكانت أخبار الأمم السابقة مقصورة في الجاهلية على بعض الناس، من العرب وغيرهم، ممن شاع ذكرهم، وانتشر في الناس صيتهم.

وما عرف هذا يوماً عن نبينا عليه الصلاة والسلام.

ومع ذلك فقد ورد في القرآن الكريم الكثير والكثير من أخبار الأمم الماضية، وفي بعض الحالات بأدق التفاصيل التاريخية، التي كانت لا تخفى على كثير من الذين كانوا على صلة بتاريخ الأمم السابقة، كالإخبار عن قصة نوح عليه السلام، في دعوته لقومه، وعن سير تلك الدعوة، ومدتها، وعاقبتها، وعن الطوفان الذي غمر الأرض، وغير ذلك من الأمور.

وكالإخبار عن أحوال بني إسرائيل مع فرعون، ومع نبيهم موسى عليه السلام، والكشف عن سوءاتهم ومخازيهم، من قتل الأنبياء، والتعنت في المطالب، والغلو في الأمور، والتحايل على الشرع، والعبث في الدين.

وكالإخبار عن حياة موسى عليه السلام، من بدئها إلى نهايتها، وبأدق التفاصيل التاريخية التي كان يجهلها أكثر العرب إن لم نقل كلهم، كما كان يجهلها كثير من بني إسرائيل.

كما كشف عن كثير من الأخطاء التي كان عليها بنو إسرائيل، من اليهود والنصارى، في شأن مريم ابنة عمران، وعيسى عليه السلام، وعزيز، فكان مطابقاً لما كان معروفاً عند بعض أحبار اليهود والنصارى، ممن عرفوا الحقيقة.

فتكلم عن بدء حياة ابنة عمران، وما صاحب حياتها من الكرامات التي

رآها زكريا عليه السلام، ثم تكلم عن حقيقة حملها، وبرأها مما كان يرميه بها اليهود من الزنا.

ثم تكلم عن حقيقة عيسى بن مريم، وأنه بشر من البشر، ونفى عنه ما يزعمه النصارى من أنه ابن الله، وثالث ثلاثة، كما نفى عنه أنه قتل أو صلب، على خلاف ما يعتقده النصارى أيضاً، ومما يتوافق مع الحقيقة التي كان يعرفها بعضهم، والحقيقة التي كشفت عنها الأيام حينما اكتشف إنجيل برنابا.

فلم تكن قصصهم فقط سرداً للحقائق التاريخية التي كانت تخفى على نبينا عليه السلام، والتي لم يكن قد تعلمها من قبل، بل كانت في كثير من الأحيان تصحيحاً لمعتقداتهم الباطلة التي بنوها على تاريخ محرف مزيف.

ولذلك لما هاجر المسلمون هجرتهم الأولى إلى الحبشة، وعرضوا في القصة المعروفة التي تعقبهم بها المشركون ـ عرضوا حقيقة الإسلام التي جاء بها القرآن لم يكن من النجاشي العارف بالحقيقة إلا أن قال: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة».

ثم قال لما عرضوا عليه حقيقة عيسى بن مريم التي جاء بها القرآن، والتي كان يجهلها أكثر من في الأرض حتى النصارى، من أنه عبدالله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، لم يكن من النجاشي إلا أن أخذ من الأرض عوداً، ثم قال: «والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلتم مقدار هذا العود».

فمن أين عرف محمد ﷺ تلك الحقائق التاريخية، بذلك التفصيل الدقيق، الذي كان خافياً على جل أهل الأرض، إن لم يكن خافياً عليهم كلهم.

وعلى افتراض أنه كان يتلقى هذه الأمور عن بعض أهل الكتاب ـ كما يزعمه الملاحدة، وكما زعمه المشركون في الماضي، كيف يمكن للعقل البشري أن يؤمن بمثل هذه الأباطيل وهو يحدث الناس بنقيض العقيدة التاريخية التي كان يؤمن بها كل أهل الكتاب في ذلك الوقت، وإلى يومنا هذا؟ وكان ما حدث به

وأخبر عنه هو الحق الذي أقره النجاشي، وسلمان الفارسي، وعدي ابن حاتم، وكل من أسلم من اليهود والنصارى، وكشف عنه في التاريخ الحديث إنجيل برنابا؟!.

إن هذا القصص وإن كان إخباراً عن الماضي إلا أنه إخبار من رجل أمي، لا يعرف قراءة، ولا كتابة، ولا تاريخاً، بل أتى بأشياء تخالف ما كان يعرف علماء التاريخ من الحقائق العلمية التي جعلت إخباره معجزة ناطقة دالة على أنه ما أخبر بما أخبر به إلا من قبل عالم السر والعلانية، وعالم الماضي والحاضر والمستقبل، من قبل الله، ولذلك قال الله تعالى لنبيه عليه السلام في قصة موسى عليه السلام: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاوياً في أهل مدينِ تتلو عليهم آياتنا، ولكنا كنا مرسلين، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك، لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك، لعلهم يتذكرون﴾.

وقال في نهاية قصة مريم: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾.

وقال في عيسى بن مريم: ﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾.

وقال في صلبه وقتله: ﴿وما قتلوه، وما صلبوه، ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً﴾.

وقال في يوسف عليه السلام بعد أن ذكر قصته وكشف حقيقة ما جرى له: ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾.

نعم.. إنه الإنباء عن الغيب الماضي بما يجعل منه معجزة لأهل العصر، ولأهل كل عصر.

٩ ـ الإخبار عن زعم اليهود أن عزيزا ابن الله

إن من أهم الحقائق التاريخية التي كشف عنها القـرآن، في الإخبار عن غيب الماضي، والتي تعتبر من غرائب الأخبار، الإخبار عن أن اليهود زعمت أن عزيزاً ابن الله.

وغرابة هذا الخبر في أهل الكتاب كغرابته في غيرهم.

لقد أخبرنا الله في القرآن الكريم أن اليهود تزعم أن عزيـراً ابن الله، فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل﴾.

أما النصارى فما أنكروا هذا، وهم لا ينكرونه إلى يومنا هذا، وهو أمر معروف عنهم قبل الإسلام وبعده.

وأما اليهود فما كانوا يقولون هذا، وما كان فيهم من يقول: عزير ابن الله في زمن نزول القرآن، وإنما هي قالة تاريخية لفئة منهم، قالتها ثم انقرضت، كما نقله القرطبي عن النقاش[1]، وكما هو معروف في كتب اليهود وعقائدهم.

ولذلك ضرب أعداء الإسلام في الكلام على هذا الموضوع، وزعموا أن في القرآن من الأخبار عن عقائد اليهود ما ليس في عقائدهم، وقال اليهود منهم: إن القرآن يقولنا ما لم نقل في كتبنا ولا في عقائدنا.

إلى أن جاء العصر الحديث، وكشفت المعرفة التاريخية لعقائد بعض قدماء

---

(١) القرطبي ١١٧/٨.

المصريين ما أثبت هذا الخبر القرآني، ليكون الآية الناطقة، والحجة البالغة، الدالة على أن هذا القرآن من عند الله وليس من صنع البشر.

قال صاحب مجلة الفتح الغراء: في سورة التوبة نقرأ هذه الآية: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك قولهم بأفواههم، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾.

قال: فصدر هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله﴾ يتضمن من وقائع التاريخ، وحقائق العلم، أمراً لم يكن أحد يعرفه على وجه الأرض في عصر نزول القرآن.

ذلك أن اسم عزير، لم يكن معروفاً عند بني إسرائيل إلا بعد دخولهم مصر، واختلاطهم بأهلها، واتصالهم بعقائدها ووثنيتها.

قال: واسم عزير هو «أوزيرس» كما ينطق به الإفرنج، أو «عوزر» كما ينطق به قدماء المصريين.

وقدماء المصريين منذ تركوا عقيدة التوحيد، وانتحلوا عبادة الشمس، كانوا يعتقدون في «عوزر» أو «اوزيرس» أنه ابن الله.

وكذلك بنو إسرائيل، في دور من أدوار حلولهم في مصر القديمة، استحسنوا هذه العقيدة عقيدةَ أن عوزر ابن الله، وصار اسم أوزيرس أو عوزر من الأسماء المقدسة التي طرأت عليهم من ديانة قدماء المصريين، وصاروا يسمون أولادهم بهذا الاسم الذي قدسوه ضلالاً وكفرا، فعاب الله عليهم ذلك في القرآن الحكيم، ودلهم على هذه الوقائع من تاريخهم الذي نسيه البشر جميعاً.

قال صاحب مجلة الفتح: إن اليهود لا يستطيعون أن يدعوا في وقت من الأوقات أن اسم عزير، كان معروفاً عندهم قبل اختلاطهم بقدماء المصريين، وهذا الاسم في لغتهم من مادة «عوزر» وهي تدل على الألوهية، ومعناه: الإله المعين، وكانت بالمعنى نفسه عند قدماء المصريين في اسم عوزر أو اوزيرس، الذي كان عندهم في الدهر الأول بمعنى الإله الواحد، ثم صاروا يعتقدون أنه

ابن الله، عقب عبادتهم الشمس.

واليهود أخذوا منهم هذاالاسم في الطور الثاني، عندما كانوا يعتقدون أن أوزيرس ابن الله.

قال: فهذا سر من أسرار القرآن، لم يكتشف إلا بعد ظهور حقيقة ما كان عليه قدماء المصريين، في العصر الحديث، وما كان شيء من ذلك معروفاً في الدنيا عند نزول القرآن.

حتى إن أعداء الإسلام كانوا يصوغون من جهلهم بهذه الحقيقة التاريخية شبهة يلطخون بها وجه الإسلام أو يطعنون بها في القرآن، فقال اليهود منهم: إن القرآن يقولنا ما لم نقل في كتبنا ولا في عقائدنا، وأتى دعاة النصرانية منهم، بما شاء لهم أدبهم من السب والطعن والزراية بالقرآن، ودين الإسلام، ونبي الإسلام»[1] ا هـ.

وقال الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود﴾ قال: هذا لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص، لأنه ليس كل اليهود قالوا ذلك، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس﴾ ولم يقل ذلك كل الناس.

قال النقاش: لم يبق يهودي يقولها، بل انقرضوا، فإذا قالها واحد، تُلْزم الجماعةُ شَنْعَةَ المقالَة، لأجل نباهة القائل فيهم، وأقوال النبهاء أبداً مشهورة في الناس، يحتج بها، فمن ها هنا صح أن تقول الجماعة قول نبيها والله أعلم[2] ا هـ.

* * *

وبهذه المعجزة الغيبية، عن أمر تاريخي قديم، كان الناس يجهلونه جهلاً تاماً عند نزول القرآن، مما يدلنا دلالة قاطعة على أن هذا الكلام إنما هو كلام عالم الغيب والمحيط به، لا كلام أمي، لا علم له بهذه الحقيقة التاريخية، بل لم

---

(١) عن مناهل العرفان ٢/٣٨٢.
(٢) القرطبي ٨/١١٧.

يكن كلامَ أحد من البشر في ذلك الوقت، لأن الجميع كانوا يجهلون هذا، ولا سيما أن أهل الكتاب من اليهود كانوا ينكرونه.

بهذه المعجزة نأتي على ختام الكلام في الإعجاز الغيبي، لننتقل إلى الإعجاز العلمي في القرآن، كما أسلفنا في التقسيم، والله المستعان.

* * *

المبحث الثالث
في
الإعجاز العلمي
في
القرآن الكريم

مقدمة

(قبل أن نخوض في موضوع الإعجاز العلمي، ونتكلم على الآيات المتعلقة بعلوم الكون والحياة وما فيها من إعجاز، لا بدّ لنا أن نقدم على الموضوع مقدمة وجيزة، نضع بها الخطوط العريضة للمنهج الذي سنسلكه في سبيل الوصول إلى الغاية والهدف، دون غلو نحمل به آيات القرآن ما لا تحمله من المعاني والاحتمالات، أو تفريط نعرض به عن كثير من الحقائق الكونية والعلمية التي لا يجوز الإعراض عنها لجمود في التفكير، أو قصور في العلم والمعرفة.

لقد كثر الكلام منذ بداية هذا القرن عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، بحيث غطى نوعاً ما على بعض جوانب الإعجاز الأخرى فيه، لا من حيث كونها معجزة في الواقع ونفس الأمر، فتلك الجوانب كانت وما زالت معجزة، ولكن من حيث كونها أصبحت بعيدة عن أفهام الناس وعقولهم، بينما أصبحت الجوانب العلمية مسيطرة على حياة الناس وعقولهم.)

فحينما نتكلم اليوم على الإعجاز اللغوي في القرآن، لا نجد الناس يتفاعلون معنا في إدراك وجوه الإعجاز في كلماته، وجمله، وأساليبه، لأن معظم الناس اليوم يجهلون لغة العرب، بسبب المخطط الخطير الذي فرض على أساليب التعليم ومناهجه في أمتنا وبلادنا، من قبل أعدائنا.

بل تجاوز الأمر في الإعجاز اللغوي، تجاوز صفوف العامة إلى صفوف القلة المتبقية من العارفين بقواعد اللغة، والمهتمين بأدبها، فإن أكثرهم لا يحس بالإعجاز اللغوي بسليقته وطبعه، وإنما يدركه بعقله ودراسته ومعارفه.

وشتان بين رجلين، الأول يسمع القرآن، فيدرك بمجرد سماعه وبتذوقه الفني أن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنما هو معجز من كلام الله.

وبين رجل آخر قد يصل إلى هذه النتيجة في بعض آيات القرآن، ولكن ليس بمجرد سماعها، وإنما بدراستها وتحليلها وإخضاعها لعلومه ومعارفه.

وقد تكلمت على هذا الموضوع بالتفصيل في بداية هذا البحث، وسنرجع إليه بمزيد من التفصيل إن وفقنا الله للكتابة في الإعجاز اللغوي.

بينما نجد عامة الناس في مجتمعنا يتمايلون طرباً حينما نعرض لهم بعض وجوه الإعجاز في الإخبار عن المغيبات، وذلك لأنها تتفق مع كل عقل، كما يمكن لكل عقل أن يدركها ويدرك وجه الإعجاز فيها، فهي لا تحتاج للغة، وإنما تحتاج للعقل والتفكير.

كما نجد المثقفين أكثر تمايلاً وطرباً عندما نعرض عليهم وجهاً من وجوه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، لا سيّما إذا كان هذا الوجه قطعي الدلالة، بيناً ظاهراً، لا يحتاج إلى الاستنباط والاستنتاج.

وذلك لأن هذا الوجه ملائم للثقافة التي يحملها أبناء العصر الحاضر، والتي أصبحت قاسماً مشتركاً بينهم جميعاً.

وإذا كان هذا شأن مجتمعنا العربي، فمن باب أولى أن يكون هذا شأن غيره من المجتمعات.

فإننا حينما نتكلم على إعجاز القرآن، لا نريد بذلك إقناع العرب فحسب، وإنما نريد إقناع العالم بأسره، من عربي وغيره، فإن هذا القرآن أنزل للبشر جميعاً، وتحدى به البشر جميعاً، في كل زمان ومكان.

ولذلك يجب علينا أن نخاطب البشر بما تستوعبه عقولهم، وإن الجوانب العلمية اليوم، من أهم ما يستهوي عقول الناس في الشرق والغرب، فإذا رأوا ما يدل على الإعجاز في كتاب الله، في جانب العلوم التي يتقنونها، هان عليهم الإيمان والتسليم، كما سنبين هذا عند الكلام على من تأثر بهذا الجانب من القرآن إن شاء الله.

إذن فالذي دفع العلماء والمفكرين المسلمين للبحث والتحقيق في جوانب

الإعجاز العلمي في القرآن، هو الواقع الذي يعيش فيه الناس، والذي صارت فيه العلوم أساس الحياة والحضارة الإنسانية.

فإذا كانت هذه العلوم كاشفة عن سر من أسرار الآيات القرآنية، ومثبتة لوجه من وجوه الإعجاز، فإننا يجب علينا أن نبحث فيها، وندل الناس عليها، ولا سيما أن القرآن نفسه حث الناس على النظر في ملكوت السموات والأرض، ومجاهل الكون والنفس، وضرب الأمثال، ليلفت نظر الناس إلى عظمة الخالق، من خلال عظمة المخلوق... وبما يتناسب مع عقولهم ومعارفهم في كل زمان ومكان.

وإني لأعتقد أن هذا الوجه من وجوه الإعجاز هو أبلغ هذه الوجوه، إذ يستطيع الإنسان في كل عصر من العصور أن يجد بغيته في كتاب الله من الإيمان بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الله.

فكلما تقدمت العلوم الإنسانية، كلما كشفت لنا عن سر جديد، لم نكن قد اطلعنا عليه من قبل.

وهذا وحده كان ليدل على أن القرآن ليس من صنع البشر، إذ يستحيل على البشر، ولو كانوا على قلب رجل واحد، وبتفكير رجل واحد، أن يوجدوا مثل هذا الكتاب الذي لم تتخلف آية واحدة من آياته على توالي الأيام، وكر السنين والأعوام..

ولكن.. هل نزل القرآن الكريم على أنه كتاب جيولوجيا، أو فلك أو غيرهما من العلوم... يبين حقيقتها، ويرسم مناهجها، ويدلل على نظرياتها..؟.

لا شك أن الجواب: لا.

نعم.. لم ينزل القرآن كتاب علوم يقرر في المدارس والجامعات، يتلقى الناس من خلاله معارفهم الكونية.

وإنما نزل القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد للبشرية الحائرة، ودستوراً ونظام حياة للإنسانية.

قال تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين﴾.

وقال: ﴿قد جاءكم مِنَ الله نورٌ وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

وقال جلّ شأنه: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

إلا أنه رغم هذا تعرض لكثير من حقائق الكون والحياة التي كانت مجهولة، إما إجمالاً، وإما تفصيلاً عند نزول القرآن، للفت نظر الإنسان إلى الكون والحياة، والاهتمام بالعلم والمعرفة، وفي نفس الوقت ليكون يوماً ما معجزة دالة على أن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الله، وذلك عندما يضع الإنسان يده على كثير من أسرار الكون والحياة والعلم والمعرفة.

(وبناء على ذلك يجب علينا حينما نعرض للإعجاز العلمي في القرآن، يجب علينا أن لا ننسى الوظيفة الأساسية التي جاء من أجلها، ألا وهي هداية البشر، ورسم المنهاج القويم، والسبيل المستقيم، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى)

فلا يجوز لنا بعد هذا أن ننحرف عن الوظيفة الأساسية لكتاب الله، ونُحملَ الآيات ما لا تطيق من المعاني العلمية التي لم تسق الآية من أجلها، ولا نزلت لبيانها، وإنما هي من أوهام القارىء، وربما انقلبت إلى ضرب من التأويل الباطني الباطل.

كما لا يجوز لنا في نفس الوقت أن نجمد على معارفنا القديمة الضيقة، وتفسيراتنا الجزئية المحدودة، المبنية على تلك المعلومات القديمة، والتي ربما كانت قاصرة، بل خاطئة في تفسير ظواهر بعض أو أكثر الجوانب العلمية التي كشف عنها العلم الحديث، مما يؤدي في النتيجة إلى فهم القرآن فهماً غير سليم في ضوء المعارف الحديثة، وفي الآيات التي لها مساس بالعلوم.

فلقد انقسم الناس في هذا الموضوع إلى فئتين، بل إلى ثلاث فئات.

الفئة الأولى: رفضت ـ بضيق أفقها وقصر معارفها ـ رفضت أن تنفتح للعلوم الحديثة المعاصرة، والتي أصبحت في كثير من حالاتها حقائق يقينية لا يجوز الإعراض عنها بحال، وجمدت على العقلية المبنية على المعارف الخاطئة القديمة، وأصرت على عدم جواز تفسير بعض آيات القرآن في ضوء المعارف الحديثة، مما أدى في بعض الحالات إلى إيجاد ثغرات خطيرة بين التفسير الذي أرادوه والحقائق العلمية اليقينية الثابتة.

كمن رفض القول بأن الأرض كروية، أو أنها تسبح في الفضاء، أو أنها تدور حول الشمس، مستدلاً بفهم خاطىء لقوله تعالى: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾، أو قوله تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾ أو قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ ـ فزعم أن هذا يتنافى مع كرويتها.

واستدل بقوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ بأن هذا يتنافى مع القول بأن الأرض تدور حول الشمس، ولا سيما وقد وردت بعض الأحاديث التي تدل على أن الشمس تسير، وأنها تسجد تحت العرش، إلى آخر ما يمكن أن يستدل به في هذا الموضوع، مما يدل بظاهره على ما ذهب إليه.

وهذا الاستدلال ناتج ـ كما ذكرت ـ عن ضيق في أفق قائله، وقلة معرفته وإطلاعه على حقائق العلم في الكون والحياة، وقصره للمدلولات اللغوية على بعض معانيها الظاهرة التي يعرفها، أو جموده على حقيقتها دون مجازها السائغ الصحيح.

وأنا لا أريد الآن أن أبين ما يجب أن يقال في مثل هذه المواطن، لأنني في معرض المثال للفئة الأولى، من الذين لم يستطيعوا أن يهضموا الحقائق العلمية، والمعارف اليقينية، فجمدوا على المعارف القديمة، بصوابها وخطئها.

وهذه الفئة لم يعد لها وجود الآن في عصرنا تقريباً، ولئن وجد من يؤمن بمنهجها فإنما هي بقية منهم وأطلال لهم... فالحقائق العلمية لا تثبت في تيارها الأوهام.

وإني اعتبر أن مثل هذا الموقف تفريط في حق القرآن، وإعراض عن الفهم الحقيقي للآيات المتعلقة بالكون والحياة، بل ربما كان سبباً لإيجاد فجوة هائلة بين الدين والعلم، مما قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه، كما حدث للكنيسة حينما حاولت أن تقف في وجه الحقائق العلمية، لتفرض على الناس أن يفكروا من خلال عقليتها القديمة المتعارضة مع حقائق العلم، زعماً منها أن هذا هو الدين، مما أدى في نهاية المطاف إلى الثورة على الكنيسة، بل على الدين المحرف الباطل الذي كانت تمثله...

إننا نحن المسلمين مدعوون في كل زمان ومكان، وبنص الشرع، إلى الاستفادة من كل حقيقة علمية، لأن ديننا دين العلم والمعرفة، ولم ولن يتعارض في يوم ما مع حقائق العلم في الكون والحياة.

وأما الفئة الثانية، فقد كانت على النقيض من الفئة الأولى فتنت بالنهضة العلمية الحديثة، ورأت الجمود الذي كان عليه بعض المسلمين، فأرادت أن تسمو بدينها وقرآنها في عصر المادة، فصارت تحمل ـ بمناسبة وغير مناسبة ـ صارت تحمل آيات القرآن على المكتشفات أو القوانين العلمية الحديثة، مما جعلها تخرج بالآيات القرآنية عن معانيها اللغوية، ومدلولاتها الشرعية، وتنحرف بها عن الغاية والهدف الساميين اللذين جاءت من أجلهما، ومما جعلها أيضاً تقع في كثير من المتناقضات.

وذلك أنها بمجرد سماعها بنظرية علمية ـ في الشرق أو الغرب ـ تعمد إلى الآيات القرآنية التي ربما كان لها مساس بالموضوع، وأخذت تتوسع في مدلولاتها بعيداً عن القوانين اللغوية والشرعية، زاعمة أن هذه الآية نطقت بهذه النظرية منذ قرون كثيرة، فإذا ما تغيّرت تلك النظرية العلمية ثانية، واستبدلت بنظرية أخرى أحدث منها وأدق، وربما كانت مخالفة للأولى تماماً، أسقط أولئك في أيديهم، وعمدوا ثانية إلى التلاعب بالآية ومعانيها ليطبقوها على النظرية الجديدة، مما جعل عملهم أشبه بالعبث منه بالدفاع عن القرآن أو إظهار إعجازه، بل ربما أوقع القرآن في تناقض خطير بسبب تأييده لنظريتين متناقضتين بدون ضابط أو قانون من لغة أو شرع.

وربما وصل الأمر ببعض أفراد هذه الفئة إلى درجة إنكار المعجزات، أو الخروج عن قوانين الشرع وقواعد اللغة التي لا تقبل التغيير والتبديل.

ونحن لا ننكر تغيير رأي العالم أو الباحث بسبب تغير النظرية، أو تطور طريقة البحث والنظر، ومن ثم تغير المعرفة، فهذا شأن الإنسان مع العلم والمعرفة، ولكننا ننكر المسارعة إلى تأويل آيات القرآن تبعاً لكل فكر حديث يطرح، أو نظرية علمية ما زالت في طور البحث والنظر - وبعيداً عن قوانين الشروع وقواعد اللغة.

إن مثل هذه المسارعة أوقع أفراد تلك الفئة بالعديد من المتناقضات، ومن ثم أوصلها إلى نقيض قصدها في إظهار إعجاز القرآن.

وهذه الفئة أيضاً كسابقتها، لم تلق التشجيع والترحيب، بل على العكس من ذلك جوبهت من قبل علماء المسلمين بالإنكار والاستهجان لهذا المسلك، فكلا جانبي الإفراط والتفريط مذموم غير محمود.

وأما الفئة الثالثة، وهي فئة جماهير علماء المسلمين، فهي فئة التوسط بين جانبي الإفراط والتفريط.

فلم تجمد هذه الفئة جمود الفئة الأولى، ولم تتهور تهور الفئة الثانية.

ولكنها عمدت إلى الآيات التي لها مساس بالعلوم، وفهمتها بناء على ضوء المعارف الحديثة اليقينية، لا الظنية، وفي نطاق قوانين الشرع العامة، وقواعد اللغة الثابتة، فرأت فيها ما يدل كل ذي عقل على أن هذا القرآن ليس من عند البشر، وإنما هو من عند الله، وإلا لما كان من الممكن قول مثل تلك الآيات في تلك القرون الخالية، التي لم يكن الإنسان عارفاً فيها شيئاً عن الحقائق العلمية الحديثة.

ولم يضرها أبداً أن تقف عند ظاهر النص القرآني إذا كانت دلالته قطعية، وإن كان يتعارض مع بعض النظريات العلمية الرائجة، جازمة بأن الخطأ في النظرية العلمية، وأن على أصحابها أن يبحثوا عن وجه الصواب في موضوعها،

وإلا فمن المحال أن يتعارض الدين مع العلم، أو القرآن مع القوانين اليقينية الثابتة.

وهذا هو الحق الذي لا يجوز لأحد أن يتعداه، والذي يجب المصير إليه، والتعويل عليه، ولا يوجد بعد الحق إلا الضلال.

فنحن ما دام الأمر العلمي لم يصل إلى درجة القانون اليقيني الثابت، وإنما هو في طور التجربة والبحث والنظر، لا يمكننا أبداً أن نجعل القرآن تبعاً لشهوات البشر وأهوائهم، ولا يمكننا أبداً أن نعبث بآيات القرآن ونتلاعب بها.

فإذا ما وصل الأمر العلمي إلى درجة القانون اليقيني، فمن المحال عند ذلك أن يتعارض مع القرآن، بل سنجده عند ذلك راكعاً على أعتاب الدين، كاشفاً لنا عن سر الآية، معترفاً بأن قائلها وصانعه ومبدعه واحد، ألا وهو الله الذي لا إله إلّا هو، وداعياً كل عاقل إلى الإيمان بهذه الحقيقة.

وعند ذلك يجب علينا أن نستفيد من هذه المعارف الحديثة اليقينية، وأن نستغلها من أجل إظهار الحقيقة، وبيان الإعجاز القرآني الذي يخفى على كثير من الناس، من مسلمين وغيرهم.

فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها التقطها.. والقرآن أنزل معجزة لكل زمان وجيل ومكان، ولم يكن إعجازه قاصراً على الجيل الأول، - كما بينا سابقاً - ولذلك كان لا بد لهذا الجيل المعاصر أن يجد في القرآن المعجزة، ولئن فاته الوقوف عليها عن طريق اللغة، فلن يفوته الوقوف عليها عن طريق العلوم المعاصرة.

كما أن أهل الأجيال القادمة سوف يجدون فيه الإعجاز، ولكن لا ندري كيف سيكون ذلك.

ربما كان عن بعض الطرق التي نعرفها اليوم، وربما كان عن بعض الطرق التي سيعرفها إنسان المستقبل وهي خافية علينا الآن، ولا يجوز لأي إنسان أن يمنع مثل هذا ما دام خاضعاً للضوابط العلمية السابقة التي ذكرناها، من قوانين الشرع وقواعد اللغة.

هل الإعجاز العلمي وليد العصر الحديث؟

إن السؤال الذي سيطرح نفسه الآن بعد هذه المقدمة التي قدمناها، هو: هل الإعجاز العلمي في القرآن وليد العلوم والمكتشفات الحديثة، وكان خافياً قبل هذا على علماء المسلمين، كما زعم بعض الكاتبين؟.

والجواب اليقيني على مثل هذا التساؤل: لا، وذلك يدرك بأدنى تأمل في كتاب الله..

فإن القرآن الكريم في أول الآيات التي نزلت منه إلى الأرض.. قد اهتم بالعلم، فأمر به، وحثّ عليه، ورفع مرتبة العلماء حتى جعلهم ورثة الأنبياء.

ولم يقتصر الأمر بالعلم على العلوم الشرعية، بل تعداها إلى العلوم الكونية والعقلية، إذ أمر القرآن بالنظر في ملكوت السموات والأرض، كما أمر بالتبصر في علوم الكون والنفس، ليهتدي الناس من خلال النظر السليم إلى الخالق العظيم.

فقال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون﴾ (سورة البقرة: آية ١١٤).

وقال تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ (سورة يونس: آية ١٠١).

وقال جلّ شأنه: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

وقال: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم، أفلا تبصرون﴾.

فهذه الآيات، وأمثالها، مما يعسر حصره، ليست فقط مجيزة للنظر، بل هي آمرة به، حاثة عليه، ولو لم يكن الله مريداً أن يستفيد عباده من معالم الكون

والحياة، مما يحدو بهم إلى الإيمان السليم، لما أمرهم بهذا النظر، ولما حثّهم حثّاً دائباً عليه.

ولذلك انكبّ علماء المسلمين على العلوم فأتقنوها، وبلغوا بها إلى الذروة العليا، وحاولوا جاهدين وفي كثير من المواطن أن يربطوا بين ما توصلوا إليه من القوانين العلمية، وبين بعض آيات القرآن التي لها مساس بالعلم، وأثبتوا كما نثبت نحن اليوم أن القرآن كشف عن تلك القوانين قبل معرفتها بمئات السنين، ليستدلوا من خلال هذا على الإعجاز القرآني في جانب العلم، وليثبتوا أن هذا القرآن من كلام الله، لا من كلام البشر.

إلا أنهم لم يتمكنوا مما تمكنا منه نحن اليوم في ميدان العلوم والمكتشفات والمخترعات، ولذلك قل خوضهم في هذا الجانب من الإعجاز، فلما جاء العصر الحديث، بعلومه ومكتشفاته، وضعنا أيدينا على كثير من المعاني التي كنا نجهلها في الماضي، والتي وردت في آيات القرآن تصريحاً أو تلميحاً.

ولذلك كنا كمن كشف عنه الغطاء، فأدرك من الحقائق ما لم يكن يعرفه، وفي بعض الحالات ما لم يكن يتوقعه، فكثر خوضهم في هذا الجانب من الإعجاز لما وجدوا فيه من الدلالة القاطعة على ما يرمي إليه من أمر الدين والعقيدة والخالق جل شأنه.

كيفية الوقوف على وجه الاعجاز في الآيات:

وأما كيفية الوقوف على وجه الإعجاز العلمي في القرآن، مما نثبت معه أن هذا القرآن من كلام الله، وليس من صنع البشر، فنستطيع أن نلخصه إجمالاً بما يلي:

لقد نزلت آيات القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ قبل أربعة عشر قرناً من الزمان.. وفي عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة والكون والحياة إلا القليل النادر، وكان يعتقد الكثير من العقائد الباطلة عن الكون والحياة.

فكان يعتقد أن الأمطار تنزل من ثقوب في السماء.

وأن الأرض مستطيلة مستوية، أو أنها محاطة بماء يغلي.

كما كان يعتقد أن السماء سقف للأرض، وأن النجوم التي فيها مسامير لامعة من الذهب أو الفضة، وأنها معلقة بقبة السماء بسلاسل ذهبية.

وأن الأرض ثابتة لا تتحرك.. وأنها على قرن ثور، فإذا ما تعب قرنه من ثقلها نقلها إلى قرنه الآخر، فأحدث الدمار بما يحدثه من الزلازل، إلى آخر ما هناك من المعتقدات الخاطئة التي كانت تسود ذلك العصر، إلى جانب بعض المعارف البسيطة الأخرى.

فجاء القرآن في خضم تلك المعتقدات... وكان من المفترض أن يتكلم القرآن بنفس الأساليب والمعتقدات التي يعتقدها الناس في ذلك الوقت، فيما لو كان القرآن من صنع البشر وكلامهم، كما هو المتوقع والمعروف.

إلا أن القرآن لم يخض أبداً في مثل تلك الخرافات، بل جاء على خلافها، فأثبت أن الأرض كوكب سابح في الفضاء، فليست على قرن ثور.

وأن الأمطار تنزل من السحاب، وأن السحاب يجتمع بفعل الرياح، وأنه بفعل اجتماعه يخرج البرق.

إلى آخر ما هنالك من الآيات التي نزلت مخالفة لما كان سائداً في ذلك العصر، ولعصور طويلة بعده، والتي جاء العلم الحديث، فأثبت بالبراهين اليقينية ما أخبر به القرآن قبل قرون طويلة، مخالفاً لكل اعتقاد البشر، على ما سنذكره في الفقرات القادمة إن شاء الله.

فلو كان القرآن من صنع محمد ﷺ لكان من المستحيل أن يصدر عنه مثل هذا الكلام الذي كان يجهله أهل عصره، بل كانوا يعتقدون خلافه، والذي يعتبر تصحيحاً لمعتقداتهم وعلومهم، مطابقاً للواقع الحقيقي الذي كشف عنه العلم الحديث بالبراهين اليقينية، بعد أن بذل الإنسان في سبيل الوصول إليه النفس والنفيس، وأمضى في الطريق إليه الأيام والدهور والأعوام..

خوض القرآن فيما لم يكن الإنسان يعرف عنه شيئاً:

ولم يقتصر القرآن في العلوم التي تكلم عنها على جانب ما كان يعرفه الناس في ذلك العصر، مصححاً لمعتقدات الناس فيه، أو مفصلاً لما كان مجملاً منه، بل تعدى هذا فتكلم في آيات كثيرة على أنواع أخرى من العلوم التي لم يكن يعرف الإنسان عنها شيئاً ألبتة في ذلك العصر، مما أثار دهشته، وجعله يؤمن بها إيماناً غيبياً، دون أن يعرف الحقيقة التي تنبني عليها، كاشتعال الماء مثلاً، إلى أن جاء العلم الحديث، فأثبت هذه الحقيقة العلمية على نحو ما أخبر به القرآن، مما لفت نظر الإنسان ثانية، وجعله يؤمن أنه من المستحيل أن يكون هذا الكلام من كلام البشر، لأنه لم يكن يعرف عن هذه الحقيقة العلمية إبان نزول القرآن شيئاً، ولم يكن له سبيل أبداً إلى إدراكها.

إذن فلا بدّ أن يكون هذا الكلام من قبل عالم السر والعلن، وخالق الإنسان والمادة، والكون والحياة، ولذلك أخبر بما علم مما خلق.

لقد امتلأ القرآن بالإخبار عن العلوم، مما كان يعرف الإنسان منه الشيء البسيط، ومما كان لا يعرف عنه شيئاً أبداً، ومما يعرفه على خلاف ما أخبر به القرآن، كما سنبينه في القريب إن شاء الله.

ولا شك أن هذا قد لفت نظر الذين تحداهم القرآن أن يثبتوا فيه تناقضاً أو خلفاً، مما جعلهم يتربصون به الدوائر، قديماً وحديثاً.

وكان الناس قديماً، وما زالوا حديثاً، يطرحون نظرياتهم العلمية التي يبحثون من خلالها عن أسرار الكون والحياة.

وتقدم العلم، وزادت قوة المشاهدة عند الإنسان، وتشعبت معارفه ومدركاته، وتغير كثير من النظريات القديمة التي طرحت في سبيل الكشف عن الحقيقة، وما زالت في كل يوم تتغير وتتبدل.

وهذا يدلنا دلالة قاطعة، على أنه لا وجود لكلام إنساني تدوم صحته كلياً، دون تبديل، أو تغيير، أو تصحيح.

لأن الإنسان يتكلم عما هـو معروف من المعتقدات والعلوم في عصـره، ولذلك لو ألقينا نظرة سريعة على كل الكتب القديمـة التي صنفت في مضمار العلوم، لوجدناها إلى جانب ما حوته من الصحة، مليئة بالأخطاء العلمية، وفي جميع جوانب العلم، إذا ما قارناها بكشوفنا الجديدة ونظرياتنا الحديثة.

ولكن القرآن الكريم لم يكن أبداً كهذه الكتب، ولم يكن خاضعاً لهذه الحقيقة، بل كان على خلافها تماماً، فهو حق وصادق في كل ما قاله وأخبر عنه، كما كان في الزمن الماضي، فلم يطرأ على مقاله أي تغيير أو تصحيح، ورغم تقدم العلوم، وكثرة المكتشفات، وظهور الأسرار، لم يتمكن أحد من أهل الأرض جميعاً أن يثبت خطأ القرآن في حرف واحد مما قاله في جانب من جوانب العلوم الكثيرة التي خاض فيها، أو أشار إليها.

ولو كان القرآن صادراً عن بشر، محدود العلم والنظر، لكان شأنه شأن جميع الكتب، ولأثبتت العلوم المتطورة بطلان الكثير من كلماته وأخباره وقوانينه.

إن الإنسان حينما يكون جاهلاً، أو ناقص المعلومات حول موضوع ما، فإنه لا يتكلم فيه، إلا أنه إذا تجرأ على الكلام وتكلم، كان لا بدّ له أن يقع في كثير من الأخطاء في كلامه، كما حدث ذلـك لكل من فعـل مثل هـذا، من العباقرة وغيرهم، وكما يحدث لأمثالهم في كل زمان ومكان.

وعلى سبيل المثال نذكـر ما قـاله أرسـطو استدلالاً عـلى أسبقية الـرجل للمرأة، إذ قال:

«إن فم المرأة يحوي أسناناً أقل عدداً من أسنان الرجل».

إلّا أن هذا الكلام لا علاقة له بعلم الأجسام، بـل هو يـدل على أن صاحبه جاهل بهذا العلم.

على أن عدد الأسنان عند الرجل والمرأة سواء كما هو معروف[1].

---

(١) الإسلام يتحدى: ص ١٩٢.

ونحن لا نريد بهذا أن نطعن في علم أرسطو وفلسفته، ولكننا نريد أن نبين أن الإنسان مهما أوتي من الذكاء والدهاء، والعبقرية والعلم، ثم أراد أن يخوض في فن غير فنه أتى بالعجائب.

فكيف بالإنسان الأمي إذا أراد أن يخوض في كل العلوم والفنون. إنه لا بدّ له أن يقع في كثير من المتناقضات والأوهام.

إلا أنه وكما ذكرت قبل قليل، لم يتمكن أحد من أهل الأرض جميعاً أن يوجد في القرآن تناقضاً واحداً، في كل ما خاض فيه من فنون العلم، وسبل المعرفة، رغم تقدم العلوم، وتطاول الزمان، بل كان الأمر على خلاف ذلك، إذ كان العلم في نهاية مطافه مصدقاً للقرآن في كل ما أتى به، وراكعاً بين يديه.

إذاً فلا بدّ أن يكون قائل هذا الكلام محيطاً بكل علم تكلم فيه، وإحاطته به إحاطة يقينية جازمة، لا يعتريها نقص أو تخلف، لا سيما أنه تكلم بها في الزمن الذي لم يكن أحد من أهل الأرض يعلم عنها شيئاً، لا كثيراً ولا يسيراً.

إنه الله الذي لا إله إلّا هو أحاط بكل شيء علماً.

وبهذا الأسلوب المنطقي من الاستدلال أثبتنا إعجاز القرآن العلمي إجمالاً، وسنثبته إن شاء الله تفصيلاً.

ومن أجل هذا آمن كثير من الناس قديماً وحديثاً، آمنوا بالله، وأثبتوا في طريق إيمانهم شهاداتهم واعترافاتهم بأنهم ما آمنوا إلا من خلال مثل هذه المعجزات العلمية في القرآن، على أن كثيراً منهم كان من كبار علماء الكون والحياة، وربما كان يوماً ما من دعاة الإلحاد، ومن ذلك:

شهادة السير جيمس جنز:

في سياق إثبات شهادة كبار علماء الكون الذين تأثروا بالإعجاز العلمي في القرآن، يجدر بنا أن نذكر هذه الحادثة العظيمة المدهشة، التي نقلها العلامة الهندي الشهير المرحوم «عناية الله المشرقي» الذي كان يعتبر من أعظم علماء الهند

في الطبيعة والرياضيات، والذي كان يتمتع بشهرة عظيمة في الغرب، لاكتشافاته العديدة، وأفكاره الجديدة، وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية، وعرضت عليه جائزة نوبل فرفضها.

يقول العلامة الدكتور المشرقي:

«كان ذلك يوم الأحد، من أيام سنة ١٩٠٩، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جنز ـ الأستاذ بجامعة كامبردج ـ ذاهباً إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه، وسلمت عليه، فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: أمرين يا سيدي.

الأول: هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر، فابتسم السير جيمس، وفتح شمسيته على الفور.

فقلت له: وأما الآخر، فهو: ما الذي يدفع رجلاً شائع الصيت في العالم ـ مثلك ـ أن يتوجه إلى الكنيسة؟؟.

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي.

وعندما وصلت إلى داره في المساء خرجت «ليدي جيمس» في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني.

وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أوراق الشاي، وكان البروفسور منهمكاً في أفكاره.

وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك..؟.

ودون أن ينتظر ردي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش. وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها، ومداراتها،

وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى أنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله.

وأما السير جيمس، فوجدت شعر رأسه قائماً، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة ثم بدأ يقول:

يا عناية الله! عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله، يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له: إنك عظيم، أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة.

أفهمت يا عناية الله خان لماذا أذهب إلى الكنيسة..؟

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفاناً في عقلي، وقلت له: يا سيدي.. لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم..؟.

فهز رأسه قائلاً: بكل سرور.

فقرأت عليه الآية التالية:

﴿ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلف ألوانها، وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (سورة فاطر: آية ٢٧).

فصرخ السير جيمس قائلاً: ماذا قلت..؟ ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾... مدهش، وغريب، وعجيب جداً..!!!.

إنه الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به..؟.

هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟.

لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن موحى به من عند الله.

ويستطرد السير جيمس قائلاً:

لقد كان محمد أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر، مدهش، وغريب، وعجيب جداً[1]...

نعم.. إنه لأمر مدهش، وعجيب وغريب جداً، أن نجد أمياً، لا يعرف قراءة ولا كتابة، ولم يدرس فلكاً، ولا طباً، ولا هندسة، وفي عصر انتشرت فيه الخرافة، وشاعت الكهانة، وهو مع هذا ينطق بكلام يتعلق بكل شأن من شؤون الكون، والحياة، والنفس الإنسانية، وبأوضح العبارات وأفصحها، وبأسلوب يفهمه الإنسان المعاصر له، وإن كان في بعض الحالات لا يستطيع إدراك حقيقته وسره.

يتكلم على نشأة الكون والأرض والسماء، وسير الكواكب والأفلاك، وتكوين الجبال والبحار، وأساس الحياة وسرها، وتطور الجنين ونموه، وتكاثف السحاب، وسقوط الأمطار، وتمدد الكون، ويخبر عن الغيب، غيب الماضي والمستقبل، ويضع أعظم الأسس في الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والفكرية، ثم مع كل هذا لا يتمكن واحد من أهل الأرض جميعاً أن يوجد أمراً واحداً يتناقض مع العلم وهو في ذروة سلطانه ومجده، بل يجد كل ما قاله في ذلك العصر قد جاء العلم الحديث ليقره، ويعترف بأحقيته وسبقه.

ألا يدل كل هذا على أن هذا الكلام يستحيل أن يكون من كلام البشر..؟!.

لقد كان فلاسفة الإلحاد في العصر الحديث يتوقعون أن تتفجر كل المعتقدات القديمة بتفجير الذرة، ولنستمع إلى جوليان هكسلي وهو يتكلم عن هذا الموضوع فيقول:

«تعتبر التطورات العلمية التي حدثت في القرن الماضي انفجاراً معرفياً في وجه الأساطير الإنسانية عن الآلهة والدين، كما تفجرت الأفكار القديمة ونسفت بمجرد تفجير الذرة».

---

(١) الإسلام يتحدى: ص ٢١٠.

نعم هكذا كان يتوقع فلاسفة الإلحاد، ولا سيما أنهم يعرفون أن محمداً ﷺ كان أمياً، وهم في ذروة غرورهم العلمي، ولكن جاء العلم لا ليثبت توقعهم، بل ليذهلهم، إذ كشف لهم عن أخطر سر كانوا لا يتوقعونه، ألا وهو أن كل ما جرى على لسان ذلك الأمي ﷺ كان نهاية الطريق الطويل الذي تعثرت به البشرية آلاف السنين، حتى وصلت إليه في هذا القرن، في عصر العلم والمعرفة.

نعم.. لقد كشف لهم عما لم يتوقعوه ألا وهو أنهم رغم الأحقاد الدفينة في صدورهم، لم يتمكنوا أن يجدوا تناقضاً واحداً، أو خطأ واحداً مما قاله ذلك الأميّ منذ أربعة عشر قرناً، وفي أخص خصائص العلم، وأدق مباحثه، مما جعل كثيراً منهم يذعن رغم أنفه للحقيقة، ويعلن أن هذا الكلام إنما هو كلام الله المحيط بكل شيء علماً، ومن المحال أن يكون من كلام البشر.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

الاعجاز العلمي في القران يلفت نظر الباحثين من غير المسلمين:

لم تقتصر دراسات الإعجاز العلمي للقرآن على المسلمين فحسب، بل تجاوزتها إلى غيرهم من الباحثين، من مستشرقين وغيرهم، ولا سيما أولئك الذين لهم صلة بالكتب المقدسة، إذ أصبحوا على يقين بأن بعض ما ورد في الكتب السماوية المقدسة عندهم، قد أيده العلم، وجاء على وفقه، رغم ما في تلك الكتب من التغيير والتحريف، والتبديل والتزييف، مما يدل على أن أصل تلك الكتب من قول الله، وليس من قول البشر.

لقد وقع هذا رغم ما في كتبهم من التحريف.. فكيف يكون الحال لو لم تحرف..؟ لا بد أنهم كانوا سيجدون فيها كثيراً من الحقائق التي تعبوا في سبيل الوصول إليها.

ولذلك التفت نظرهم إلى القرآن، لما يعلمونه عنه من الصحة في نقله

متواتراً، كما أنزله الله على نبيه عليه الصلاة والسلام، فلم تمسه يد تحريف ولا تزييف، ودون أن يكون في هذه الحقيقة نزاع أو اختلاف.

ولنضرب على ذلك مثالاً لما وجدوه في الإنجيل، ثم نرجع للكلام عما قالوه في القرآن وعلموه منه، وأترك الكلام للأستاذ وحيد الدين خان في كتابه «الإسلام يتحدى» إذ يقول:

كانت بعثة لطلبة الصين تدرس في كاليفورنيا منذ بضع سنين[1] وقد ذهب إثنا عشر من هؤلاء الطلبة إلى كاهن كنيسة «بركلي» طالبين منه أن ينظم لهم دراسة حول الدين المسيحي في أيام الأحد.

وقالوا له بكل صراحة: إننا غير راغبين في اعتناق المسيحية، ولكننا نريد أن نعرف مدى تأثير هذا الدين على الحضارة الأمريكية.

واختار القسيس عالماً في الرياضيات والفلك هو البروفسور «بيتر د. ستونر» للتدريس لأولئك الشبان.

وبعد أربعة أشهر من هذا الواقع اعتنقوا الدين المسيحي!!.

أما الدوافع وراء هذا العمل المدهش فلنسمعها من الأستاذ نفسه إذ يقول:

«لقد كان السؤال الأول أمامي، ماذا أقول لهم عن الدين؟ إنهم لا يؤمنون بالإنجيل إطلاقاً، وتدريس الإنجيل على الطريقة التقليدية لن يأتي بفائدة ما، وفي ذلك الوقت تذكرت أني أثناء دراستي كنت ألاحظ علاقة كبيرة بين العلوم الحديثة وسفر التكوين في الإنجيل ولذلك رأيت أن أعرض هذا الكلام أمام هذه الجماعة من الشباب.

وكنا أنا والطلبة نعرف بطبيعة الحال أن ما جاء في هذا الكتاب عن بدء الكون قد كتب قبل آلاف السنين من كشوف العلوم الحديثة عن الأرض والسماء، وكنا نشعر كذلك أن أفكار الناس في زمن موسى ستبدو لغواً باطلاً لو درسناها في ضوء معلومات العصر الحاضر.

---

(١) في الستينيات.

وقد أمضينا فترة الشتاء كلها ندرس في سفر التكوين، وكان الطلبة يكتبون الأسئلة حول ما جاء في السفر، ثم يبحثون عن أجوبتها بكل جهد في مكتبة الجامعة.

وعند انتهاء الشتاء أخبرني القسيس أن الطلبة حضروا إليه ليخبروه أنهم يريدون اعتناق المسيحية، وقد أقروا أنه ثبت لهم أن الإنجيل كتاب موحى من عند الله».

يقول الأستاذ خان: وعلى سبيل المثال يقول سفر التكوين عن حالة الأرض في بداية الأمر: «لقد غشي على الأغوار ظلام».

وهذا أحسن تصوير للحالة التي وجدت في الأرض في ذلك الوقت، كما عرفناها من العلوم الحديثة، فكان سطح الأرض حاراً جداً، وتبخرت المياه بسبب هذه الحرارة، ولم يصل النور إلى سطح الأرض، لأن مياه بحارنا كانت معلقة في صورة سحب كثيفة في الفضاء، وكان ظلام حالك يسود الأرض.

ثم يستطرد الأستاذ خان ويقول: إننا نؤمن بأن الإنجيل والتوراة من الكتب الإلهية، كالقرآن الكريم، ولذلك توجد فيها قبسات من العلم الإلهي، ولكن النصوص الأصلية قد ضاعت، وطرأ فارق كبير بين الإنجيل الحقيقي وإنجيل هذا العصر، بعد مضي ألف عام حافلة بعمليات الترجمة من لغة إلى أخرى، ثم بأعمال التحريف البشري الذي أصاب النسخة الإلهية أكثر ما أصاب على حد تعبير العالم الأمريكي «كريستي موريسون».

ولما كانت هذه الصحائف قد فقدت قيمتها نتيجة لما حدث، فقد أرسل الله تعالى «طبعة جديدة» من كتابه إلى البشر ـ على حد تعبير الأستاذ خان ـ وهذا الكتاب هو القرآن الكريم، وهو يحمل من أجل صحته وكماله، كل المميزات والخصائص التي لا توجد منها إلا لمحات في الكتب القديمة»[1] اهـ.

---

(١) الإسلام يتحدى: ص ١٩٢.

فهذه إشارات بسيطة إلى بعض الحقائق العلمية الحديثة، عثر عليها أولئك الطلبة أثناء دراستهم لسفر التكوين، جعلتهم يعترفون بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وأنه من كلام الله، رغم إيمانهم العميق بما في تلك الكتب من التغيير والتحريف والتبديل.

فكيف بهم إذاً وبأمثالهم لو وقفوا أمام آيات القرآن الكريم التي لم تمسها يد تحريف أو تغيير، بل نقلت إلينا متواترة قطعية، غضة طريّة، وكأننا نتلقاها عن رسول الله ﷺ مباشرة..؟!.

لا بدّ أنهم سيجدون فيه ما تطمئن له قلوبهم، وتستريح به نفوسهم، من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، على أنه من كلام الله.

ولذلك التفت نظر كثير من الباحثين والعلماء إلى كتاب الله يدرسونه ويتعمقون في فهم ما فيه من الآيات التي لها علاقة بالكون والحياة، لعلهم يختصرون الطريق من خلالها إلى نهاية آمالهم في الوقوف على حقائق العلوم.

موريس بوكاي ونظراته في الاعجاز العلمي في القرآن:

إن من أهم ما صدر من الدراسات القرانية، ولا سيّما فيما يتعلق بالآيات التي لها مساس بالعلوم مما يستدل به على إعجاز القرآن، وأنه من كلام الله، هو ما كتبه المستشرق «موريس بوكاي» في كتابه «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة».

ونحن سوف لا نستطيع في مثل هذه العجالة أن نذكر كل ما في الكتاب، ولكننا سنشير إن شاء الله إلى أهم الفقرات فيه، مما له علاقة بموضوعنا.

يقول موريس بوكاي: لقد تناولت القرآن منتبهاً بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظاهرات الطبيعية، ولقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات.

لقد أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن هذه الظاهرات

نفسها، والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يُكوّنَ عنها أدنى فكرة.

إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص أول مرة، هو ثراء الموضوعات المعالجة.

فهناك الخلق.
وعلم الفلك.
وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض.
وعالم الحيوان.
وعالم النبات.
والتناسل الإنساني.

وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة، لا نكتشف في القرآن أي خطأ.

وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، فكيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق مع المعارف العلمية الحديثة؟.

ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم، هو فعلاً النص الأول نفسه.

فما التعليل الذي يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة؟.

ثم يقول: في رأيي ليس هناك أي تعليل، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان جزيرة العرب، في العصر الذي كانت تخضع فيه فرنسا للملك داجوبرت Dagopert استطاع أن يحظى بثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية، فيما يخص بعض الموضوعات. ص/١٤٥.

ومعظم المقولات العلمية الموصى بها، أو المصاغة بشكل بيّن تماماً في القرآن، لم تلق التأييد إلا في العصر الحديث.

وإن الثقافة اللغوية لا تكفي لتفسير بعض آيات القرآن، ولا بد من ثقافة انسكلوبيدية تقع على عاتق عدة تخصصات، ولذلك أخطأ القدماء في فهم هذه الآيات. ص/١٤٦.

ثم قال: إنه احتفظ بعدد من الآيات أقل من الذي اختاره العلماء المسلمون لدراسة جوانبها العلمية، وأنه في مقابل ذلك، أبرز بعض آيات لم تعط لها من قبل الانتباهة التي تستحق من وجهة النظر العلمية.

ثم بحث ما إذا كان في القرآن إشارات إلى ظاهرات يسهل على الإدراك البشري فهمها، وإن لم تكن قد تلقت بعد توكيداً من العلم الحديث، فوجد أن القرآن يحتوي على إشارات بوجود كواكب في الكون تشبه الأرض، وقال: إن كثيراً من العلماء يرون ذلك معقولاً تماماً، دون معطيات حديثة لتوكيد ذلك.

وقال: إنه لو قام بدراسة كهذه منذ ثلاثين عاماً، لوجد أن القرآن قد صرح بغزو الفضاء، ففي ذلك الوقت كان معروفاً أن هنالك آية قرآنية تتنبأ بأن الإنسان سيحقق هذا النصر ذات يوم، وقد تم الآن التأكد من هذا. ص/١٤٧.

ثم تكلم عن مسألة تغير النظرية العلمية، وما يكون لذلك من الأثر على تفسير النص القرآني فقال:

إن ما تحدث به بعضهم من أن العلم متغير مع الزمن، وأن ما يمكن قبوله اليوم قد يرفض غداً. يتطلب التعديل..، فيجب التفريق بين النظرية العلمية، وبين الفعل موضوع الملاحظة، فالنظرية العلمية يمكن أن يستغنى عنها بما هو أكمل منها وأصح، لتفسير الظاهرة، ولكن الفعل موضوع الملاحظة يبقى قائماً، وقد يمكن تعريف سماته بشكل أحسن، ولكنه يظل على ما كان عليه قبل.

فدوران الأرض حول الشمس، والقمر حول الأرض، يبقى فعلاً واقعاً قائماً، ولن نرجع عنه أبداً، ولكن قد يمكن في المستقبل تحديد المدارات بشكل أحسن. ص/١٤٨.

ثم قال: إن تبصري بالطابع المتغير للنظريات، جعلني استبعد آية قرآنية، ظن عالم فيزيائي مسلم أنها تعلن عن مفهوم ضد المادة، وتلك نظرية مثار جدل حالياً، على حين يمكن منح كل الانتباه لآية قرآنية تذكر الأصل المائي للحياة، وتلك ظاهرة، وإن كنا لم نقدر على التحقق منها، فهناك برغم ذلك عدة حجج تشهد في صالحها، وتطور الجنين البشري، وهو خاضع للملاحظة، يمكن فيه مقابلة المراحل الموصوفة في القرآن مع معطيات علم الأجنة الحديث، لنكشف اتفاق الآيات القرآنية التام مع العلم. ص/١٤٨.

ثم قام بمقابلة مسألتي الخلق والطوفان بين القرآن والعلم، والتوراة والعلم، فوجد أن العلم لم يتفق مع التوراة، بينما وجد العلم قد اتفق مع القرآن اتفاقاً كاملاً، ولذلك قبل نص القرآن علمياً، ورفض نص التوراة.

ورفض نتيجة لذلك تهمة أن النبي ﷺ استكتب القرآن محاكياً التوارة.. ص/١٤٩.

كما رفض الفرية القائلة بأن محمداً ﷺ هو الذي ألف القرآن، وتساءل: كيف يكون النبي أمياً ويأتي بحقائق ذات طابع علمي لا ينتمي إلى عصره؟.

ومن ثم أبدى رأيه الصريح وهو أنه ليس من تفسير وصفي للقرآن، فهو من عند الله، وأنه صحيح صحة لا تقبل الجدل، وله ـ لذلك ـ مكانة خاصة بين الكتب المنزلة، لأنه لا يشاركه في صحته التوراة ولا الإنجيل أبداً.. ص/١٥١.

ثم انتقل موريس بوكاي في كتابه إلى عرض بعض الآيات القرآنية، وما يستفاد منها، مما يدل على ماذكرناه.

وإني موجز بعض ما قاله فيما يلي، على أن أعود إلى تفاصيله عند الكلام على تلك الآيات بالتفصيل.

فتكلم أولاً على خلق السموات والأرض، فبين نقاط الخلاف والتجانس، بين روايات التوراة وآيات القرآن.

فاستنتج أن القرآن أطلق الدخان على الكتلة السديمية، وهي الكتلة الغازية ذات الجزئيات في قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾.

وأشار إلى عملية الفتق بعد الرتق للكتلة الفريدة الأولى في قوله تعالى: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾.

وذكر أن القرآن فرق بين وصف الشمس والقمر، فوصف الشمس بالسراج الوهاج، والقمر بالنور، وأوضح أن وصف الشمس يراد منه أنها مصدر إشعاع، وأن وصف القمر بالنور يراد منه أنه مظلم في نفسه يتلقى الضوء ويعكسه نوراً.

وقال: إن مما يثير دهشة القارىء هو الآيات التي تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات:

١ ـ تلك التي توجد في السماء.
٢ ـ تلك التي توجد على الأرض.
٣ ـ تلك التي توجد بين السماء والأرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿له ما في السموات، وما في الأرض، وما بينهما، وما تحت الثرى﴾.

وقال: إن شيئاً آخر يثير دهشة القارىء، وهو أن القرآن يشير إلى وجود كواكب كالأرض: إذ قال: ﴿الله الذي خلق سبع سموات، ومن الأرض مثلهن، يتنزل الأمر بينهن، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾.

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض في ستة أيام وما مسنا من لُغُوب﴾.

وقال: إن في هذه الآية رد على التوراة التي تزعم أن الله تعب بعد عملية الخلق فاستراح في اليوم السابع.

وينتهي بعد عرض آيات الخلق إلى خمس نقاط يستنتجها، وهي:

١ ـ وجود ست مراحل للخلق عموماً.

٢ ـ تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض.
٣ ـ خلق الكون من كومة أولية فريدة كانت مجتمعة فتفصلت.
٤ ـ تعدد السموات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض.
٥ ـ وجود خلق وسيط بين السموات والأرض.

وتكلم على كل نقطة من هذه النقاط بما يلائمها من العلوم الحديثة.

ثم قال: إذا كانت المسائل التي تطرحها آيات القرآن لم تتلق تماماً حتى يومنا هذا توكيداً من المعطيات العلمية، فإنه لا يوجد على أي حال أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق، وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون، وذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن.

على حين أنه قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم الذي نملكه اليوم، قد أعطى عن هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية.

ونحن لا ندهش لذلك، إذا علمنا أن النص الأكثر تفصيلية عن رواية الخلق في التوراة قد كتب بأقلام كهنة عصر النفي إلى بابل، وقد كان لهم الأهداف التشريعية، فاصطفوا لتلك الأهداف رواية تتفق ونظراتهم اللاهوتية.

وأن نص الكهنة هذا يحجب السطور القليلة من الرواية الأخرى المسماة باليهودية، فهي من الإيجاز والغموض بما لا يسمح لعقل علمي أن يأخذها في اعتباره.

إن وجود هذا الاختلاف بين رواية التوراة والمعطيات القرآنية عن الخلق، جدير بالتنويه، أمام الاتهامات التي لم توفر على محمد ﷺ منذ بدايات الإسلام. والتي تقول: إن محمداً قد نقل روايات التوراة فيما يتعلق بموضوع الخلق.

فإن الاتهامات لا تتمتع بأي أساس، فكيف كان يمكن لإنسان منذ أربعة عشر قرناً أن يصحح إلى هذا الحد الرواية الشائعة في ذلك العصر، وذلك باستبعاد أخطاء علمية، وبالتصريح بمبادرته وحده بمعطيات أثبت العلم أخيراً صحتها في عصرنا.

هذا فرض لا يمكن الدفاع عنه، إن القرآن يعطي عن الخلق رواية تختلف تماماً عن رواية التوراة.

ثم يرد على بعض الاعتراضات التي اتهم بها النبي ﷺ، كأخذه عن الربانية، أو عن راهب مسيحي علمه، وكذلك يدحض ما قيل من أن أمما أخرى جاء في أساطيرها روايات مشابهة عن الخلق. ص/١٦٧ ـ ١٧٥.

ثم انتقل إلى الكلام على علم الفلك في القرآن فقال: إن القرآن يأتي بالإضافة إلى آيات الخلق بآيات هي تأملات في عظمة الخالق، وأن التوراة والإنجيل لم يعالجا ترتيب الكون، وإن القرآن انفرد بذلك.

ولم يأخذ القرآن بالنظريات السائدة في عصره، وكانت مخطئة، ويعطي لهذا الجانب السلبي أهمية وشأناً ـ فهو يدل على عدم تأثر القرآن بخطأ ذلك العصر العلمي ـ ويدحض بذلك قول من ينسب إلى النبي أنه أخذ معلوماته عن العرب الذين كانوا متقدمين في هذا الفن.

ويضيف إلى حجته أن العرب إنما تقدموا في علم الفلك بعد عهد النبي لا قبله.

وعلى هذا النحو يستطرد المؤلف في تتبع آيات القرآن آية آية إلى أن يأتي على الآيات التي لها مساس بالعلم من قريب أو بعيد، ويؤكد من خلالها أن هذا القرآن وحي من الله، وليس من صنع البشر.

ونحن نكتفي بهذا القدر الذي أوردناه لمكان الشاهد فيه، وهو التفات نظر المفكرين والباحثين إلى القرآن لما فيه من إشارات علمية باهرة، قد توفر على العالم البحث لمئات السنين... وذلك بسبب مشاهداتهم للمطابقة بين آيات القرآن والواقع العلمي المعاصر، الذي لم يجد في نهاية مطافه إلا أن يعترف بأنه جاء مؤكداً لمضمون تلك الآيات، ليدل على أنها من قول الله.


مكتبة المهتدين الإسلامية

الإيات القرانية والاعجاز العلمي فيها

إننا بعد تلك المقدمة الوجيزة التي ذكرناها حول فكرة الإعجاز العلمي لآيات القرآن، وما كان لها من أثر في لفت أنظار الباحثين والمفكرين، من المسلمين وغيرهم، يجدر بنا أن ننتقل إلى صلب الموضوع فنقول:

إننا نستطيع أن نقسم الآيات التي لها علاقة بالعلوم، وتظهر فيها سمات الإعجاز - إلى قسمين:

القسم الأول: كان الإنسان يعرف عنه بعض الشيء حينما نزل القرآن، ولكن معرفته عنه كانت سطحية، وساذجة بدائية، لا تعدو المشاهدة والاستغراب، وربما صاحبتها بعض التعليلات الخاطئة، التي كانت تستوحى من معارف العصر وثقافته.

والقسم الثاني: كان الإنسان في عماية كاملة عنه، وجهالة تامة به، ما كان يعرفه، ولا يتصوره، ومع ذلك أخبر القرآن عنه قبل كشفه بقرون طويلة على ما يوافق المعارف الحديثة اليوم تماماً.

والأعجب من ذلك أنه أخبر عنه بأبلغ أسلوب وأبدعه، وبما يتناسب مع أذواق ذلك العصر ومعارفه، فلم ينب عنه سمع العربي في ذلك الوقت، ولم يستنكره المفكرون والمتأملون، وربما لفت نظر الإنسان إلى وجود أسرار في هذا الكون وراء قدرته ومعارفه، إلى أن جاء العلم الحديث فكشف عما يوافق تلك الأخبار في نفس عباراتها وصيغها القديمة، ليستدل بذلك على أن هذا القرآن موحى به من عند الله.

ومن خــلال عرضنــا للآيــات القرآنيــة سنرى إن شــاء الله الفــرق بــين القسمين، دون أن نفرد لكل منهما فصلاً مستقلاً، إذ لا حاجة لذلك، ولا سيما أن القسمين قد يتداخلان في بعض الآيات إذ كان العرب يعرفون عن معناها شيئاً كشفت لنا الأيام والعلوم الحديثة أن المراد منهـا شيء آخر غـير ما كـان معروفاً.

الآيـة الأولى
قانون المط السطحي
وقوله تعـالى
﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾

لقد ذكر القرآن قانوناً خاصاً بالماء في سورتين، هما: الفرقان والـرحمن، فقال تعالى في (سورة الفرقان: آية ٥٣):

﴿وهو الذي مرج البحرين، هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾.

وقال في (سورة الرحمن: آية ٢٠ ـ ٢١):

﴿مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾.

إن هذه الظاهرة التي يتكلم عنها القرآن، وهي عدم اختلاط الماء العذب بالماء المالح، ليست وليدة المعارف الحديثة، وإنما هي أمور معروفة للإنسان منذ القدم، بناها على مشاهداته الحسية، التي لا سبيل إلى إنكارها.

وعلى سبيل المثال يوجد نهران يسيران في «تشانغام» بباكستان الشرقية إلى مدينة «أركـان» في بورمـا، أحدهمـا عذب، والآخـر مالـح، ويمكن مشاهـدة النهرين، مستقلاً أحدهما عن الآخر، وكأن حـداً فاصـلاً يفصل بينهـما، الماء العذب في جهة، والآخر المالح في جهة أخرى، وهذه الظاهرة معروفة متكررة غير خافية على أحد.

ولكن.. لماذا لم يختلطا..؟.

لقد تساءل المفسرون القدماء عن هذا، وأجابوا بقول الله تعالى: ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾.

ولئن سألناهم، أين هذا البرزخ..، وما هو هذا الحِجْر..؟ قالوا كما قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «حجر أحدهما عن الآخر بأمر الله وقضائه»[1].

ولكنهم لم يستطيعوا أبداً أن يضعوا أيديهم على السر العلمي لهذا البرزخ إلى أن جاء العلم الحديث واكتشف «قانون المط السطحي» الذي يفسر هذه الظاهرة.

قانون المط السطحي:

وهو القانون الذي يضبط الأشياء السائلة، وهو يفصل بين السائلين، وذلك لأن تجاذب الجزئيات يختلف من سائل لآخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله.

وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾.

وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، وإن لم يستطيعوا معرفة السر العلمي له، كما لم يتعارض مع المشاهدة الحديثة، ولا مانع عندنا أن نقول إن البرزخ الفاصل بين الماءين هو هذا القانون.

ويمكننا فهم هذا القانون بمثال بسيط، وهو أننا لو ملأنا كوباً من الماء، فإنه لن يفيض إلا إذا ارتفع عن سطح الكوب قدراً معيناً، والسبب في ذلك أن جزئيات السوائل عندما لا تجد شيئاً تتصل به فوق سطح الكوب تتحول إلى ما تحتها، وعندئذ توجد غشاوة مرنة على سطح الماء، وهذه الغشاوة هي التي تمنع الماء من الخروج عن الكوب لمسافة معينة.

---

(١) الدر المنثور: ٧٤/٥.

وهي غشاوة قوية جداً لدرجة أننا لو وضعنا عليها إبرة من حديد فإنها لن تغوص داخل الماء، بسبب هذه الغشاوة.

وهذه الظاهرة هي التي تسمى بقانون المط السطحي، الذي يحول دون اختلاط الماء بالزيت، وهو الذي يفصل بين الماء العذب والماء المالح، وهو الذي يشير إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾[1].

فإشارة القرآن إلى وجود هذا الحاجز الذي لا يشاهد بالعين، لا يدرك بالحس، في زمن لم يكن الإنسان فيه على أي معرفة بهذا القانون الضابط المكتشف حديثاً، ليَدُلنا دلالة قاطعة على أن هذا الكلام إنما هو من كلام عالم الغيب، والمطلع على أسرار الكون، وعارف الحقائق، ألا وهو الله الذي أحاط بكل شيء علماً.

على أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى نقطة مهمة، ربما التبست على بعض الناس ألا وهي: أننا عندما قلنا: إن البرزخ هو قانون المط السطحي، لم نرد بهذا أن نفسر كلمة البرزخ تفسيراً لغوياً، وإلا لخرجنا عن الضوابط التي رسمناها في أول البحث، وجعلناها منهجاً لنا فيه، فالبرزخ في اللغة: هو الحاجز بين الشيئين، ولكننا أردنا أن نبين حقيقة هذا البرزخ الذي أخبر عنه القرآن، بدليل يقيني لا يمترى فيه، فكان هذا القانون شارحاً لحقيقته العلمية، وهذا لا يتنافى مع المعنى اللغوي، بل يبين لنا حقيقته وكيفية تكونه.

---

(١) الإسلام يتحدى: ص ١٩٨، وموريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة ص ٢٠٤ - ٢٠٦.

الآيـة الثانيـة

﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾

وقانـون الجاذبيـة

لقد كان الإنسان القديم يرى الكواكب في السماء تبرق وتلمع، وتظهر وتختفي، ويرى الشمس والقمر والنجوم، ولكنه ما كان يعـرف شيئاً عن سر تعلقها في السماء هكذا، دون عمد تستند إليها أو تعتمد عليها.

وربما شاعت بين الناس كثـير من الشائعـات الباطلة، وانتشـرت فيهم العقائد الزائفة، فزعم بعضهم أنها ثقوب في السماء، ترى منها أنوارها، وزعم بعضهم أنها قناديل معلقة فيها، أو مسامير لامعة مثبتة عليها، إلى آخر ما هنالك من المعتقدات الساذجة المبنية على الأوهام، الناتجة عـن الـرؤية العاديـة لهذا الكون الفسيح المجهول.

وكان الإنسان القديم يرى في الليلة الـظلماء كثرة الكـواكب التي تطبق السماء، ولكنه لم ير أبداً أن كوكبين قد اصطدمـا، ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذا السر العظيم.

وربما كان بعض الناس على معـرفة بسيـطة ببعض الكواكب من حيث ظهورها وخفاؤها، وأماكن وجودها، وزمنه، ولكنه لم تكن هناك أبداً أية معرفة بأسرار تعلقها في السماء، أو طبيعة حركتها ودقة سيرها.

وكما يقول موريس بوكاي: لقد كانت فترة الرسالة وما بعد الهجرة حتى وفاة النبي ﷺ في مرحلة ركود من ناحية المعارف العلمية منذ عدة قرون، وكان

عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمي الذي واكبها، لاحقاً لنهاية تنزيل القرآن[1].

إذن لو أراد محمد ﷺ أن يتكلم على الفلك بمعارفه وعلومه، لتكلم بنفس المعارف التي كانت شائعة في ذلك العصر.

ولكن القرآن نزل بعبارات فيها إشارات خفية إلى ما لم تعرفه البشرية إلا في عصرها الحديث.

فقال تعالى: ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ (سورة الرعد: آية ٢).

فقد كانت هذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم، فإنه كان يشاهد عالماً كبيراً قائماً بذاته في الفضاء، مكوّناً من الشمس، والقمر، والنجوم، ولكنه لم ير أية سارية أو عمود تقوم عليها تلك الكواكب.

إلا أن الرجل الجديد يشاهد في هذه الآية تفسيراً لمشاهداته التي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائي، بيد أن هنالك عمداً غير مرئية، تتمثل في قانون الجاذبية، وهي التي تساعد كل هذه الأجرام على البقاء في أماكنها المحددة لها، فلا تسقط على الأرض، ولا يصطدم بعضها ببعضها الآخر»[2].

وبهذا يظهر لنا سر التعبير القرآني «بغير عمد ترونها» مما يشير إلى وجود عمد غير مرئية وهي ما يتم بفعل الجاذبية وقانونها.

إن الكلام لو لم تذكر فيه كلمة «ترونها» لتام وكامل ومفهوم، ولكنها زيدت ـ والله أعلم ـ لهذا الغرض، لتلفت نظر الإنسان إلى وجود شيء غير مرئي سيدركه الإنسان يوماً ما بعقله وإن لم يره بعينه، ألا وهو قانون الجاذبية، ليدل كل ذي

---

(١) دراسة الكتب المقدسة: ص ١٥٤.

(٢) الإسلام يتحدى: ص ١٩٨.

عقل على أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر من قبل البشر في ذلك العصر الذي لم يكن عند الإنسان أية معلومة عن هذا القانون، بل كان يتخبط في متاهات الأوهام حول تعلق الكواكب في الفضاء.

الآيـة الثـالثة
﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾
وحركة الكواكب

قال تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها، ذلـك تقدير العزيز العليم﴾.

وقال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون﴾ (سورة يّس: آية ٤٠).

ولم تكن هذه العبارات موضع دهشة واستغراب لدى الإنسان في العصر القديم، فإنه كان يرى حركـة النجوم والكـواكب، ويرى في بعض الحـالات تباعدها عن أماكنها، ولكنه ما كان يعرف شيئاً عن حركة الشمس، كما لم يكن يعرف شيئاً عن مفهوم الفلك الذي يدور فيه كل كوكب.

فجاءت الآية القرآنية بمعارف جديدة، لم تكن معروفة في ذلك العصر، مما يدل على أن هذا الكلام ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الله.

وفي هذه الآية يقول موريس بوكاي: «إن القرآن لا يذكر المفهوم الفلكي القديم عن مركزية الأرض، ودوران الشمس حـولها، بـل يذكـر أن كلاً من الشمس والقمر يجري في فلكه موافقاً بذلك العلم الحديث.

ويقول: إن القرآن قدم مفهوماً جديداً لم يكن يعرف في عصـره، وهو مفهوم الفلك الذي يدور فيه كل كوكب.

ثم يقول: إن دوران الشمس الذي تحدث عنه القرآن، هو حركة الشمس ضمن مجرتها حول مركز المجرة، بسرعة ٢٥٠ كم في الثانية، كما أثبت العلم الحديث.

ثم دافع هو نفسه عما يمكن أن يقال من أن محمداً ﷺ كان مفكراً عظيماً حين تحدث عن حركتي الشمس والقمر، كما يتحدث عنهما الفيثاغورثيون، الذين توصلوا إلى أن الأرض تدور حول الشمس، لا العكس.

دافع عن هذا بقوله: إن الفيتاغورثيين أصابوا هنا، ولكنهم أخطأوا في كون الشمس ثابتة لا تتحرك، وأنها مركز العالم، فهم قد جمعوا بين الخطأ والصواب، وهذا لا يجعلهم كالقرآن الذي لم يخطىء أبداً»[1].

نعم.. إنها شهادة حق من باحث منصف، تطابق الواقع الذي لا يمتري فيه عاقلان.

إنه لأمر أعجب من العجيب، وأغرب من الغريب أن نجد أمياً نشأ في الصحراء، بعيداً عن فلسفة اليونان، وقوانين الرومان، وحكمة الهند، ونظريات أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث..، ومع ذلك فهو يتحدث عن النظام الفلكي بأبلغ كلام وأدقه وأحكمه، وبما يتناسب لا مع كلام الرياضيين اليونان، وإنما مع معارف القرن العشرين، دون اضطراب أو تناقض، ويرى الناظر فيه أنه كان تصحيحاً لمعتقدات البشر من فلاسفة ورياضيين وفلكيين، مع ما أضافه إليها من المعارف، قبل قرون عديدة من عصر النهضة الذي وقف فيه الإنسان في نهاية مطافه على ما قاله القرآن.

أويجوز لعاقل بعد هذا أن يقول: إن هذا القرآن من صنع محمد ﷺ وتأليفه..؟.

أو أنه من إيحاءات البشر وكهانتهم وتعاليمهم؟.

لو كان كذلك لكان يجب على أحسن أو أسوأ الاحتمالات أن ينطق بمعارف ذلك العصر وتعاليمه، إلا أنه لم يعرف تعاليمهم، وعندما نطق بموضوعها نطق مخالفاً لها ومعلناً عن خطئها، مما يدفعنا وبكل ثبات ويقين أن نقول: إن هذا لهو الدليل القاطع على أن هذا القرآن ليس من صنع البشر، ولا من تعاليمهم وإيحاءاتهم، وإنما هو من كلام خالق الأرض والسماء، والعالم بالسر والعلن، إنه كلام الله.

---

(١) دراسة الكتب المقدسة: ص ١٧٥ ـ ١٧٨.

الآية الرابعة

﴿يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل﴾

وكروية الأرض

لقد تكلم القرآن الكريم على الليل والنهار، بعبارات واضحة مشرقة، لا ينكر السامع معنى من معانيها مهما بلغ به الجهل في العلوم والمعارف، ولذلك كانت متناسبة تماماً مع معارف الناس حين نزل القرآن، ولكنها كانت تحتوي على إشارات إلى معارف أخرى لم يكن للناس في ذلك الوقت معرفة بها، ألا وهي الإشارة إلى كروية الأرض ودورانها..

قال تعالى: ﴿يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل﴾ (سورة لقمان: آية ٢٩).

وقال: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ (سورة الأعراف: آية ٥٤).

وقال: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ (سورة الزمر: آية ٥).

إن هذه الآيات تشرح للإنسان سر مجيء الليل بعد النهار، والنهار بعد الليل.

وهذه حقيقة يدركها كل إنسان من أقدم العصور، ولذلك لم يجد فيها ما يثير دهشته، ويلفت انتباهه.

إلا أن الإنسان المعاصر قد وجد فيها شيئاً آخر تضمنته وأشارت إليه، لم يكن الإنسان القديم يعرف عنه شيئاً ألا وهو دوران الأرض محورياً حول نفسها وكرويتها، والذي لم يكشفه الإنسان إلا في العصر الحديث.

لننظر إلى قوله تعالى: ﴿يطلبه حثيثاً﴾ فإن فيه إشارة إلى التتابع والتلاحق والجريان، دائماً وأبداً، دون توقف أو انتظار.

ولكن إلى أين يجريان ويتتابعان، وكيف..؟

هل يجريان في طريق مستقيمة إلى اللانهاية..؟ إذاً لكان من المفترض ألا يمر على الأرض إلا ليل واحد ونهار واحد...

لكننا كنا وما زلنا نراهما متعاقبين متتابعين وفي نظام واحد، تطلع الشمس من المشرق، وتغيب في جهة المغرب.

لنتأمل هذه الصورة الفنية في القرآن الكريم، ثم ننتقل إلى الصورة الأخرى في قوله تعالى: ﴿يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل﴾ (سورة الزمر: آية ٥). نجد أن الآية واضحة كل الوضوح في حركة الأرض ودورانها.

فهناك تكوير الليل على النهار، ليخفيه ويكونَ الليل.

وتكوير النهار على الليل، ليمحوه ويكون النهار.

وبين هذين التكويرين نرى جرماً كروياً يتحرك بينهما فيجعلهما يتكوران أحدهما على الآخر.

فغشيان الليل النهار، وغشيان النهار الليل، لم يكن بشكل عادي مستقيم، وإنما كان بالتكوير، الذي لا يمكن أن ينتج إلا عن حركة جسم كروي فيه[1]، يدور حول محوره.

فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة القرآنية على زمن اليقينيات العلمية، وسط صحراء جزيرة العرب.

إنها لا تفسير لها ولا حل، إلا بالقول بأنها من وحي الله.

---

(١) براهين: ص ٧٤.

الآيـة الخـامسة

﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾

وحقيقة الشمس والقمر

قال تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ (سورة الفرقان: آية ٦٢).

وقال: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً، وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً﴾ (سورة نوح: آية ١٦).

وقال: ﴿هو الذي جعل الشمس ضيـاء والقمر نـوراً، وقدره منـازل﴾ (سورة يونس: آية ٥).

ونحن إذا رجعنا إلى معنى السراج ومعنى المضيء في اللغة وجدناهما معنيين مختلفين.

وذلك أن السراج لا يطلق إلا على ما كان يبعث مع الشعاع حرارة، وأن المنير هو الذي يبعث ضياء لا حرارة فيه.

كما أننا لا نقول عن الشيء سراجاً إلا إذا كان يبعث الحرارة من داخله وجوهره، ونقول عنه إنه منير إذا انعكس عليه الضوء من جرم آخر.

وبناء على هذه التفرقة اللغوية تكون الآية ناطقة بأن القمر جرم بارد لا حرارة فيه، وأنه يكتسب أشعته ونوره من جرم آخر، ثم يعكسه على الأرض. وأن الشمس مضيئة إضاءة ذاتية بأشعة حارة، ولذلك وصفها الله تعالى بالتوهج في قوله: ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾[1] (سورة عم: ١٣).

---

(١) وانظر هذا الموضوع في دراسة الكتب المقدسة لبوكاي ص ١٧٥، ومقال الدكتور البوطي في الموضوع في مجلة العربي عدد ٢٤٦، ص ٥٥.

وهذه هي الحقيقة العلمية لكل من الشمس والقمر، كما تقول معارفنا الحديثة.

إذن فقد جاءت الآية القرآنية كاشفة عن الحقيقة العلمية اليقينية التي آمن العلم بها، وأذعن لها، ليثبت أن القرآن الكريم لم يحد أبداً عن الحقائق العلمية، ولم يصدمها في أي جزئية من جزئياتها، مع كثرة ما تعرض له منها، وفي زمن لم يكن يعرف الإنسان فيه شيئاً عنها، أو أنه عرف بعض الشيء الذي اختلط فيه الحق بالباطل.

فهل يمكن أن يكون كل هذا من صنع الإنسان..؟ وهل هذا في طاقته..؟.

إن الجواب الذي يمكن أن يقوله كل عاقل وبثقة وتثبت هو ما قاله الله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

الآيـة السادسـة

﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾

والحيـاة الاجتماعية عند الحيوان

لم يكن الإنسان القديم يعرف شيئاً عن النظام الاجتماعي للحيـوانات المبثوثة في الأرض، وإن كان يعرف بعض الظواهر الساذجة عن بعض أفرادها.

ونزلت آيات القرآن الكريم تتحدث عن هذا الموضوع بشيء غير مألوف ولا معروف، من أن هذه الحيوانات أمم كأمثال بني آدم.

ومعنى هذا أن لكل نوع من أنواع الحيـوان ما لـلأمة من بني آدم من الروابط والمقومات التي تحتاج إليها الأمة، من النظام، ووسيلة التفاهم، وغير ذلك من المقومات الضرورية للأمة.

فقال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون﴾[1].

وكان الإنسان المؤمن في الصدر الأول يسمع هذا الكلام، ويؤمن به على ما هو مفهوم من ظاهره، إيماناً بالغيب، لأنه يعلم أن ما يخبر الله به حق لا مرية فيه، وإن لم يفهم حقيقته، إذ لم يكن لديه في ذلك الوقت من المعارف ما يمكنه من الوقوف على حقيقة الأمة عند الحيوان...

---

(١) سورة الأنعام: آية ٣٨.

وأما غير المسلمين من أصحاب الملل والنحل فكانوا يعتبرون هذا ضرباً من الخرافة عند المسلمين، وأن الحيوان لا عقل له يفكر به، ولا نظام لـديه يعيش فيه.

وكان العلماء القدماء يعتقدون أن هـذه الحيوانـات أجسام حيـة، تحس وتتألم، ولكن لا تحمل العقل المفكر، وأن ما يصدر عنها من حركات وأعمال إنما هي انفعالات غريزية.

واستمر هذا الاعتقاد إلى عصور متأخرة، حتى أن الفيلسوف ديكارت كان يرى أن الحيوانات كالآلة المعقدة المجردة من الحياة العقلية، فهو لا يفكر كما يفهم الناس، بل يعبر في سلوكه عن الغرائز.

وقد اشتهر تعريفه هذا، وتداوله العلماء والمفكرون، مسلمين له، ومؤمنين به.

ولم يعترف للحيـوان بعقل وتفكـير نسبيين إلا في القـرن الثامن عشر، والتاسع عشر.

فقـد اعترف دارون وغيـره من علماء الحيوان، وبعـد البحث والمتابعـة والاستقراء، قد اعترفوا جميعاً بأن الحيوان له عقل وتفكير، إلا أنه دون العقل والتفكير الإنساني، وأنه بهذا التفكير يستطيع أن يعيش في حياة اجتماعية ربما كانت عند بعض الحيوانات مثالية...

ومن أبدع الأمثلة التي ذكرها العلماء عن الأمم الحيوانية ما ذكـروه عن النمل إذ قالوا:

إن النمل من الحيوانات الاجتماعية التي تعيش مجتمعه، تتعاون في شؤون حياتها، وتتساعد في أمور بقائها، فهي أمم وشعوب، كـأمم وشعوب النـوع البشري، لها نظام كنظامه، وحكومة كحكوماته، وشؤون عامة كشؤونه، فهي من أعجب الحيوانات وأدعاها للتأمل.

وقالوا: إن أعمال النمل تدل عى أنها متمتعة بدرجة رفيعة من العقل، وبغرائز عظيمة للاجتماع والتضامن في الحياة.

فأعمالها الاجتماعية لا تقتصر على بناء مساكنها، والعمل على قانون التعاون، والقيام بتربية الصغار، ولكن يرجح أن لها لغة خاصة تتفاهم بها.

ثم شوهد لدى مجتمعات النمل غرائز استعمارية يدفعها لشن الغارات على قرى النمل المجاورة لها، إما بقصد الاستيلاء على القرية للانتفاع بها، أو بقصد توسيع نطاق أملاكها، أو الاستيلاء على صغارها..

ومن الغريب أنها تأسر الأسرى من أعدائها، ثم تقودهم إلى معسكراتها، ثم تقتلهم أو تتخذهم أرقاء، وتكلفهم بأشق الأعمال في القرية[1].

ومما يدهش له الإنسان أن النمل قد استأنس بعض الحيوانات التي هي أقل منه شأناً، استأنسها ـ كما يستأنس أحدنا الحيوان لدره ـ ولكن الأكثر إثارة ودهشة هو أنه قد وجد نحو ألفي نوع من هذه الحشرات المختلفة داخل مساكن النمل، وقد نجح في استئناسها كلها، بينما لم يستأنس الإنسان سوى عشرين نوعاً تقريباً[2].

لم يكن الإنسان القديم يعرف شيئاً عن مثل هذه الحقائق، ولذلك لم تتردد حتى في أساطيره.. فكيف تمكن محمد ﷺ من إدراك مثل هذه الحقيقة التي أمضى العلماء حتى توصلوا إليها القرون الطويلة من البحث والتأمل.

لا يمكن لأي مفكر منصف في هذه الأرض أن يعزو مثل هذه الحقيقة الناطقة لغير الوحي من قبل خالق الأرض والسماء وعالم السر والعلن، الذي أتقن كل شيء خلقه وأحاط به علماً..

إن العلماء المعاصرين اليوم حينما يقرأون هذه الآية لا يُدهشون فقط لما فيها من المعارف اليقينية التي أيدها العلم الحديث، بل يتخذون منها مشعل هداية للبحث عن النظم الاجتماعية والطاقة العقلية عند كل الحيوانات الموجودة على سطح الأرض، لأن الله عمم لفظ الأمة لكل دابة تدب على الأرض وطائر

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ١٠/٣٧٢.

(٢) الدين والعلم: ص ١٠٧.

يطير في السماء، ولعل مباحثهم في عالم الطيور كانت أعجب وأغرب من مباحثهم في عالم الحيوانات الأخرى، إذ شاهدوا من نظامها وحياتها الاجتماعية الأممية ما لا يكاد يصدق به العقل[1].

لقد كنا في الماضي نقرأ في القرآن كلام النملة لنبي الله سليمان، وخطاب الهدهد له، وكنا نقرأ حديثه عن النحل والبعوضة والعنكبوت، وكنا نؤمن بذلك إيماناً غيبياً، أما العلم المعاصر فقد كشف لنا أن هذا الذي كنا نؤمن به إيماناً غيبياً يجب علينا أن نضيف إليه اليوم أنه المعجزة الناطقة على أن هذا الكتاب من عند الله.

﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾.

---

(١) انظر: كتابنا الدين والعلم.

الآية السابعة

﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾

والأمواج الباطنية والظاهرة

كلنا يقرأ في سورة النور المثل الذي ضربه الله تعالى لأعمال الكافر، إذ قال: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده، فوفاه حسابه، والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ (سورة النور: آية ٣٩ ـ ٤٠).

وكنا جميعاً نقرأ في تفسيرها أن هذا مثل ضربه الله لأعمال الكافر، فقال المفسرون فيها:

البحر اللجي: هو المنسوب إلى اللجة، وهو الذي لا يدرك قعره، واللجة معظم الماء، والتَجَّ البحر: إذا تلاطمت أمواجه.

وأما قوله: ﴿يغشاه موج﴾: أي يعلو ذلك البحر اللجي موج.

وقوله تعالى: ﴿من فوقه موج﴾: أي من فوق الموج موج، ومن فوق هذا الموج الثاني سحاب.

فيجتمع خوف الموج، وخوف الريح، وخوف السحاب.

وقالوا في المعنى أيضاً: يغشاه موج، من بعده موج، أي أن الموج يتبع بعضه بعضاً، حتى كأن بعضه فوق بعض.

قالوا: وهو أخوف ما يكون إذا توالى موجه وتقارب.

قالوا: ومن فوق هذا الموج سحاب، وهو أعظم للخوف من وجهين:

أحدهما: أنه قد غطى النجوم التي يهتدى بها.

الثاني: الريح التي تنشأ مع السحاب، والمطر الذي ينزل منه ﴿ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ أي من شدة الظلام الناتج عن الموج والسحاب[1].

هذا هو المعنى الذي كنا نفهمه دون أن نرى أي وجه للإعجاز العلمي فيه، فرغم التتبع والاستقراء، لم أجد أحداً من المفسرين المتقدمين أشار إلى أي نوع من أنواع الإعجاز العلمي الذي أثبته العلم الحديث.

وهذا الفهم الذي كنا نفهمه فهم سليم، مطابق لقواعد اللغة ومدلولاتها، ومطابق أيضاً للواقع الذي كان يشاهده ويعرفه كل من عرف البحر.

وهذا أيضاً من إعجاز القرآن، إذ أن كل جيل يقرأ القرآن ويفهمه الفهم السليم، المطابق لقواعد التفسير، ولكنه يجد كل جيل في القرآن معنى جديداً آخر غير المعنى الذي رآه الجيل السابق في بعض الآيات أو الكلمات، ودون أن تتضارب المعاني أو تتصارع أو تتناقض.

كالذي ينظر إلى بعض الصور المركبة من زاوية من زواياها، فيرى فيها شكلاً ما، فإذا ما نظر إليها من زاوية أخرى، رأى فيها شكلاً آخر، وكلا الشكلين حق، أراده الرسام وتعمده، ليدل على دقة فنه، وبراعة صنعه، فلو أقسم الأول على ما رأى، لكان صادقاً، ولو أقسم الثاني على ما يرى يكون صادقاً أيضاً، ولا تعارض بين الصورتين المدركتين، وربما أدرك الناظر عدة صور وكلها صحيحة، والصورة المنظورة واحدة.

وما فهمه السلف رضوان الله عليهم من هذه الآية لم يكن لهم ليفهموا غيره، ولا سيما إذا كانوا ممن لم يمارس البحار والعمل فيها.

---

(١) انظر: القرطبي ١٢/٢٨٣.

إلا أن معارفنا الحديثة اكتشفت معنى جديداً لهذه الآية، يطابق مدلولها أيضاً، إلا أنه بصورة أوضح من الصورة السابقة القديمة، وفي نفس الوقت يعطينا معنى جديداً من معاني الإعجاز العلمي، وذلك باكتشاف الأمواج الباطنية الداخلية في مياه المحيط.

ولنترك الكلام لشارل. ل. كارسون صاحب كتاب «البحر المحيط بنا» إذ يقول:

«فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعباً هي أمواج غير منظورة، تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيداً في أعماق البحار.

وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة، فيما كان يسمى بـ «الماء الميت» والذي عرف الآن أنه «أمواج داخلية».

وفي أوائل عام ١٩٠٠ لفت الأنظار كثير من مساحي البحار الاسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء.

والآن وبالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة، التي ترتفع وتهبط بعيداً أسفل السطح، فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد أصبح أمراً معروفاً جداً، فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة، كما تعمل شقيقتها السطحية على قذف السفن، ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج وبتيارات أخرى قوية في بحر عميق»[1].

فنحن الآن بعد أن وضعنا أيدينا على هذا الاكتشاف العلمي الجديد نستطيع أن نفهم الآية فهماً جديداً، لا يتعارض مع الأول، إلا أنه يوضحه ويبينه.

فقوله تعالى: ﴿يغشاه موج من فوقه موج﴾ فيه إشارة واضحة لا لبس فيها ولا غموض إلى هذه الأمواج الداخلية التي تكلم عنها العلم الحديث وأثبتها، كما يشير إلى الأمواج السطحية التي نراها ونعرفها، وهذا المعنى واضح من قوله

تعالى: ﴿من فوقه﴾ أي أن الموج الأول في الأسفل، والموج الثاني يأتي من فوقه، ولم نعد بحاجة إلى ارتكاب المجاز في قولنا: «من فوقه: أي من بعده، وأن تتابع الموج يظهره كأن بعضه يركب بعضه الآخر».

إن الآية واضحة كل الوضوح، وصريحة في دلالتها على هذا الذي اكتشفه العلم الحديث من الأمواج الباطنية التي تعلوها الأمواج السطحية، ولا سيما أن الآية قالت: ﴿في بحر لجي﴾ أي عميق، كما ذكرنا في تفسيرها، وهذا إنما يكون في المحيطات، لا على الشواطىء والخلجان.

وفي هذه الأماكن يقل وهج الشمس، وفي نفس الوقت يجتمع السحاب، وتنتج عن ذلك الظلمة التي أشار إليها القرآن في قوله: ﴿ظلمات بعضها فوق بعض﴾.

أي ظلمة الأمواج الداخلية، وفوقها ظلمة الأمواج السطحية، ومن فوقهما ظلمة الجو الناتج عن السحاب الكثير، بحيث يصير الإنسان ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾.

إن هذه الصورة لا تشاهد على شواطىء بحارنا الهادئة الوادعة إذا ما قيست بمياه المحيطات، ولو أن محمداً ﷺ كان هو الذي ألف القرآن وأملاه لكان من المستحيل عليه أن يأتي بمثل هذه الحقائق العلمية التي كانت خافية إلى أيامنا هذه، ولم تكن البشرية تعرف عنها شيئاً.

إذن فهي الحقيقة المصدقة بأن هذا القرآن تنزيل من حكيم عليم.

الآيـة الثامنـة

﴿أولم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾

وبدايـة الكـون والارض

لم يكن الإنسان القديم يعرف شيئاً عن بداية الكـون، كما أنـه لم يكن يعرف شيئاً عن بداية كوكبنا الأرضي، وكيفية وجوده، ومن أي شيء وجد.

إلا أن القرآن الكريم تحدث وبكل وضـوح عن عملية تشكيـل الكون الأساسية، وانتهائها إلى تكوين العوالم، فقال تعالى:

﴿أو لم يَرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[1].

لقد نزلت هذه الآية في الزمن الذي لم يكن الناس فيه يعرفون شيئاً عن سر الكون وأصله، إلا أن الآية واضحة وصريحة، ولذلك عرف المسلمون، لا عن طريق النظر والتجربة والاكتشاف العلمي، وإنما عن طريق الإيمان بالغيب الذي يخبر عنه الله جلّ وعلا في القرآن، عرفوا أن السماء والأرض كانتا قطعة واحدة، ثم انفصلت السماء عنها، أو انفصلت هي عن السماء، فتباعدتا وتخللهما الهواء.

فقال المفسرون في تفسير هذه الآية إن الرتق هو السد، وأنه ضد الفتق، يقال: رتقت الفتق، ارتقه، فارتتق، أي التأم.

ولذلك قال ابن عباس، والحسن البصري، وعطاء، والضحاك، وقتادة: إن السماء والأرض كانتا شيئاً واحداً، ملتزقتين، ففصل الله بينهما بالهواء[2].

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٣٠.

(٢) القرطبي: ١١/٢٨٣.

ترى، هل طابق العلم الحديث في أحدث نظرياته عن نشأة الكون، من السماء، والأرض، والكواكب، هل طابق الخبرَ القرآني أم خالفه؟.

لندع العلم الحديث يتكلم عما توصل إليه بعد البحث والنظر، ثم لنقارن بين معطياته وآيات القرآن قبل العديد من القرون، لنسمع بعد ذلك أن العلم ورواده يخران ركعاً أمام هذه المعجزات القرآنية، يعترفون بأنها من عند الله، وأنها الدليل عليه والمرشد إليه، وأنها يستحيل أن تكون من قول البشر.

يقول علماء الكون: إن «المادة» كانت جامدة وساكنة في أول الأمر، وكانت في صورة غاز ساخن كثيف متماسك، وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة قبل ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل، فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها، ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمراً حتمياً، لا بدّ من استمراره، طبقاً لقوانين الطبيعة التي تقول: إن قوة الجاذبية في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجياً بسبب تباعدها، ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة.

والمجموعة الشمسية التي تعتبر أرضنا كوكباً من كواكبها كانت نتيجة من نتائج تلك الانقسامات.

وقد أيد العلماء هذه الحقيقة بأنه يوجد في الشمس ٦٧ عنصراً من العناصر الموجودة في الأرض، وما زالت الأبحاث والجهود قائمة لاكتشاف بقية العناصر الموجودة فيها، والتي يعتقد أنها أيضاً من نفس العناصر الأرضية.

كما أيدوا هذا بأن باطن الأرض لا يزال حاراً بل مصهوراً، وفي حالة غليان دائم، تدل عليه البراكين التي تثور أحياناً، فتدفع من باطن الأرض بمواد في غاية الحرارة، وفي بعض الأحيان تدفع بالمعادن الذائبة التي لا يمكن أن تصهر إلا في درجة عالية من الحرارة.

وفي نفس الوقت لاحظ العلماء أن الصخور والأتربة التي حصل عليها رواد الفضاء من القمر، لاحظ العلماء أنها تحتوي على نفس العناصر الشائعة في الأرض، مما يدل على أن العناصر التي بني منها الكون، على اختلافها، هي عناصر واحدة، وهذا يدل دلالة قاطعة على وحدة الكون.

إننا حينما نسمع هذا الكلام من علماء الكون، ونسمع قوله تعالى: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ ونعلم أن هذه الآية نزلت في الوقت الذي لم يكن يعرف فيه أحد شيئاً عن بداية الكون من الناحية العلمية، إننا حينما نسمع هذه الآية نعلم أن الله تعالى إنما أخبر بها من أجل أن تكون الدليل القاطع، والبرهان الساطع للأجيال القادمة بأن هذا القرآن من عند الله وليس من عند البشر.

ولكن.. ربما يقول بعض الناس: إن هذا التطابق الذي نفرضه بين العلم والآية، قائم على هذه النظرية التي ذكرت عن بداية الكون.

ولكن هذا ليس أمر يقينياً، وإنما هو ظن قابل للتغير. فماذا نعمل إذا تغير..؟.

والجواب على هذا: هو أننا لم نسق هذه الآية لنؤيد بها قول العلماء على بداية الكون، وكيفية هذه البداية، وإنما سقناها لنبين بها حقيقة قطعية، وهي أن السموات والأرض كانتا رتقاً ـ قطعة واحدة ـ أو جسماً واحداً، وبعد ذلك حصل الفتق والتعدد.

وهذه حقيقة لم يقلها أسلافنا ويؤمنوا بها نتيجة للبحث والنظر في بداية الأمر، وإنما قالوها إيماناً بالغيب عن خبر القرآن، ولم يؤمن بها رواد العلم الحديث عن خبر القرآن، وإنما آمنوا بها عند البحث والنظر والاستدلال، ومن ثم كانت نتيجة البحث العلمي مطابقة لحقيقة الخبر القرآني وهو الذي نريده.

أما كيف كانت بداية الكون، أو بداية الحركة في المادة الأساسية الموجودة فيه، وكيف وجدت المجموعات والمجرات والكواكب، وهل الأرض قطعة من الشمس، أم أن الشمس والأرض والقمر والمجموعة الشمسية بأسرها قد نشأت عن السديم، والسديم نشأ من سديم آخر، فهذا أمر ربما توصل العلم فيه إلى اليقين، وربما بقي في محل الظنون، إلا أنه على كل الأحوال ستبقى مسألة الانفصال والتعدد عن الكتلة الواحدة حقيقة علمية مؤيدة بالأدلة والبراهين، وهو الذي جاء به القرآن معجزة علمية.

إلا أنه بقي عندنا شيء مهم ربما تساءل عنه بعض من عجز عن استيعاب هذه الحقائق العلمية، ممن لم يرزق المرونة في عقله، فربما ظن أن هذا الكلام يتنافى مع خلق الله للسماء والأرض، والشمس والقمر والكواكب وغير ذلك...

والجواب: أنه لا تنافي أبداً بين خلق الله لهذا العالم، وبين ما ذكرناه، وذلك أن الله لم يخبرنا أنه خلق الأرض وحدها خلقاً مباشراً، ولا خلق القمر وحده خلقاً مباشراً، ولا خلق كل كوكب وحده خلقاً مباشراً، وإنما هو الذي خلق المادة الأساسية لهذا الكون، وبعد ذلك أجراها ضمن قوانين وسنن، هو أيضاً الذي خلقها وأوجدها، فكان كل ما في الكون من خلق الله، وعلى النظام الذي أراده الله.

الآية التاسعة
﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾
ونظرية توسع الكون

إنه رغم تقدم العلوم وتضافرها لم يستطع أحد حتى الآن أن يدرك سعة الكون، وأنا أعتقد أنه لا سبيل إلى مثل هذا الإدراك، بهذه الطاقات التي يتمتع بها الإنسان، بل ولا بغيرها من الطاقات.

فما هي سعته؟

وما هي حدوده؟

وماذا يوجد وراء هذه الحدود؟

وهل لهذا الكون جدار، بغض النظر عن مواصفات هذا الجدار؟

فإذا كان، ما هو سمكه؟

وماذا يوجد وراءه..؟

إذا كان يوجد وراءه فضاء، فما هي سعة هذا الفضاء الثاني؟

وهكذا يتسلسل الأمر إلى اللانهاية..

وإذا لم يكن للكون جدار، فإلى أي مدى يمتد؟.

إنها أسئلة حيرت، وما زالت تحير كل باحث في هذا الكون.. لكي يرجع الإنسان إلى رشده، ويعلم أن ما أوتيه من الطاقات والمعارف لا يكفيه لمعرفة كل الأسرار عن الكون والحياة.

ولكن هذه التساؤلات.. بل هذه اليقينيات، لم تمنع الإنسان من البحث والمحاولة، فإن التطلعات الإنسانية في كثير من الحالات تكون أكبر من الطاقات والإمكانيات.

ولذلك حاول العلماء أن يضعوا تصوراً لهذا الكون يتناسب على الأقل مع طاقاتهم ومشاهداتهم، مع اعترافهم بأن هذا التصور ليس حلاً للغز الكون في سعته وعظمته، وليس كشفاً للحقيقة اليقينية.

فقالوا: إن هذا الكون ليس واسعاً فقط، وإنما هو يتوسع دائماً وبانتظام.
ولكي نفهم سعته وتوسعه قالوا: يجب أن نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية، أي بسرعة الضوء، وأن هذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن، فإن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ألف مليون سنة.

يضاف إلى هذا أن هذا الكون ليس بمتجمد، وإنما هو يتوسع كل لحظة، حتى أنه بعد ١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مليار وثلاثمائة مليون سنة تصير هذه المسافة الكونية ضعف المسافة الحالية.

وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية أن تكمل دورانها حول هذا الكون أبداً، وإنما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم في الكون.

وهذه هي نظرية أينشتين عن الكون[1].
والذي دفعهم للقول بتوسع الكون هو مشاهداتهم التي رأوا فيها أن السدم الخارجية أو «الجزر الكونية» تبدو أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية، كما أنها تتباعد بعضها عن بعض بانتظام.

فقد لاحظ الدكتور «هايل» رائد الباحثين في السدم، لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الشاسعة البعد، وهي أنها أميل إلى الإدبار عنا منها إلى الإقبال، كما لاحظ أن سرعة الإدبار تزيد بازدياد أبعاد هذه الجزر الكونية[2].

---

(١) الإسلام يتحدى: ص ٧٦.
(٢) انظر: كتاب الشمس للدكتور جامو.

وقد مثل هذا التوسع الدائم المستمر، مثله البروفسور «أيدنجتون» بقوله: «إن مثال النجوم والمجرات كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط، وهو ينتفخ باستمرار، وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها كحركاتها الذاتية، في عملية التوسع الكوني».

ويقول: إن دائرة المادة كانت ١٠٠ مليون سنة ضوئية في أول الأمر، وقد أصبحت هذه الدائرة الآن عشرة أمثالها.

وخلاصة القول: أن العلم الحديث اليوم يؤمن بأن هذا الكون واسع جداً، وأنه كل يوم يزداد اتساعه وبانتظام.

لقد توصل العلماء إلى هذه النظرية التي تكاد تكون عندهم مسلمة، وعلى الأقل طبقاً لمشاهداتهم الحالية، لقد توصلوا إليها بعد طول بحث ونظر، وبعد أن تمكنوا من القوانين العلمية، والضوابط الفلكية، والوسائل البصرية، ولولا هذا لكان من المستحيل عليهم أن يتوصلوا إلى مثل هذا، وهذا أمر يقيني مسلم في قوانين العقل وضوابطه.

ترى.. ماذا يقول العلماء المعاصرون، لو أن إنساناً لا يعرف شيئاً عن العلوم الفلكية، والقوانين العلمية، ولا يملك شيئاً من الوسائل البصرية، ونشأ في بادية أو شاهق جبل، ثم بعد هذا أخذ ينطق بنفس القوانين العلمية، والنظريات الكونية، في شتى مجالات العلم، وبنفس النتائج التي توصلوا إليها بعد جهد جهيد، ودأب طويل...؟.

لا شك أن مثل هذا الإنسان سوف يكون محل دهشة واستغراب، ولا بد أن يعزى تصرفه هذا إلى قوى وطاقات وراء طاقات الإنسان وقواه.

بل ماذا يقولون لو زدنا في هذا الموضوع شيئاً أشدّ غرابة، فقلنا: إنه قال هذا الكلام، ونطق بنفس النظريات الحديثة قبل أربعة عشر قرناً، وفي الزمن الذي كان يجهل الإنسان فيه تماماً كل شيء عن أصل الكون، وهو مع هذا أمي لا يقرأ، ولا يكتب، ولم يعرف شيئاً عن فلسفة اليونان، وقوانين الرومان، كما لم يدرس شيئاً عن الكون والحياة..؟!.

لا شك أن كل من يسمعه ينطق بنفس النظريات العلمية التي ينطق بها العلم الحديث، سوف يقول وبكل ثبات: إن هذا الذي نطق به يستحيل أن يكون من قول البشر، لأنه لا يدخل تحت طاقاتهم وإمكانياتهم في ذلك الوقت، لا بدّ أن طاقة وراءه هي التي لقنته هذا، ولا بدّ لهم أن يعترفوا بأنه الوحي من الله.

فلنستمع إذاً إلى القرآن الكريم وهو يذكر لنا نفس هذا الكلام، وبنفس الأسلوب، قبل أربعة عشر قرناً من الزمان.

قال تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد، وإنا لموسعون﴾ (سورة الذاريات: آية ٤٨).

وليقر كل ذي عقل وإنصاف أن هذا القرآن كلام الله ووحيه، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ (سورة فصلت: آية ٤٢).

الآيـة العـاشرة

﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾

والاعجاز العلمي فيها

إن أقرب كواكب المجموعة الشمسية إلى الأرض هو القمر، فهو لا يبعد عن أرضنا سوى ٢٤٠,٠٠٠ ميلاً في الفضاء، وبسبب هـذا القرب نجـد أن القمر يؤثر بجاذبيته على البحار مرتين يومياً، وذلك في حركتي المد والجزر.

وفي بعض حالات المد، نجد أن الأمواج تـرتفع عـالياً حتى تصـل إلى الستين متراً، وهذا بالنسبة للبحار.

وأما بالنسبة للأرض، فإن لجاذبية القمر تأثيراً قوياً عليها، لدرجة أنه يحني القشرة الأرضية مرتين نحو الخارج، في اليوم الواحد، ولمسافة عدة بوصات.

إن هذه المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماماً لصالح الأرض وأهلها.

فلو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفاً من الأميال ـ على سبيل المثال ـ فسوف يحدث طوفان شديد في البحار، وسوف تغـطي أمواجهـا أكثر منـاطق الأرض المأهولة، وسوف يفرق كل شيء، حتى إن الجبال ستتحطم من شـدة أمواج البحار، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة جاذبية القمر.

ويرى علماء الفلك أيضاً أن الأرض قـد مرت بكـل هذه الأدوار أثنـاء عمليات التكوين، حتى وصلت إلى بعدها الحالي من القمر، بناء على قانون الفلك.

وهذا القانون هو نفسه سوف يأتي بالقمر قريباً من الأرض مرة أخرى، ويرون أنه من المتوقع حدوث هذا قبل بليون سنة، وعندئذ سوف ينشق القمر، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض، في صورة حلقة.

هكذا قال علماء الفلك، بناء على القوانين الفلكية الثابتة التي توصلوا إليها وأدركوها.

وهذه النظرية الفلكية تنطق بنفس المعنى الذي وردت به الآية التي تخبر عن انشقاق القمر قبل أو حين يقترب قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ (سورة القمر: آية ١ ـ ٢).

فهل هناك بعد هذا التطابق بين النظرية العلمية والآية القرآنية من تطابق... أظن أنه لا مجال لأي نوع من أنواع الشك في أن هذا أبدع أنواع الإعجاز العلمي في القرآن.

بقيت عندنا مشكلة مهمة جداً، ألا وهي مشكلة المعنى الذي ذكرناه للآية، وهو انشقاق القمر حين تقترب الساعة، مع ان لفظة الانشقاق جاءت بصيغة الماضي «انشق».

والأحاديث الصحيحة مصرحة بوقوع حادثة الانشقاق في زمن النبي ﷺ.
فقد روي من طرق صريحة صحيحة، ونسبه بعضهم إلى التواتر.
فقد رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والترمذي، وابن حبان، والطبراني، وابن مردويه، وغيرهم من المحدثين، عن عدد من الصحابة.

والصحيح الذي عليه أكثر العلماء أنه ليس بمتواتر.
قال الإمام الخطابي: «إن معجزاته ﷺ سوى القرآن لم تتواتر» ثم ذكر الحكمة في عدم تواترها[1].

---

(١) محاسن التأويل ١٥/٥٥٩٣ والقرطبي.

إذن فهو من أخبار الآحاد، الموافقة لظاهر التنزيل، إلا أنها كما قال القرطبي لا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليل.

قال الإمام الغزالي: «ولذلك أنكره الإمام الحليمي»[1].

وما قاله الإمام الحليمي من إنكار انشقاق القمر، لم يكن متفرداً به، وإنما سبقه إليه من التابعين الحسن البصري، وعطاء، ونقله الإمام القرطبي عن قوم لم يذكر أعيانهم، وممن اختاره من المتأخرين الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير.

وحجة الحسن ـ كما قال الإمام الماوردي[2] ـ: أنه لو انشق ما بقي أحد إلا رآه، لأنها آية، والناس في الآيات سواء.

وهذه حجة من قال بقوله ممن ذكرنا.

وحملوا قوله تعالى: ﴿وانشق القمر﴾ على معنى أنه سينشق.

قال الحسن: «اقتربت الساعة، فإذا جاءت انشق القمر»[3].

وهذا جار على أساليب العرب والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾.

فقد اتفق المفسرون على أنه بمعنى سيأتي، ففي هذه الآية استعمل الماضي بمعنى المضارع، ايغالاً في التأكيد.

وعلى هذا حملوا قوله تعالى: ﴿وانشق القمر﴾ أي أنه سينشق، وهذا الانشقاق متأكد، كأنه قد وقع وحدث، ولذلك عبّر عنه بصيغة الماضي.

وهؤلاء وإن كانوا متأولين للآية تأويلاً صحيحاً من حيث اللغة، إلا أنهم متعارضون مع ما صح بالاتفاق من الحديث، ولا حجة لهم في رده من حيث

---

(١) المنخول: ص ٢٤٨.

(٢) تفسير الماوردي: ٤/ ١٣٥.

(٣) القرطبي ١٧/ ١٢٦.

السند، إلا إذا أرادوا أن يخضعوا متنه لقاعدة التعارض مع المعقول فيما استقر في أذهانهم منه، كما قاله الحسن البصري رحمه الله.

إلا أن وجهة نظرهم من حيث اللغة قوية، وحجتهم من حيث الواقع وعدم شيوع الظاهرة بين الناس واضحة.

ولذلك ذهب جمهور المفسرين إلى التوسط بين المذهبين فقالوا: إن حادثة الانشقاق قد وقعت فعلاً في زمن النبي ﷺ، ورآها بعض أصحابه وبعض المشركين الذين كانوا يطالبون بالمعجزات المادية، كما تصرح بذلك الأحاديث الصحيحة المشهورة.

وستقع هذه الحادثة مرة ثانية عند اقتراب الساعة.

وهذا مذهب جيد، يجمع بين القول بصحة الحديث، وفي نفس الوقت يؤكد ـ وبالأساليب العربية المتفق عليها ـ يؤكد البحوث العلمية الفلكية القاضية بأن القمر سينشق يوماً ما، ولا مانع يمنع من هذا، لا من الشرع، ولا من القواعد العلمية، والله أعلم.

الآية الحادية عشرة

﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه﴾

وتلقيح السحاب

قال الله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً، ثم يؤلف بينه، ثم يجعله ركاماً، فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عمن يشاء﴾ (سورة النور: آية ٤٢).

وهذه الآية بالمعنى العام المفهوم لكل أحد، واضحة الدلالة على المراد، من أن الله يسوق السحاب، ثم يجمعه، ثم ينزل منه الماء، منة على عباده، ورحمة بهم.

وفيها إظهار القدرة بما يتناسب مع معارفهم. إذ يستحيل على أحد أياً كان أن يفعل هذا.

فقالوا في تفسير الآية: «يزجي» أي يسوق، فالريح تزجي السحاب، والبقرة تزجي ولدها.

﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمعه عند انتشائه، ليقوى ويتصل ويتكثف ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي مجتمعاً، يركب بعضه بعضاً.

وأما ﴿الودق﴾ فقالوا: هو البرق، وقالوا: هو المطر.

ثم قالوا: إن في هذه الآية دليل على القدرة، وعبرة لأهل البصائر.

وهذا الذي قالوه صواب، لا مرية فيه، وهو الذي نقوله اليوم، ويقال في كل زمان ومكان حسب مقتضيات اللغة ومدلولاتها.

إلا أن هناك شيئاً نقوله اليوم بما يتراءى لنا من خلال كلمات الآية، وضميمة آيات أخرى إليها، وبواسطة معارفنا الحديثة التي لم يكن الإنسان القديم على أية معرفة بها، ولذلك لم يكن في مقدوره أبداً أن يفكر بها، أو أن يتخيلها.

وليس معنى هذا أن تفسيره كان ناقصاً، لا، لقد كان تفسيره كاملاً، متناسباً مع معارف العصر، ومؤدياً للغرض الذي سيقت له الآية، إلا أننا في هذا العصر اكتشفنا شيئاً جديداً، يمكن أن يفيدنا شيئاً جديداً في الآية، ألا وهو أنه يستحيل أن تكون كلماتها قد صيغت من قبل البشر، لأن معارفهم لم تكن أبداً بقادرة على الإتيان بمثلها، لما فيها من المعارف التي لم تكن معروفة لهم أبداً، ولم تطلع عليها الإنسانية إلا في العصر الحديث، بتقدم العلوم، واكتشاف قوانين الكون، ووضع اليد على بعض أسرار الوجود.

وذلك أن السحاب مكهرب، أي أن كل سحابة تحمل شحنة كهربية، كما أثبت ذلك فرنكلين لأول مرة عام ١٧٥٢.

ومن المعروف الثابت علمياً أنه إذا وجد سحابتان سالبتان فإنهما تتنافران، كما هي طبيعة المتماثلين من الشحنة السالبة والموجبة، فالسالبان يتنافران، والموجبان يتنافران، وإنما يكون التآلف بين السالب والموجب.

وبناء على هذا القانون، كان من المفترض أن لا تتحد سحابتان في الجو، إذا كانتا مشحونتين بشحنة واحدة، ويترتب على هذا أن لا يتراكب السحاب، مما يؤدي إلى قلة الأمطار، ولكن الله بقدرته يسوق السحاب، بواسطة الرياح، ويؤلف بينه، ولو كان ذا شحنة واحدة متشابهة، وعندئذ تكبر السحابة، وتتراكم بعضها فوق بعض حتى تصير كالجبال الشامخة.

فهذا سر جديد قد كشفه العلم الحديث في قوله تعالى: ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي رغم اتحاد الشحنة، لم يكن أبداً لأي إنسان أن يعرفه في العصر القديم، لجهله بهذه المعاني، وإن لم يؤثر على الغرض الذي سيقت له الآية في ذلك العصر

كما ذكرنا، وهذا يدلنا دلالة قاطعة على أنه يستحيل أن يكون هذا القرآن من عند البشر.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وذلك لأن السحاب في هذه الحالة لا يمكن أن ينزل المطر، إذ لا بد له حتى يمطر من شيء يتفاعل معه ليتكثف ويتقاطر على الأرض، ويكون هذا بواسطة الرياح الصاعدة من الأرض، والمحملة بشحنة كهربائية موجبة.

فإذا ما اتحدت هذه الشحنة الكهربية الموجبة التي حملتها الرياح، مع الشحنة الكهربية الموجودة في الفضاء يتكون مجال كهربائي يكون السبب في تحويل البخار إلى قطرات دقيقة من الماء، ومن ثم تتجمع وتكبر شيئاً فشيئاً إلى أن تثقل وتنزل مطراً على الأرض.

إذن فالسحاب وحده لا ينزل المطر، ولا بد له من تلقيح، وهذا التلقيح إنما يكون بواسطة الكهرباء الجوية التي تسببها الرياح.

أليس في هذا الكلام العلمي الحديث معنى جديد لقوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾.

بلى... إنه المعنى العلمي الجديد الذي يفهمه العقل العلمي المعاصر، والذي كان من المستحيل على الإنسان القديم أن يقوله، إن لم يكن مؤيداً بالوحي الإلهي، وإنه من أكبر الأدلة القاطعة على أن هذا القرآن كلام الله ووحيه.

على أن هذه المعرفة الجديدة لم تنقض المعرفة السابقة، ولم تبطلها، فقد عرف كل من قرأ هذه الآية قديماً أن الهواء هو السر في جمع السحاب، وإنزال المطر، وأنه هو الذي يلقح السحاب، ولكنه أبداً لم يكن على معرفة بحقيقة هذا السر وكيفية حدوثه، إلى أن جاء العلم الحديث فأماط اللثام عنه، وكشف حقيقته، ليكشف للإنسان في العصر الحاضر أنه لا يمكن أن يكون هذا القول إلا من قبل خالق الكون، والسحاب، والرياح، إنه قول الله.

وما أكثر ما كشفه لنا العلم، وما سيكشفه لنا في المستقبل القريب.

الآية الثانية عشرة
﴿ألم نجعل الأرض كِفاتاً، أحياءً وأمواتاً﴾
وجاذبية الأرض

عندما اكتشف نيوتن قانون الجاذبية، وأثبت من خلاله أن الأشياء إنما تسقط على الأرض أو تثبت عليها بفعل هذا القانون، كما أثبت أن النظام الفلكي في ثبات النجوم وتباعدها إنما يخضع لهذا القانون، قام فلاسفة الإلحاد يهللون ويبشرون بأنه قد انتهت أسطورة القول بأن الله هو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض، وأن تعلق الكواكب في الفضاء لم يعد بحاجة إلى مثل هذه الأسطورة القديمة، إذ كشفنا عن سر تعلقها باكتشافنا قانون الجاذبية.

ولكن سرعان ما خبا بريق هذا الانتصار الموهوم الذي زعموه ـ وذلك عندما أعلن نيوتن نفسه أن قانونه هذا لا يفسر له سر دوران الكواكب حول نفسها، أو حول مركزها، وأنه لا بد من يد قدرة حكيمة كانت هي السبب في هذا الدوران، كما انقلبت أوهامهم إلى شكوك حينما وجه إليهم السؤال الآخر وهو: من الذي سن قانون الجاذبية، ومن أين أتى؟.

والعلم سلاح ذو حدين، قد يستعمله الإنسان ليقتل نفسه، كما أنه قد يستعمله ليقتل غيره...

وكما أن فلاسفة الإلحاد حاولوا أن يستنبطوا من اكتشاف قانون الجاذبية ما يدعم إلحادهم ـ على أن محاولتهم كانت فاشلة بلهاء ـ أخذ المؤمنون هذا القانون ووجدوا فيه ما يدعم إيمانهم ويثبته في قلوبهم.

وذلك أنهم وجدوه مطابقاً لما أخبر الله عنه منذ قرون طويلة، في الوقت

الذي كان الإنسان يجهل فيه تماماً كل معنى من معـاني الجاذبيـة، مما جعلهم يوقنون بأن هذا الكلام من أكبر الأدلة القاطعة على أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الله خالق الكون، والعالم بأسراره.

قال تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً، أحياءً وأمواتاً﴾.

وإذا رجعنا إلى معنى الكفت في العربية وجدناه منصباً على الضم والجمع، يقال: كفتَ الشيءَ إليه، يكفته، كفتا، إذا ضمه وقبضه.

ويقال: كفَتَه الله: أي قبضه.

وفي حديث النبي ﷺ: «اكفتوا صبيانكم فإن للشيطان خَطْفَةً».

قال أبو عبيد: يعني ضموهم إليكم، واحبسوهم في البيت عند انتشـار الظلام.

وفي الحـديث أيضاً: «نهينـا أن نكفت الثياب في الصـلاة» أي نضمهـا ونجمعها من الانتشار، يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود.

ويقال: كفتَ الدرع بالسيف يكفِتُها: إذا علقهـا به فضمهـا إليه قـال زهير بن أبي سلمى:

حدباء يكفِتُها نِجادُ مُهنّدِ

وكل شيء ضممته إليك فقد كَفَتُّهُ.

قال زهير أيضاً:

ومُفـاضَـةٍ كـالنِّهي تنسجـه الصَّبـا بيضـاءَ كُـفِّتَ فَـضْـلهـا بِمُـهَـنَّـدِ

يصف درعاً علق لابسها بالسيف فضول أسافلها، فضمها إليه، وشدد الكلمة للمبالغة.

وأما الكِفاتُ: فهو الموضع الذي يكفت فيه الشيء، أي يضع ويقبض ويجمع.

والأرض كفات لنا، للأحياء والأموات.

قال ابن سيده في قوله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً، أحياءوأمواتاً﴾ أي ذات كفات للأحياء والأموات، ظهرها للأحياء، وبطنها للأموات، اهـ على معنى أنها تجمعهم وتضمهم.

ويقال: اكتفت المال: إذا ضمه إليه أجمع[1].

ومن هذا قول الشاعر:

كرام حين تنكفت الأفاعي ... إلى أجحارهن من الصقيع

أي حين تنجذب الأفاعي إلى داخل جحورهن من شدة البرد.

ولو أننا تتبعنا هذه المادة في جميع مشتقاتها لوجدناها بمعنى الضم والجمع، والقبض والجذب.

إذاً فهذه الآية تدلنا بصراحة على هذا المعنى العلمي الدقيق الذي اكتشفه الإنسان المعاصر بعد جهد جهيد من البحث والتدبر والملاحظة، ألا وهو معنى الجاذبية التي توجد في الأرض، والتي بواسطتها يستقر الإنسان عليها، وينجذب إليها.

«ولكي لا يتصور متصور أن هذا الجذب أو الضم إنما يكون إذا دفن الإنسان بعد موته في باطن الأرض جاء القيد المعمم يقول: ﴿أحياءً وأمواتاً﴾ أي إنا جعلناها بحيث تجذبكم إليها إذ تكونون أحياء تتحركون على ظهرها، وإذ تعودون أمواتاً مدفونين في باطنها»[2].

إننا حينما نقرأ هذه الآية، وندرك المعنى اللغوي المتفق عليه لمادة كفت، نوقن وبلا تردد في أنها ناصة على معنى الجاذبية.

فإذا علمنا يقيناً بأن هذا المعنى، بمعناه العلمي المعاصر، لم يكن معروفاً أبداً في زمان النبي ﷺ، لا من قبل العرب، ولا من قبل غيرهم من الأمم

---

(١) وانظر تاج العروس: كفت.

(٢) عن مقال للدكتور البوطي في مجلة العربي رقم ٢٤٦ سنة ١٣٩٩ - ١٩٧٩.

السالفة، وأن معنى الجاذبية العلمي المعاصر لم يكتشف إلا منذ أمد قريب، على يد العالم الإنجليزي الشهير نيوتن في القرن الثامن عشر الميلادي، إذا علمنا هذين الأمرين، وتجردنا من العصبية والهوى، وأخضعنا البحث للمنطق المجرد، أدركنا يقيناً بأن هذه الآية لم يكن أبداً من الممكن أن تكون من قبل البشر، لأنها قيلت في الزمن الذي لم يكن الإنسان يعرف فيه شيئاً عن معناها.

إذن فهي من قول المطلع على الأسرار، العالم بالخفايا، والراسم للقوانين، إنها من قول الله، معجزة قرآنية باقية على الزمان لتدل الإنسان في كل مكان وزمان على أن هذا القرآن من عند الله.

الآية الثالث عشرة

﴿وإذا البحار سُجِّرَت﴾

واحتراق الماء

لقد كان الإنسان القديم يصنع سفنه من الخشب، وكان يعتقد أن الماء لا يحمل إلا ما يكون أخف منه وزنا، وحينما تطور الفكر الإنساني بالترقي في العلوم والمكتشفات، توصل بعضهم إلى أن السفن الحديدية سوف تطفو يوماً ما على سطح الماء، كما تطفو السفن المصنوعة من الخشب.

ولكنه ما إن ألقى كلامه هذا حتى ثار الناس عليه، وأنكروا مقالته، ونسبوه إلى الهذيان.

وذلك لأن عقولهم لم تستوعب أبداً إمكانية أن يطفو الحديد على سطح الماء.

ولكي يثبتوا هذه الحقيقة الموهومة جاء أحد الحدادين بنعل من حديد، وألقاه في دلو مملوء بالماء أمام الناس، ليشهدوا على أن هذه القطعة الحديدية بدلاً من أن تطفو على سطح الماء ـ كما يزعم ذاك المفكر المعاصر لهم ـ قد غرقت واستقرت في قاعه.

ومن ثم استدل ذاك الحداد ـ فيما توصل إليه عقله، وقاده إليه منطقه، استدل على بطلان كلام ذلك المفكر المعاصر له.

وهكذا فإن الإنسان الذي يجهل الحقيقة يعاديها، ومن ثم يقيم البراهين الموهومة على كذبها وبطلانها، ليسلم له علمه الباطل.

ولذلك قالوا: الإنسان عدو ما يجهل.

بنفس هذا المنطق جابه المشركون رسـول الله ﷺ في كثير من الحقـائق التي أتى بها، والتي لم تدركها عقولهم، ولم تتسع لها معارفهم.

فحينما أخبرهم رسول الله ﷺ بالبعث بعد الموت، أخـذ أبي بن خلف عظماً بالياً، وفته ثم ذراه في الرياح، ثم قال لرسول الله: أتزعم أن ربك يبعث هذا..؟!.

وهذا هو شأن الإنسان مع ما يجهل أو ينكر.

ومما كان الإنسان يجهله جهلاً كاملاً، ولا يمكن له أن يتصور خلافه، هو احتراق الماء، وذلك لما كان يعرفه من أن الماء يطفيء النار ويذهب بلهيبها، لا أنه يحترق ويشتعل كما تشتعل الأخشاب.

ولو أن أي إنسان طرح فكرة احتراق الماء واشتعاله أمام الإنسان القديم، لأنكرها أشد الإنكار، ولاستـدل على بطلانها كما استـدل الحداد عـلى بطلان إمكانية طَفْو الحديد على سطح الماء.

ولكنه رغم هذا، وفي الوقت الذي كان الإنسان ينكر فيه احتراق الماء؛ نزل القرآن بما يدل صراحة على احتراقه، فقال تعالى: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ أي: اشتعلت.

لقد سمع المؤمنون هذه الآية، وآمنوا بها إيماناً غيبياً، آمنوا بأن الماء يحترق ويشتعل، ولكن لماذا؟ وكيف..؟ لم يكن عندهم جواب عن هذا.

لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن سر تكوين الماء وتركيبه.

وجاءت العلوم والمعارف الحديثة، واكتشفت أن الماء يتكون من عنصرين هما: الهيدروجين والأوكسجين، وأن الجزيء المائي الواحد يشتمل على ذرتيـن من عنصر الهيدروجين، وذرة واحدة من الأوكسجين، وأن الهيدروجين غاز قابل للاحتراق ويشتعل، وأن الأوكسجين غير قابل للاحتـراق ولا يشتعل، ولكنـه يساعد على الاشتعال.

ومعنى هذا أن جزيء الماء الواحد لو تحلل، لأمكن أن يشتعل، ولأعطانا أشد أنواع الاشتعال والاحتراق، بسبب تكونه من هـذين الغازين، المشتعـل والمساعد على الاشتعال، كما هو معروف ومسلم في العلوم.

إننا حينما نرجع إلى قول الله تعالى: ﴿وإذا البحار سجرت﴾ ونستحضر هذه الحقيقة العلمية اليقينية عن الماء، نجد أنفسنا أمام معجزة علمية ناطقة بأن هذا القرآن يستحيل أن يكون من عند البشر، وذلك أنه لم يكن هناك أي سبيل للإنسان يستطيع بواسطته أن يضع يده على هذه الحقيقة، بـل كانت معـارفه ومعلوماته تضادها وتعاكسها.

ولو أن محمداً ﷺ أراد أن يتحدث عن الماء لتحـدث عنه بلغـة عصره ومعارفه، ولأخبر عنه بأنه مبطل للاحتراق، لا أنه يحترق.

إذن فمن المحال أن يكون هذا القرآن من كلام محمد ﷺ، وإنما هو من كلام الله ﴿الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى﴾ إنه كلام العليم الخبير.

ازدياد حجم الأرض بالماء:

ومن هذا القبيل، مما له علاقة بالماء، ما أخبر الله به عن الأرض، من أنها تهتز ويزداد حجمها حين ينزل عليها المطر: قال تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج﴾.

فالقرآن يصرح في هذه الآية بأن الأرض إذا نزل عليها المـاء اهتزت، وازداد حجمها.

لقد نزلت هذه الآية في الوقت الذي لم يكن الإنسان يعرف فيه شيئاً عن هذه الحقيقة العلمية الثابتة.

إلى أن جاء العلم الحديث، وأثبتت بحوث العلماء أن الأرض لها مسام يتخللها الهواء، وأن نزول الماء عليها يطرد الهواء من هذه المسام، ويحل محلها، وعندما تمتليء مسام الأرض بالماء بدلاً عن الهواء، تتحرك جزيئات الطين بقوة دفع الماء في المسام، ومن ثم يزداد حجم الأرض، بتمدد الطين بالماء.

وقد تمكن العلماء من قياس حركة الأرض إذا ما أصابها الماء، كما تمكنوا من معرفة الزيادة في حجمها.

أو ليس في هذه الآية كسابقتها ما يدل دلالة صريحة على مطابقة القرآن للحقيقة العلمية الثابتة التي اكتشفها الإنسان الحديث؟.

بلى... إنها المطابقة اليقينية بين العلم والقرآن، مما يدل دلالة قاطعة على أن هذا القرآن من كلام الله، وأنه المعجزة الناطقة بذلك.

الآية الرابع عشرة

﴿من يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾

وتغير ضغط الهواء في المرتفعات

لم يكن الناس في الماضي يعرفون شيئاً عن الضغط الجوي، بل لم يكونوا يتصورونه، فلم يكونوا يعرفون ازدياد الضغط في المنخفضات، وقلته في المرتفعات.

ولذلك لما نسجوا أساطيرهم الوهمية عن الطيران في الفضاء والتحليق في أعماقه، لم يتعرضوا لهذه المسألة، لأنها لم تخطر لهم على بال، لما كانوا عليه من الجهل المطبق بها.

لقد تصور الناس في الماضي التحليق في أعماق الفضاء بخيالهم الواسع، فزعموا أن النمرود قد حلق في أجواز الفضاء، وذلك عندما أتى بنسرين وغذاهما باللحم والخمر حتى كبرا جداً، ثم ربط بأرجلهما قفصاً حديدياً كبيراً، وجعل فوق القفص وعلى بعد من النسرين جيفة، ثم ركب القفص، وحال بين النسرين والجيفة، فطار النسران لالتقاطها، إلا أنهما كلما طارا للحاق بها ارتفعت عنهما، لاتصالها بالقفص الحديدي المعلق بأرجلهما، والذي كان يجلس النمرود في وسطه.

وما زالا يرتفعان إلى أن أبصر الأرض كرغيف الخبز، ثم ارتفعا إلى أن أبصر الأرض كالكف، ثم ارتفعا إلى أن أبصر الأرض كعين الديك.

ولا أريد أن استطرد في سرد هذه القصة التي حاكها خيال بني إسرائيل، والتي تناقلتها الكتب التي عنيت بالإسرائيليات.

ولكن الذي أريده من هذه القصة هـو أن الإنسان القـديم قد تصـور الارتفاع بالجو، ولكن تصوره كان ساذجاً، متوافقاً مع معارفه في ذلك الزمان، ولـذلك لم يحسب أي حسـاب لخفة ضغط الهـواء، وقلة الأوكسجين، وضيق التنفس في حال الارتفاع إلى مثل هذه المسافة التي صورها خياله الساذج.

ولو أننا ذهبنا نفكر بالأمر حسب معلوماتنا المعاصرة، وتصورنا المسافة التي وصل إليها في ارتفاعه حتى أبصر الأرض كعين الديك في الصغر، لفهمنا أنه قد ارتفع إلى مسافة بعيدة جداً تقارب مسافة الأقمار الصناعية اليوم، وهذا يعني في معلوماتنا الحديثة أنه من الضروري أن يكون قد تفجرت شرايينـه، ومن ثم اختنق ومات لقلة الضغط، وعدم إمكانية التنفس. . . ؟.

فكيف صعد إلى تلك المسافة الموغلة في الفضاء، ثم رجع إلى الأرض، دون أن يصاب بأي أذى، ودون أن يتحدث الروائيون والقصصيون عما صادفه على الأقل من بعض المتاعب في تنفسه وضيق صدره. . .

إنه خيال جميل، وتفكير دقيق سليم، وربما كان يحالفه الحظ في محـاولة الإنسان الطيران. . إلا أنه ساذج بالنسبة لمعلوماتنا المعاصرة، يدل دلالة قاطعة على أن الإنسان القديم كان على جهل كامل بكثير من الأمور المتعلقة بالفضاء، ومن أهمها مسألة الضغط الجوي، ونقص الأوكسجين، وعدم إمكانية التنفس.

ولم يكن الخيال العربي بأقل من الخيال الإسرائيـلي، فقد نسـج العرب أيضاً، وبمعارف بيئتهم، قصة خيالية عن سيف بن ذي يزن، الـذي شغفهم بقصته حباً، وزعموا أنه سخر العفريت لحمله، وأنه ركب ظهره، وطار به في الجو حتى أبصر الأرض بقدر الكف، كما ذكرنا في القصة الماضية.

ولكنهم أيضاً لم يتعرضوا لشيء عن انخفاض الضغط في مثل هذا الارتفاع الهائل.

والسبب هو ما ذكـرناه من أن الإنسـان القديم لم يكن عـلى علم بهذه الحقيقة، إذ لم يجرب أحد أبداً الصعود في السماء. . لأنه لم يكن إلى ذلك من سبيل.

وأنا إذ أذكر هاتين القصتين لا أذكرهما لذاتهما، وإنما أذكرهما لأصل إلى حقيقة يقينية، ألا وهي: أن الإنسان لم يكن على أية معرفة بتغير الضغط وقلته كلما ارتفع الإنسان في الفضاء، وأن هذا يؤدي إلى ضيق التنفس، وفي مرحلة ما يؤدي إلى تفجر الشرايين والاختناق.

إلا أننا نجد أن القرآن الكريم قد أشار إلى كل هذا بكل صراحة ووضوح، فقال تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾ (سورة الأنعام: آية ١٢٥).

فالآية تنص وبصريح العبارة أن صدر الإنسان يضيق إذا صعد في السماء، وأن هذا الضيق يزداد كلما ازداد الإنسان في الارتفاع إلى أن يصل إلى أضيق الضيق، وهو معنى الحرج في الآية، كما فسره علماء اللغة.

ولقد عبرت الآية عن هذا المعنى بأبلغ تعبير في قوله تعالى: ﴿كأنما يصعد﴾ إذ أن أصلها «يتصعد» قلبت التاء صاداً، ثم أدغمت الصاد في الصاد، فصارت «يصعد» ومعناه أنه يفعل صعوداً بعد صعود، كتجرع الشراب وتفوقه.

فالآية لم تتكلم على مجرد الضيق الذي يلاقيه المرتفع في الجو، الصاعد في السماء فقط، وإنما تكلمت أيضاً على ازدياد هذا الضيق كلما ازداد الارتفاع في الفضاء، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يصعد في السماء﴾.

إن أحداً من المفسرين القدماء لم يتعرض لهذه الآية بهذا المعنى الذي نفهمه اليوم بعلومنا المعاصرة، ولكن فسروه تفسيراً لغوياً بما يتناسب مع معارفهم، والآية صريحة وواضحة في معاييرنا العلمية اليوم.

فمن الذي علم محمداً ﷺ هذه الحقيقة العلمية التي كانت خافية على الناس في عصره، وفيما بعد عصره لأمد طويل.

وكيف تمكن أن يصوغها بهذا الأسلوب الذي يتماشى مع أدق التعبيرات

العلمية المعاصرة؛ إنه الله الـذي قال لـه: ﴿وعلمك مـا لم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيماً﴾.

إنها الآية الناطقة الدالة على أن هذا القرآن ما كان لأحد أن يفتريه أو يتقوله إذ: ﴿لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

ولكنه كلام الله الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ يدل به خلقه في كل زمان ومكان على قدرته وعظمته.

الآية الخامس عشرة

﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾

ونظرية التزحزح القاري

لقد درسنا ونحن صغار في المدارس نظرية التزحزح القاري، أو نظرية تباعد القارات على النحو المعروف اليوم في الأوساط العلمية.

ولكن ومع الأسف لم نكن حينما درسنا تلك النظريات العلمية في أوساط علمية تحيط بنا خارج مدارسنا، وإنما كنا في أوساط يمكن أن يقال عنها إجمالاً: إنها أوساط أمية، كانت امتداداً لفترة الركود التي سيطرت على أمتنا حتى سادها الجهل، وانتشرت فيها الخرافة، وبعدت الهوة بينها وبين الحضارة المادية المعاصرة، وكادت تلحقنا ـ إذا ما قسنا أنفسنا بالحضارة المحيطة بنا في الشرق والغرب ـ كادت تلحقنا بالعصور الحجرية.

ولم يكن في أساتذتنا من يستطيع أن يوجه لنا العلوم لتتوافق مع ما وقر في قلوبنا من معتقداتنا الإسلامية، إما لجهله بعلوم الشرع، وإما لغاية في نفسه يريد الوصول إليها.

وكذلك لم نكن نجد في أكثر علماء الشرع من يتقن تلك العلوم، ولذلك كان يستنكر كل ما من شأنه التطور، إذ آمن بالخلق المباشر، ومن ثم كان يقذف كل من تعرض لمثل هذه النظرية ـ كان يقذف بالفسق وربما بالكفر.

ولذلك كنا في حيرة بين الإيمان بالخلق المباشر، وبين ما كان من قبيل هذه النظرية، إلى آن نبغ في الأمة من استطاع الإحاطة بالمعتقدات الشرعية، والعلوم الكونية، ومن ثم بين أن هذا الذي ندرسه اليوم في كثير من القوانين العلمية

ليس معارضاً لمعتقداتنا، وليس مكذباً لكتابنا، ولكنه كاشف عن معجزة جديدة من معجزات هذا الكتاب العظيم.

إن نظرية تباعد القارات تفترض أن جميع القارات كانت في وقت من الأوقات قطعة واحدة متلاصقة، على أصل الخلقه، ثم انشقت تلك الأرض، وبدأت أجزاؤها بالتباعد والانتشار، وبهذا تشكلت القارات، وملأت المسافة الفاصلة بينها المياه مشكلة البحار.

وقد طرحت هذه النظرية لأول مرة في العالم عام ١٩١٥، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألماني الأستاذ «الفريد واجنز» أنه لو قربت القارات جميعاً، فسوف تتماسك ببعضها، كما يحدث في ألعاب الألغاز التي يتدرب عليها الأطفال لإبراز مهاراتهم.

وإن نظرة سريعة خاطفة لسواحل البحار المختلفة على الكرة المجسمة، ليدلنا دلالة صريحة وصحيحة على هذا المعنى، كما يبدو ذلك جلياً واضحاً لكل ناظر في الساحل الشرقي لأمريكا الجنوبية، والساحل الغربي لأفريقيا، أو في سواحل البحر الأحمر، أو غير ذلك من السواحل.

كما أننا نجد شبهاً كبيراً على سواحل البحار المختلفة، كأن نجد جبالاً متماثلة عمرها الأرضي واحد.

وكأن نجد فيها دواب وأسماكاً ونباتات متماثلة أيضاً.

وهذا ما دفع عالم النباتات البروفسور رونالدجود في كتابه «جغرافية نباتات الزهور» هذا ما دفعه لأن يقول:

«لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة في مختلف قارات العالم إلا إذا سلمنا بأن أجزاء الأرض كانت متصلة بعضها ببعض في وقت من الأوقات».

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تماماً بعد تصديق «الجاذبية الحجرية» لها.

فإن العلماء اليوم بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة - يستطيعون تحديد موقع أي بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة في الزمن القديم.

وقد أكدت هذه الدراسة في «الجاذبية الأرضية» أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة في القديم بالأمكنة التي توجد بها اليوم، وإنما كانت في ذلك المكان الذي تحدده «نظرية تباعد القارات».

وفي هذا الأمر يقول البروفسور «بلاكيت»:

إن دراسة أحجار الهند تبين أنها كانت توجد في جنوب خط الاستواء، قبل سبعين مليون سنة، وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب أفريقيا أن القارة الأفريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثمائة مليون سنة[1].

لم تكن هذه النظرية معروفة عند القدماء، لا من قريب ولا من بعيد، لا في الواقع ولا في الخيال، ولذلك يستحيل على البشر، مهما أوتي من العبقرية والذكاء أن ينطق بها أو بما يدل من قريب أو بعيد عليها.

فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ (سورة النازعات: آية ٢٠ - ٢١).

وإذا عرفنا أن معنى الدحو إجمالاً هو النثر والتسوية، إذ يقال: دحى المطر الحصى عن وجه الأرض: أي كشفه.

ويقال للاعب بالجوز: أبعد المدى وادحه: أي ارمه وأزله عن مكانه[2].

ويقال للفرس: مر يدحو دحواً، وذلك إذا رمى بيده رمياً.

والمدحاة، كمسحاة، خشبة يدحو بها الصبي، فتمر على الأرض، لا تأتي على شيء إلا اجتحفته[3].

---

(١) الإسلام يتحدى: ص ٢٠٧.

(٢) أساس البلاغة ص ١٨٤، مادة (دحو) وفيه خلق الله الأرض مجتمعة ثم دحاها: أي بسطها، وَمَدَّها وَوَسّعها.

(٣) انظر المجمل ١/٣٤٨ لابن فارس واللسان مادة (دحا).

وفي حديث ابن عمر: فدحا السيل فيه بالبطحاء» أي رمى وألقى.

وقـال ابن الأعرابي: يقـال: هو يـدحو بـالحجـر بيـده، أي يـرمي بـه ويدفعه[1] .

قال أوس بن حَجَر:

يـنــزع جلد الحصى أجشّ مـبتــرك   كــأنه فــاحصٌ أو لاعــبٌ داحــي

وبهذه يتبين لنا أن معنى دحى: قذف، أو رمى، أو دحرج، أو دفع، وكلها بمعنى الحركة، والإبعاد، والانجراف، وهذا هو نفس المفهوم لكلمة DriFT الإنجليزية، التي استخدمت في التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة.

إننا إزاء هذا التوافق المدهـش العجيب الذي ورد في القرآن الكريم قبل قرون كثيرة وبين ما اكتشف في الأمس القريب، لا يمكننا إلا أن نسلم بأن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر في ذلك الماضي البعيد إلا من قبل عالم بحقائق الكون ومدرك لأسراره إنه كلام الله.

على أن بعض من كتب في هذه الآية استدل بها على انفصال الأرض عن السديم، وبعضهم استدل بها على كروية الأرض وبيضويتها، وكلها معان سائغة جائزة.

إذ الدلالة في هذه الآية على هذه المعاني من قبيل الظاهر، لا من قبيل النص، والكل محتمل، ولكل مجتهد نصيب.

---

(١) انظر اللسان مادة (دحا).

الآية السادس عشرة

﴿ألم نجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً﴾

وتوازن الارض بالجبال

قال الله تعالى في معرض الامتنان على الإنسان: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً﴾ (سورة النبأ: آية ٦ - ٧).

وقال تعالى: ﴿وهو الذي مد الأرض، وجعل فيها رواسي وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ (سورة الرعد: آية ٢).

وقال جل وعلا: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ (سورة الحجر: آية ١٩).

وقال: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم، وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾ (سورة الأنبياء: آية ٣١).

وقال جل شأنه: ﴿أمَّنْ جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، أإله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (سورة النمل: آية ٦١).

وقال: ﴿وجعل فيها رواسي شامخات، وأسقيناكم ماء فراتاً﴾ (سورة المرسلات: آية ٢٧).

فنحن نرى في كل هذه الآيات السالفة الذكر - نرى معنى واحداً يواكبها، من أولها آلى آخرها، ألا وهو معنى أن الجبال عنصر التوازن والثبات للأرض، تثبتهاوتمنعها من أن تميد وتضطرب، وتعمل فيها التوازن والاستقرار.

فما هي حقيقة الجبال؟ وما الذي كشفته هذه الآية من وجوه الإعجاز؟.

سؤال يجيب عنه العلم الحديث والمكتشفات الجديدة... وذلك أن طبقة السيال، أوطبقة القشرة الأرضية التي نعيش عليها، هي التي تشكل القارات، وتحتضن المحيطات، وترتفع جبالاً في مكان، وتنخفض ودياناً في مكان آخر، وتشكل السهول الخضراء، والصحارى المقفرة.

وتلي هذه الطبقة مباشرة ضمن ترتيب طبقات الأرض تليها طبقة السيما.

وطبقة السيما هذه أصلب من طبقة السيال، ولكنها تحت ثقل طبقة السيال الهائل يصبح لها قوام عجيني، ما دام الثقل فوقها، وهذا القوام العجيني يسهل انزلاق القارات عليها، كما عرفناه في الآية السابقة، كما يسهل اندفاع البراكين منها.

فقارة أمريكا تنزلق حالياً نحو الشرق بسرعة ملحوظة للقياسات العلمية، كما هو شأن جميع القارات، إذ كانت متصلة ثم انفصلت وتباعدت.

وأثناء هذا الانسياح المجهول الأسباب للقارات، تعاني مقدمة القارة ضغطاً من السيما يجعد وجهها فتحدث الجبال بقممها البارزة في الهواء، وجذورها الغائرة في السيما.

ومن المعتقد أن القسم البارز من الجبل يقابله جذر أطول منه بأربع مرات ونصف ذاهب في السيما.

وهذه الجذور الغائرة تشكل وتداً يمنع القارة من التمادي في الانزلاق.

فالقارة الأمريكية تنزلق بسرعة تزيد عن المتر في السنة، ولكن القوة التي تدفعها للانزلاق كان من الممكن أن تدفعها بسرعة تبلغ كيلو مترات كثيرة،لولا وجود الأوتاد الجبلية الممتدة في السيما[1].

---

(١) براهين: ص ٣٠ ـ ٣٨.

ولو حدث هـذا لأدى إلى عدم استقـرار الأرض، بل لأدى إلى انـدثار الحضارة من فوقها، لعدم إمكانية الاستقرار عليها باختلال توازنها وميدانها.

أو يستطيع الإنسـان المسلم اليوم أن يفهم معنى جـديداً لقـوله تعـالى: ﴿والجبال أوتاداً﴾؟.

وهل نستطيع أن نفهم في ضوء معطيات العلم الحديث اليوم معنى قوله تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾؟.

نعم.. وإنه الفهم المظهر لإعجاز القرآن.

يقول الأستاذ «انجلن»:

«من المفهوم الآن أن المادة الأقل وزناً ارتفعت على سطح الأرض، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية، وهي التي نراها الآن في شكل البحار، وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض».

ويقول عالم آخر: «وفي البحار أيضاً توجد وديان تشبه وديان البر، ولكن وديان البحر أكثر غوراً وأبعد عمقاً من تلك التي توجد في البر» ومن الظواهر المحيرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية، بدل أن توجد في أعالي البحار، وهذا يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية، وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق في أجزائها المختلفة»[1].

إذن فهذه الجبال تعتبر من أهم عناصر توازن الأرض وثباتهـا، كما أنها تعتبر أوتاداً تثبتها وتمنعها من الانسياب السريع الخطير، الذي لو حدث لأدى إلى انقراض الحضارة من فوقها.

وهذا المعنى بذاته هو الذي عبرت عنـه الآية القـرآنية وبكـل صراحـة ووضوح، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿والجبال أوتاداً﴾ وقوله تعالى: ﴿وهو الذي مد

---

(١) الإسلام يتحدى: ص ٢٠٤.

الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾ وقوله: ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾.

فكيف عرف محمد ﷺ أن الجبال أوتاد الأرض...؟.

بل كيف عرف أنها هي عنصر ثباتها وتوازنها..؟ وفي الوقت الذي كان الإنسان يجهل فيه جهلاً كاملاً كل ما يتعلق بطبقاتها وطبيعة تكوينها..؟.

إن هذا الكلام لا يمكن لأي إنسان في الأرض أن يقوله في ذلك العصر، مهما أوتي من العبقرية والذكاء والدهاء.

إن أي عاقل يسمع هذا الكلام اليوم ويقيسه بمعطيات العلم الحديث، ليقطع بأن هذا الكلام معجز، وأنه ليس من صنع البشر ولا هو داخل في طاقاتهم وتحت إمكانياتهم، وإنما هو كلام الله خالق الأرض، والعارف بحقيقة تكوينها ومتطلبات ثباتها واستقرارها.

الآية السابع عشرة

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾

وقانون التوازن المدهش في الأرض

قد يضيق الإنسان ذرعاً ببعض ما يرى من حيوان لا يرى له نفعاً، أو حشرة تلحق به ضراً، أو نبات يؤذي محصوله الزراعي ويشوه حديقته!.

فكم وكم تذمر الإنسان من الذباب، وكم تأذى من العقرب والأفعى، وكم ضايقته الحشائش الممتدة بين الزرع وأتلفت محاصيله الفئران.

ولكن.. ألم يكن الإنسان بحاجة إلى هذه المخلوقات؟.

وهل وجد فيها إلى جانب ذلك الضر بعض ما يحتاجه مما هو نافع له ومفيد؟.

وهناك بعض النباتات التي تعتبر سريعة في نموها، والغابة بيئة خصبة لها، ولكنها مع ذلك لم تجتح الغابة بأسرها، وإنما اكتفت بجانب من جوانبها.. لم والظروف كلها مساعدة لها..؟.

إننا سنقف على الجواب ـ واضحاً وصريحاً ـ على كل هذه التساؤلات في قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (سورة الحجر: آية ٢١).

وقوله تعالى: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ (سورة الرعد: آية ٨).

وقوله تعالى: ﴿والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ (سورة الحجر: آية ١٩).

لقد اضطر أهل استراليا في وقت ما لزراعة نوع من الصبار كسياج وقائي لهم، وكان هذا النوع سريع النمو والانتشار، ولم يكن في استراليا أي نوع من الحشرات يعاديه، فنمى، وتمادى، حتى غطى في استراليا مساحة كبيرة تقرب من مساحة انجلترا، وضايق أهل المدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة، وصار أهل استراليا أمام هذا الجيش الزاحف إليهم من كل حدب وصوب، مما يهدد حياتهم، مما اضطر علماء الحشرات للبحث في جوانب الأرض عن عدو لهذا الجبار العنيد، يقف في وجهه، ويمنع انتشاره، فعثروا في إحدى البلدان على حشرة لا تعيش إلا على الصبار، ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار بنفس الوقت.

ولم تمضِ إلا فترة قصيرة حتى تمكنت هذه الحشرة من الوقوف في وجه الصبار، بل اضطرته إلى التراجع، وأنهت مصائب أهل استراليا.

إلا أنها في نفس الوقت تراجعت هي أيضاً، ولم يبق منها سوى بقية قليلة، وكأنها جيش احتياطي للوقاية، يكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد. . . ؟.

فلولا هذه الحشرة لضاقت الأرض بأهل استراليا، ولو بقيت الحشرة في نفس أعدادها السابقة، ولم تتراجع هي أيضاً، لقضت على ذلك النوع من الصبار الذي يحتاجون إليه.

إذن لم يكن خلق الصبار عبثاً، وإنما لحاجة الناس إليه، كما لم يكن خلق تلك الحشرة المضادة له عبثاً، وإنما لحاجة الإنسان إليها، للوقوف في وجه الصبار الذي يمكن أن يهدد حياة الناس بسرعة انتشاره، كما حدث للناس في استراليا.

إنه أعظم توازن في نظام البيئة والحياة، يضمن الاستقرار والدوام للجميع، ولولاه لعدا بعض الأنواع على بعضها الآخر ولاختل توازن الحياة.

وهذا الذي نراه في النبات والحشرات، نراه في كل ظاهرة من ظواهر الكون والحياة.

لقد استفاد العلماء حتى من الفئران والعقارب والأفاعي، فاستخرجوا منها أمصالاً واقية لبعض الأمراض.

وما تزال التجارب تجري على كل نوع من أنواع النباتات والحشرات، لإيمان العلماء أنه لا بد أن يوجد فيها ما يحتاج الإنسان إليه، ضماناً لتوازن الحياة واستقرارها.

وإن نظرة سريعة خاطفة إلى معالم هذا الكون لتعطينا فكرة دقيقة وبالغة عن هذا التوازن الدقيق العجيب فيه.

فالأرض كرة معلقة في الفضاء، تدور حول نفسها مرة كل يوم، فينتج عن ذلك الليل والنهار.

وتدور حول الشمس مرة كل عام، فينتج عن ذلك الفصول الأربعة، وهذا يؤدي إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكن على سطحها، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة، بل لو سكنت لأدى هذا إلى انقراض الحياة عن أجزاء كثيرة منها، بل ربما أدى لانقراض الحياة.

ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة، وبنسب ثابتة معروفة، لو عدا بعضها على بعض بالزيادة أو النقص لأدى أيضاً إلى اضطراب الحياة.

فلو زاد مقدار الأوكسجين مثلاعن عن مقداره العادي إلى الضعف، لأدى هذا إلى انتشار الحرائق التي لا يتمكن الإنسان من السيطرة عليها، كما أنه لو نقص لأدى إلى اضطراب الحياة.

والأرض بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية، فتربتها تحتوي على العناصر التي يمتصها النبات ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام، يفتقر إليها الكائن الحي، كما يوجد فيها كثير من المعادن، مما هيأ لقيام الحضارة عليها.

وأما حجمها فصغير إذا ما قيس بالفضاء الذي تسير فيه، لكنها لو كانت صغيرة كالقمر، لعجزت عن الاحتفاظ بالغلاف الجوي والمائي الذين كانا يحيطان

بها، لضعف جاذبيتها، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت بالبـرودة

ولو تضاعف قطرها الحالي، لزادت جاذبيتها للأجسام إلى الضعف مما هي عليه الآن. ولا نكمش الغلاف الغازي الذي يحيط بها ويحفظها من الشهب، ولزاد الضغط الجوي على كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلاً إلى ثلاثين رطلاً من الضغط الجوي، مما يترتب عليه أسوأ الأثر على الحياة، إذ يتضاءل حجم الإنسان حتى يصير بحجم السنجاب، ولتعذرت الحياة الفكرية.

ولو بعدت الشمس إلى ضعف بعدها الحالي لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية، ولطالت دورتها حـول الشمس، ولنتج عن ذلك طول فصل الشتاء، وتجمدت الكائنات الحية على سطحها.

ولو نقصت المسافة إلى نصف ما هي عليه الآن لكان الأمر على العكس، إذ يقصر زمن الشتاء، وتزداد الحرارة لدرجة تستحيل معها الحياة.

ولو كانت القشرة الأرضية أكثر سمكاً مما هي عليه الآن بمقـدار عشرة أقدام، لما وجد الأوكسجين، إذ أن القشرة الأرضية تمتصه، وبدونـه لا تدوم الحياة.

وكذلك لو زاد عمق المحيطات والبحار بضعة أقدام عما هي عليه الآن، لانجذب ثاني إكسيد الكربون والأوكسجين حتى يمتصهما الماء، ولاستحـال وجود النبات على الأرض علاوة عن وجود الحياة.

وهذا الذي نذكره عن الأرض، نذكره عن كل ما هو موجـود في هذا الكون، من إنسان وحيوان ونبات وجماد.

إذن فلم يخلق شيء في هذا الكون عبثاً، وكل شيء فيـه مقدر بمقـدار دقيق، يضمن التوازن في الحياة والاستقرار عليها.

وهذا ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم في الزمن الذي كان الإنسان لا يعرف فيه شيئاً عن هذا التوازن الدقيق المدهش العجيب، وفي معظم جوانب الحياة.

على أن هذه الآيات وردت بأبلغ صيغ العموم لتدل على أن هذا التوازن موجود في كل كائن في هذا الكون الفسيح.

﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾.

﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾.

إنها الكلمات المعجزة المدهشة الدقيقة الدالة على أنها كلمات الخالق العليم الحكيم، الذي أتقن كل شيء خلقه وأحاط به علماً.

الآية الثامن عشرة

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾

وشعار علماء الكون والحياة

في

قانون الزوجية اليقيني

لقد تكرر ذكر خلق الأزواج في القرآن الكريم من أوله إلى آخره مرات كثيرة، وفي جوانب متعددة من جوانب الحياة، بل نصت بعض الآيات على أن كل شيء خلق في هذا الكون خلق على قانون الزوجية.

فقال تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ (سورة الحج: آية ٥).

وقال: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ (سورة الرعد: آية ٢).

وقال: ﴿أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ (سورة الشعراء: آية ٧).

وقال جل وعلا: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (سورة الذاريات: آية ٤٩).

وقال: ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ (سورة النجم: آية ٤٥).

وقال: ﴿والذي خلق الأزواج كلها، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ (سورة الزخرف: آية ١٢).

ثم قال تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾ (سورة يس: آية ٣٦).

إلى آيات كثيرة في القرآن الكريم تتكلم عن الأزواج، وعن خلقها، وأن هذه الأزواج موجودة في جميع معالم الكون والحياة، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

إذن فالزوجية لا بد أن تكون موجودة في كل شيء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه، وليست مقصورة على ما يكون من الذكر والأنثى في النبات أو الحيوان، أو على ما يمكن أن يتصف بالذكورة والأنوثة ولو مجازاً..

لأن الصيغة التي وردت من أبلغ صيغ العموم وأكملها ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

رأي علماء السلف وأقوالهم في الزوجين.

إن هذا الذي ذكرته من أن الزوجية شاملة لكل شيء مما هو مفهوم من الآية الكريمة، لم يكن فهماً خاصاً لأهل العصر الحاضر، بل هو ما فهمه السلف رضوان الله عليهم من مقتضى دلالة هذه الصيغة في هذه الآية.

ولكن فهمهم لهذه الآية كان ضمن طاقاتهم وإمكانياتهم ومعارفهم، فيما وضعوا عليه أيديهم من معالم الكون والحياة.

فقد روى الإمام الطبري عن مجاهد أنه قال في هذه الآية: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ قال:

الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والإنس والجن.

وروى عن الحسن البصري أنه قال في هذه الآية: الزوجان هما الشمس والقمر.

وَرَوى عن ابن زيد أنه قال فيها: هما الذكر والأنثى، وقرأ: ﴿وأصلحنا له زوجه﴾ قال: امرأته.

ثم قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك قول مجاهد، وهو أن الله تبارك وتعالى خلق لكل ما خلق من خلقه ثانياً له، مخالفاً في معناه، فكل واحد منهما زوج للآخر، ولذلك قيل: زوجين.

وإنما نبه جل ثناؤه بذلك ـ نبه خلقه على قدرته على خلق ما يشاء خلقه من شيء، وأنه ليس كالأشياء التي شأنها فعل نوع واحد دون خلافه.

إذ كل ما صنعته فعل نوع واحد دون ما عداه، كالنار التي شأنها التسخين. ولا تصلح للتبريد، وكالثلج الذي شأنه التبريد، ولا يصلح للتسخين، فلا يجوز أن يوصف بالكمال.

وإنما كمال المدح للقادر على فعل كل ما يشاء فعله من الأشياء المختلفة والمتفقة[1] اهـ.

ولو أننا تتبعنا كتب المفسرين على اختلاف مناهجهم من السلف والخلف إلى عصر النهضة العلمية، لوجدناها متفقة تقريباً على هذا الذي قاله الإمام الطبري رحمه الله تعالى، مع توسع بعضهم في تعداد الأنواع التي لها ضد أو نقيض، أو ند أو شبيه، واختصار بعضهم الآخر واكتفائه بذكر الذكر والأنثى.

وهذا هو الذي كانوا يشاهدونه أو يعلمونه رضي الله عنهم.

ما تحتمله الآية من الدلالة:

ولكن هل هذا الذي ذكروه هو كل ما نستفيده من هذه الآيات التي تتحدث عن خلق الزوجين..؟.

الجواب وبكل تأكيد: لا..

---

(١) الطبري: ٢٧/٧.

وهذا الذي يشير إليه قوله تعالى في سورة يس: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

إذن فليس الأمر في خلق الزوجين مقصوراً على ما كان معروفاً للناس في القديم.

وإنما هناك أشياء أخرى خلقها الله زوجين زوجين، مما لم يعرفه الإنسان القديم، وكشفت عنه العلوم الحديثة بوسائلها العلمية الدقيقة المذهلة المعاصرة، التي أعطت الإنسان من القدرة على الإدراك أضعاف ما كان يملكه الإنسان القديم آلاف المرات، من المجاهر الإليكترونية، والمقاييس الدقيقة الحساسة، وسفن الفضاء، والقوانين العلمية.

فلقد توصل العلماء في العصر الحديث إلى إدراك الكثير والكثير من خلق الأزواج، مما كان مجهولاً في الماضي، ومما نفهم به معنى جديداً في قوله تعالى: ﴿ومما لا يعلمون﴾.

بل لنفهم من هذه الآية وما في معناها أنها يستحيل أن تكون من قول البشر، وإنما هي من قول خالق الأرض والسماء، وعالم السر والعلن، إذ أخبرت عن الزوجية في أشياء لم يكن أهل العصر الأول يعرفونها، وإنما هي من معارف هذا العصر، كما أخبرت الآيات التي في معناها بأن الزوجية في كل شيء يمكن للإنسان أن يضع يده عليه، فإن أدرك الزوجية به، فبها ونعمت، وإلا فسيدركها الجيل أو الأجيال القادمة، بما يمكن أن يتوصلوا إليه من معارف ووسائل، ولذلك فإنه يجب عليه أن يتابع البحث عنها.

الأزواج التي كشفتها المعارف الحديثة:

بعد هذه المقدمة التي ذكرناها عن الأزواج سوف يتساءل القارىء عن الأزواج التي اكتشفها الإنسان الحديث، بوسائله العلمية المعاصرة، والتي لم تكن معروفة للإنسان القديم، ومما يستدل به على الإعجاز في القرآن الكريم...

ويحق له أن يتساءل...

ولكن الجواب على هذا التساؤل لا يستطيع أن يضع يده عليه في كتب اللغة أو كتب التفسير، إلا أن كتب اللغة والتفسير تقره، لأنه مما يقال فيـه، وبكل ثبات ويقين: إنه زوج.

إن الجواب سنعرفه هذه المرة من كتب العلوم المعاصرة، في أدق مباحثها ومكتشفاتها.

وهو لم يخف فقط على أهل العصور السابقة، بل هو مما يخفى على أكثر أهل العصر الحاضر، ومما يذهل له الإنسان المعاصر.

١ ـ الزوجية في الاليكترون
أو
الكون والكون النقيض

إن الإنسان أو أي كائن حي آخر، يتكون من أعضاء، وهذه الأعضاء تتكوّن من أنسجة، والأنسجة تتكوّن من خلايا والخلايا تتكوّن من جزئيآت، والجزئيات تتكوّن من ذرات، والذرات تتكوّن من جسيمات، هذه الجسيمات تعتبر أصغر وحدة من وحدات المادة.

فجسيمات الذرة الأولية هي: البروتون، والنيوترون، والإليكترون، أو بمعنى «الموجب، والمتعادل، والسالب.

ولقد كنا في الماضي نسمع من أساتذتنا أن الله خلق من كل شيء زوجين، حتى الذرة خلقها الله من زوجين هما النواة والإليكترون الذي يدور حولها، أو هما السالب والموجب فيها.

إلا أن هذه المعارف أصبحت بديهية وبدائية، وليست هي مما أريد الكلام عنه، وإنما هو أمر وراء الذرة، إنه أمر تكوين جسيماتها؟ في أصل خلقه الأول، لنضع أيدينا على سر جديد من أسرار الإعجاز الإلهي في خلقه وآياته.

«في عام ١٩٢٨ خرج العالم الرياضي الشاب بول ديراك الإنجليزي، خرج على الملأ بنبأ غريب، مضمونه معادلة رياضية أصيلة تتناول طبيعة الكون.

تنبأت هذه المعادلة بأن خلق الإليكترون لن يتأتى إلا عن طريق خلق الزوجين، وهو ما يعرف في الأوساط العلمية الفيزيائية بهذا المعنى أيضاً Parcreattion أي خلق الأزواج أو الزوجين.

ولم يكن المراد بهذا أن الخلق يكون عن طريق إعطاء اليكترونين أو بروتونين أو نيوترونين، وإنما كان بمعنى خلق الإليكترون والاليكترون النقيض، أو البروتون والبروتون النقيض، أو النيوترون والنيوترون النقيض.

على أن هذه النقائض المادية لا يمكن أن يجتمع بعضها مع بعض، لا في الزمان، ولا في المكان، فبمجرد خلق الزوجين في عالمنا، لا بد أن يهلك أحدهما الآخر ويفنيه حين التقائه إياه.

هذه هي المعادلة التي أتى بها بول ديراك والتي تحمل هذا النبأ الغريب، مما جعل الناس لا يلقون لها بالاً، إذ لم تكن عقولهم تهيأت لهذا بعد.

ولكن هل تحقق ما تنبأ به ديراك؟

لقد كان العلماء في الماضي يطلقون إلى الجو أجهزة علمية داخل بالونات لتسجيل سر الأشعة الكونية التي تأتي من السماء.

وفي عام ١٩٢٣ استقبل أحد العلماء الأمريكيين المهتمين بدراسة الأشعة الكونية وهو كارل اندرسون، استقبل مسارات هذه الأشعة على ألواح حساسة، وهذه المسارات بمثابة البصمات عند الإنسان، تحدد للعلماء صفات تلك الأشعة، وطبيعتها، وشحنتها، وشخصيتها.

لقد لفت نظره من بين المسارات الكثيرة المسجلة ـ مسيرة غريبة، ففي لحظة واحدة خاطفة ظهر على لوحه الحساس ولادة جسمين من نقطة واحدة، انطلق أحدهما إلى جهة اليمين، وانطلق الآخر إلى جهة اليسار، مما جعل أندرسون حائراً في هذا المشهد، إذ أن المسارين لإلكترونين يقيناً، ولكن ما هو السبب الذي جعلهما يبتعدان ويفترقان أحدهما عن الآخر، وكأن أحدهما عدو لقرينه؟.

لم يتمكن أندرسون من معرفة السبب، وذلك لأنه لم يكن قد اطلع وقت مشاهدته لهذه الظاهرة، لم يكن قد اطلع على معادلة ديراك الرياضية التي أشرنا إليها، والتي كان قد نشرها قبل ثلاث سنوات في إحدى المجلات العلمية

البريطانية المتخصصة، إذ لو كان قد اطلع عليها لما تحير تلك الحيرة فيما رأى وشاهد.

وجاء بعد أندرسون الأمريكي عالمان بريطانيان، عرفا ما توصل إليه أندرسون عملياً بألواحه الحساسة، كما عرفا المعادلة التي أشار إليها ديراك قبله نظرياً، وبجمعهما بين نتيجة أندرسون العملية ومعادلة ديراك الرياضية النظرية أدركا السر العظيم في مسار الإليكترونين، وأشارا إلى أن معادلة ديراك التي تنبأت بخلق الزوجين صحيحة تماماً، على ما أثبته أندرسون بألواحه.

لقد كان ذلك اليوم الذي توصل فيه العلماء إلى تسجيل بداية خلق أصغر وأبسط زوجين في العالم ـ كان يوماً مشهوداً في تاريخ العلم.

ومن أجل هذا الاكتشاف المثير الذي توصل إليه ديراك من خلال معادلته الرياضية ـ من أجل هذا حصل على جائزة نوبل في العام التالي لتحقق ما تنبأت به معادلته»[1].

وهو بالنسبة لنا نحن المسلمين يعتبر أيضاً يوماً مشهوداً، إذ أثبت فيه العلم الحديث في أدق مباحثه وأبدع اكتشافاته، أثبت ما أخبر به القرآن الذي سبقت آياته معادلة ديراك بأربعة عشر قرناً، إذ قال تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

وقال: «سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

نعم... إنه ليوم مشهود لنا نحن المسلمين، إذ ثبت للعالم أجمع أن هذا القرآن لم يكن من صنع البشر، وإنما هو الآية القاطعة الناطقة بأنه من صنع خالق الكون والإنسان والحياة، والعالم بكل صغيرة وكبيرة مما خلق على أبدع نظام وأتم تقدير.

---

(١) الدكتور عبدالمحسن صالح في بحثه ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾ الوعي الإسلامي عدد ١٦٢ بتصرف.

وهل هذا كل ما في الأمر بالنسبة للأزواج..؟.

الجواب: لا....

لم يقف الأمر عند ذلك الحد الذي ذكرناه، وذلك لأنه وضع أيدينا على سر جديد، وهو: أن هذا الكون في أرضه، وسمائه، وجزئياته، وذراته، ليس في الحقيقة إلا طاقة اتخذت صورة المادة بجسيماتها وذراتها، وأن هذه الجسيمات حينما تجسدت تجسدت على شكل زوجين، ولم تتشكل مفردة.

«فمولد أو خلق الزوجين اللذين ظهرا على ألواح اندرسون، لم يظهرا من عدم، بل كان من وراء تخليقهما طاقة، أو ومضة ضوئية، وهذه الومضة تنطلق على هيئة موجة، وتجري في الكون بسرعة الضوء ١٨٦ ألف ميل في الثانية.

• والواقع أن هذا الكون ـ على قدر ما نعرفه الآن ـ له مظهران، فهو أحياناً ندركه أو يظهر لنا على شكل موجة، وهذه الموجة لا زمان لها ولا مكان ـ أي في المقاييس الرياضية الحسية ـ وأحياناً أخرى قد تتخلى الموجة أو الطاقة عن صفتها الطليقة المتحررة وتتجسد على هيئة مادة كجسيمات ذرية، وهي في هذه الحالة تأتي على قانون الله الأزلي في الخلق زوجين زوجين.

وفي المفاعلات النووية الجبارة يعيش العلماء مع خلق الأزواج ليل نهار، وفيها يسجلون تجسيد الطاقات أو الموجات على هيئة جسيمات كثيرة، وعلى الألواح الحساسة، أو في غرف الفيوم ـ التي توضح بداية خلق الأزواج ـ يسجل العلماء مولد الإليكترون ونقيضه، أو البروتون ونقيضه، أو النيوترون ونقيضه.

ثم إن هناك جسيمات ذرية أخرى كثيرة، وهي غير الجسيمات الأساسية الأولية الثلاثة التي ذكرناها، فما من جسيم منها يتجسد ـ صغر شأنه أو كبر ـ إلا ويظهر معه في نفس اللحظة نقيضه.

ثم إنه في كل حالة من هذه الحالات يظهر الزوجان ويتخلقان أمام أعين العلماء، لكن الشيء المثير هو أن النقيض لا يمكن أن يعيش في مكان واحد مع نقيضه.

فإذا تقابل اليكترون مع اليكترون نقيض، فلا بد أن يزولا، ويتخليا عن تجسدهما المادي، ويعودا إلى سيرتهما الأولى، أي إلى موجات متحررة»[1].

- والشيء الذي يعتبر أكثر إثارة ودهشة أن لكل شيء في هذا الكون نقيضاً، ما عدا شيئاً واحداً، ألا وهو الطاقة، أو الموجة المتحررة، أو النور، فلا نقيض له، وإنما تظهر النقائض فقط عندما تتجسد هذه الموجة، أو هذا النور، أو تلك الطاقة، ويؤدي إلى خلق الزوجين.

لماذا وكيف..؟ لا أحد يدري.

فطبيعة الكون تضع أمامنا حقائق الوجود بصورة مثيرة، فبداية الخلق أزواج، والأزواج جسيمات، أو هي تجسيد لطاقة، أو ومضة، أو نور، خذ منها ما تشاء، فلا أحد يستطيع هنا أن يؤكد أمراً أو يحدد شيئاً. كما يقول الدكتور عبدالمحسن صالح في بحثه عن الأزواج - وكلما تعمقنا في طبائع الأشياء، وظننا أنا قد وصلنا فيها إلى قرار أشاحت الحقيقة بوجهها، وتجلت لنا أكثر إثارة، ووضعتنا في مآزق فكرية جديدة.

- إن الذي نعرفه حقاً أن المادة تجسيد لطاقة أو قوة، وهذه الطاقة وراء حدود العقل والخيال، وأن هذه الطاقة المتجسدة تتجسد أمام أعيننا أزواجاً أزواجاً.

ولكن ماذا يعني هذا... إنه يعني وبكل ثقة ما أخبر الله عنه قبل قرون طويلة مما يدل على عظمته وعلمه وقدرته، ومما يدلنا دلالة قاطعة على أن هذا القرآن كلامه ووحيه.

- إنه يعني قوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.
كما يعني قوله: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

ولكن هل هذا كل ما في الأمر..؟.

---

(١) المرجع السابق: د. عبدالمحسن صالح.

وهل اقتصرت المكتشفات العلمية على اكتشاف الزوجين في الجسيمات الذرية، من الإليكترون ونقيضه، أو البروتون ونقيضه، أو النيوترون ونقيضه، أم أنهم وضعوا أيديهم على أمور أخرى ربما كانت أكثر إثارة ودهشة في هـذا الكون..؟.

لا شك أن ما ذكرناه لم يكن كل ما في الأمر مما يتعلق بالآية، فقد قال تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾.

إذن فلا بد أن تكون هناك أمور أخرى عرفها الإنسان المعاصر مما لم يكن يعلمه الناس قديماً، وفيه من الإثارة والدهشة ما يذهل له عقل الإنسان، ومما يدل دلالة قاطعة على إعجاز القرآن.

الكون والكون النقيض:

لقد سيطرت فكرة الخلق أزواجاً ـ بعد معادلة ديراك، وألواح أندرسون، وتجارب العلماء في المعامل الذرية الضخمة ـ لقد سيطرت فكرة الخلق أزواجاً على عقول العلماء، وصار من الأمور البديهية اليقينية عندهم أنه من تمام انتظام الكون وتعادله وتوازنه أن يكون الخلق في كل شيء على طريقة الأزواج.

وكأنهم اتخذوا من قول الله: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ كأنهم اتخذوا من هذه الآية دستوراً لمباحثهم العلمية، فكل شيء في هذا الكون يجب أن يكون على نظام الزوجية.

فخلق الإليكترون لا بد أن يصحبه خلق الإليكترون النقيض أو البوزيترون، كما بيناه في الفقرة السابقة، وخلق النيوترون لا بد أن يصاحبه خلق النيوترون النقيض، وهكذا...

- ولكن صفات الإليكترون تخالف وتناقض تماماً صفات البوزيترون أو الإليكترون النقيض.

- فإذا دار الإليكترون حول نفسه من اليمين إلى اليسار، دار الإليكترون النقيض من اليسار إلى اليمين.

وإذا حمل الإليكترون شحنة كهربية سالبة حمل البوزيترون شحنة موجبة.

ـ وإذا كان المجال المغناطيسي للإليكترون يتجه إلى الأعلى، كان المجال لنقيضه يتجه إلى الأسفل.

من أجل هذا كان من المستحيل أن يجتمعا، فإذا ما قدر اجتماعهما كان لا بد أن يفني أحدهما الآخر.

وهذا الصراع العنيف الذي يؤدي إلى الفناء يشهده العلماء في معاملهم، وفي طبقات الجو العليا، وفي الفضاء الخارجي، إذ كثيراً ما تتجسد الطاقة، وعند ذلك تظهر الجسيمات الذرية أزواجاً، فأما الذي من عالمنا فيبقى، وأما الذي جاء نقيضاً لجسيمات عالمنا فلا بد أن يتخلى عن تجسده ويفنى ويعود ومضة سائحة في هذا الكون الرهيب.

وبهذه الحقائق اليقينية التي وضع العلماء أيديهم عليها، وآمنوا بها، أصبحوا يتساءلون، ما دام الأمر كذلك فهل يمكن أن يكون هناك ذرة وذرة نقيض لها، أو مادة ومادة نقيض لها، أو كون وكون نقيض له، إذ لا بد لكل شيء أن يكون زوجين..؟.

وبمواصلة البحث توصل العلماء إلى تخليق ذرة هيدروجين نقيضة، إلا أن تخليقها لم يدم لأكثر من لحظة واحدة خاطفة، إذ جاء كل ما فيها معاكساً لذرة الأيدروجين المعروفة، ولا يمكن أن تعيش إلا في عالم آخر غير عالمنا، وهذا الأمر مستحيل في عالمنا، إذ لا بد لها أن تصطدم في لحظة خاطفة بجزيء من جزئيآت الهواء، أو أي شيء فيه نقيضها لتحطمه ويحطمها وتعودَ إلى طاقة سابحة في هذا الكون.

بعد هذه التجربة وهذا الاكتشاف تطورت معارف العلماء وأصبحوا يوقنون أن فكرة خلق الأزواج ليست قاصرة على الجسيمات الذرية، بل تعدتها إلى أنه لكل ذرة في هذاالكون ذرة نقيضة لها.

وهذا يعني أن خلق الأزواج لا بد أن يمتد إلى جزئيات الخلية، بل إلى

الكون بأسره، من الأرض، والنجوم، والكواكب، والمجرات، إذ لا بد لها أن تكون أزواجاً ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾.

وهذا يعني أيضاً أن بناء الكون النقيض في ذراته لا بد أن يكون معكوساً أو نقيضاً لبناء عالمنا الذري، بما فيه من شموس وأقمار وكواكب.

ونحن لا يمكننا أن ندرك هذا، ولا يمكننا أن نفرق مثلاً بين النجم ونقيضه، لأننا نراهما بواسطة الضوء الواصل إلينا منهما، وقد ذكرنا أن النور لا نقيض له، وإنما يظهر الزوج أو الجسم ونقيضه عند تجسد النور أو الطاقة.

ولكننا يمكننا أن ندرك النجم ونقيضه مثلاً عندما يقترب أحدهما من الآخر ويتلاحمان، ويبدأ كل منهما بإفناء الآخر وتحويله إلى موجات ضوئية لا قبل للعقل بتصورها، بل لا قبل للخيال بذلك.

وذلك ـ كما يقول العلماء ـ لو تقابل مثلاً إنسان من عالمنا مع إنسان من العالم النقيض سيتحولان في لحظة خاطفة إلى طاقة ناتجة عن انفجار كوني جبار لا يقل عن الطاقة المتحررة من تفجير مئة ألف قنبلة من القنابل الهيدروجينية.. فكيف لو تقابل نجمان أو مجرتان.. إنه لا يمكن للعقل أن يتصور ماذا سيحدث.

ومن أجل هذا كان هذا التباعد الهائل في الفضاء بين المجرات وعوالم هذا الكون الرهيب الرحيب، فالمسافة بين هذه المجرات لا تقاس بالأميال، ولا بملايين الأميال، وإنما بملايين السنين الضوئية.

إن الذي دفع العلماء إلى هذا التفكير المثير في خلق الكون والكون النقيض إنما هو الواقع الذي رأوه في تجسيد الإليكترون والإليكترون النقيض، وما قاموا به من تخليق ذرة الهيدروجين النقيضة، وما إلى ذلك مما ذكرنا، مع ما أصبح يقينياً عندهم من الوحدة في الخلق على كل المستويات، والتي تستلزم وجود المادة والمادة النقيضة، أو بعبارة أخرى أوضح في موضوعنا ألا وهي أنها تستلزم وجود الخلق أزواجاً.

لقد عكف العالم السويدي الشهير «أوسكار كلاين» سنوات طويلة على دراسة هذا الموضوع، وخرج برأي يقول: «إن المادة والمادة النقيضة لا بد أن تكونا قد ظهرتا في وقت واحد، ولا بد أن تتساويا تماماً، بمعنى أن نصف الأجرام السماوية قد جاء وظهر من مادة عادية، ونصفها الآخر قد خلق من مادة نقيضة».

وذهب عالم البلازما النووية «هانز آلفين» إلى أبعد من هذا، فنشر بحثاً بعنوان «نقيض المادة والكون» شرح فيه فكرة ظهور الكون والكون النقيض، وكيف ظهرا، ثم كيف بوعد بينهما وعزلا، حتى أمكن أن يعيشا إلى اليوم المعلوم[1].

ولا يسعنا نحن الناظرين إلى هذه النتائج العلمية التي لا تحتاج إلى تعليق إلا أن نردد قوله تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

كما أننا لنتمايل طرباً، ونهتز نشوة، عندما نعرف أن العالم الحديث بعلومه ومعارفه، وفي أدق مباحثه ونظرياته قد اتخذ من آيات القرآن دستوراً له يبني عليه حضارته وتطلعاته وطموحاته، ويردد كما يردد كل مؤمن: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

، **أيها القاريء الكريم**: قل لي بربك.. من الذي علم ذلك الأمي في شعاب مكة وأوديتها... من الذي علمه أسرار الكون والحياة، والذرة والخلية، مما لم يكن الإنسان يعلمه، لا بعقله الظاهر ولا بعقله الباطن، ومما لم يصل إليه ولا حام حوله..؟!.

لا شك أنه الله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى.

وإني لعلى يقين بأنه ما من منصف يقع نظره على هذه الآية وهذه النتائج العلمية المذهلة، إلا ويجد نفسه مضطراً لأن يحني رأسه تواضعاً للحقيقة، وتعظيماً للخالق، واعترافاً بأن هذا الكتاب المعجز ليس من قول البشر.

---

(١) الدكتور عبدالمحسن صالح، المرجع السابق بتصرف.

٢ - الزوجية في الخلية الجنسية

إن خلق الأزواج الذي تحدثنا عنه في الفقرات الماضية ذلك الحديث المدهش المثير في جسيمات الذرة عند تجسدها من الموجة أو الطاقة، وفي الذرة نفسها، بل في الكون بأسره، حتى أصبح شعار علماء الكون شعارَ المؤمنين أنفسهم، وهو ترداد قوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ - جعل هذه الآية بعد أن كانت في معايير الماديين وفلاسفة الإلحاد سفسطة جعلها من أعظم الحقائق العلمية التي لا مرية فيها ولا خلاف.

بل أصبحت الشعار الذي يردده كل علماء الكون صباح مساء ويقرون من خلاله بأن هذا الكلام يستحيل أن يصدر - وقبل أربعة عشر قرناً، في الوقت الذي لم يكن الإنسان يعرف فيه شيئاً بالنسبة لما يعرفه اليوم - يستحيل أن يصدر من البشر، وإنما هو كلام الله، معجزة ناطقة دالة على وجوده وصدق كتابه ورسوله.

هذا هو موقف علماء الكون بعد طول البحث والنظر والتأمل وتكرار التجربة والملاحظة.

فما هو موقف علماء الحياة من هذه الآية...؟.

هل أصبحوا هم أيضاً يرددون شعار المؤمنين في القرآن: «ومن كل شيء خلقنا زوجين».. ويقرون باطرادها..؟.

أم أنهم شذوا عنها، وخرجوا من قانونها، وأثبتوا تخلف الخبر القرآني؟.

- **الجواب المبدئي الإجمالي.. نعم، وبكل صراحة وثبات وتأكيد، وبغض** النظر عن أن الجسم مكون من الخلايا التي تتكون من عناصر هذا الكون وذراته التي تحتوي على الزوجين السالب والموجب.

إننا لا نريد أن نتكلم على هذا، وإنما نريد أن نتكلم على الأحياء أو الحيوان، من حيث ما يخصه، لا من حيث ما يكون مشتركاً بينه وبين غيره، كالعناصر الكونية المشتركة بين الحيوان وغيره من الأجسام.

إذن فليكن بحثنا الآن محصوراً في الحيوان، وليكن الكلام في الإنسان، لأنه ألصق بنا، وأقرب منا، وأكثر إثارة لمشاعرنا.

إن مما لا يخفى على أحد من الناس أن جسم الإنسان يحتوي على خلايا، وهذه الخلايا أنواع، فمنها خلايا العظام، ومنها خلايا الكبد، ومنها خلايا المخ... ومنها خلايا العين، ومنها خلايا السمع، ومنها الخلايا الجنسية، ولكل خلية من هذه الخلايا عملها ووظيفتها المحددة لها، والتي تقوم بها وبكل دقة وأمانة وانضباط.

والذي سنأخذه من هذه الخلايا ونتكلم عنه الآن هو الخلية الجنسية.

وذلك لأن لهذه الخلية الجنسية ظاهراً وباطناً، أما الظاهر فظاهرة الزوجية فيه معروفة منذ زمن بعيد، بمعرفة النطفة عند الرجل والبويضة عند المرأة، مما يتكون من التقائهما الولد، فالخلية الجنسية زوجان، نطفة وبويضة، وهذا معروف لكل أحد.

ولكن الباطن الذي لم يكن معروفاً قبل سنين عديدة لأحد، بل كان ﴿مما لا يعلمون﴾ والذي لا يعرفه إلا القليل من الناس اليوم أيضاً هو أن الخلية الجنسية عند الرجل بذاتها تحمل أيضاً الزوجين الذكر والأنثى، أو بمعنى آخر أوضح، الحيوان المنوي عند الرجل منه ما يحمل صفة الذكورة، ومنه ما يحمل صفة الأنوثة، ففي خليته الزوجان، الذكر والأنثى.

قال الله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ (سورة القيامة: آية ٣٧ ـ ٣٩).

وقال تعالى: ﴿وأنه خلق الزوجين، الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى﴾ (سورة النجم: آية ٤٦).

- لقد فهم أسلافنا رضوان الله عليهم هذه الآية على ظاهرها، بناء على ما كان لديهم من معلومات عن خلق الإنسان وتكوينه، فقالوا على اختلاف مناهجهم، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى: أي أن الله جعل من هذا الخلق الذي خلقه من المني، جعل منه الزوجين الذكور والإناث.

أو أنه جعل من هذا الإنسان بعد ما سواه خلقاً سوياً ـ جعل منه أولاداً له، ذكوراً وإناثاً.

فكل معانيهم كانت منصبة على أن الله خلق الإنسان من مني الرجل والمرأة أطواراً، إلى أن كان منه الذكر، وكان منه الأنثى، دون أن يتعرض واحد منهم لحقيقة النطفة عند الرجل، لأنه كان ﴿مما لا يعلمون﴾.

على أن ما ذكرناه بناء على معارفهم كان سليماً صحيحاً، لا غبار عليه.

إلا أن الوسائل البصرية التي تمكن الإنسان من اختراعها، والتي مكنته من تكبير الأجسام آلاف وآلاف المرات، والدراسات التي أجراها على الخلية، مكنته من اكتشاف شيء جديد، ما كان للقدماء أن يقفوا عليه بحال من الأحوال، وهو أنه خلايا الرجل الجنسية تحمل صفات الذكورة إلى جانب صفات الأنوثة، وعند انقسام هذه الخلية في الغدد الجنسية تعطينا حيوانين منويين، أحدهما يحمل صفة الذكورة، والآخر يحمل صفة الأنوثة.

وبمعنى آخر إذا أخذنا السائل المنوي الذي يقذفه الرجل، والذي يحتوي في المتوسط على مئتي مليون حيوان منوي، فإننا سنجد أن مئة مليون منها ذكور، ومائة مليون أخرى إناث.

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نميز بين الحيوانين بالعين المجردة، إلا أن العلماء التجريبيين قد تمكنوا من هذا بواسطة وسائلهم البصرية والعلمية، وأعطوا أوصافاً للحيوان المنوى الذكر بأنه له وميض ولمعان في رأسه، بينما يفقد الحيوان المنوي المؤنث هذا اللمعان والوميض، كما أن المذكر أسرع حركة وأقوى بأساً في الغالب من زميله الذي يحمل صفة الأنوثة[1].

---

(١) خلق الإنسان: للدكتور البار ص ١٣٥.

وبصياغة جديدة للمعنى الذي ذكرناه نقول: إن نطفة الرجل ومنيه هو الذي يحمل الذكورة والأنوثة، فمنه الذكر، ومنه الأنثى، فإن لقح البويضة الحيوان المنوي الذكر، كان الولد ذكراً، وإن لقحها الحيوان المنوي المؤنث، كان الولد أنثى، ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها﴾ (سورة الأعراف: آية ١٨٩).

إذن فالزوجية التي كنا نعرفها عن الخلية الجنسية في الحيوان المنوي والبويضة كانت أمراً ظاهراً، ووراءه أمر باطن لا يعلمه كثير من الناس، وهو أن الحيوان المنوي ذاته أيضاً كان منه الزوجان الذكر والأنثى.

وعند ذلك نفهم الآية فهماً جديداً، ما كان لأسلافنا أن يفهموه، ألا وهو أن قوله تعالى: ﴿ألم يك نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ أي: جعل من المني الذي يمنى الزوجين الذكر والأنثى.

وهو أوضح وأصرح في قوله تعالى: ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى﴾.

فالآية صريحة في أن الذكر والأنثى من نطفة الرجل ومنيه، وأن هذا المني يحمل الذكور إلى جانب الإناث أزواجاً أزواجاً.

ألا ترى معي أيها القارىء الكريم أن هذه الآية من أكبر الأدلة القاطعة على أن هذا القرآن من عند خالق الإنسان والعالم بأسراره وخفاياه، وأنه يستحيل أن يكون من عند البشر، إذ لم يكن عند الإنسان حتى عصر قريب أية معلومات عن هذه الحقيقة في الحيوان المنوي..؟!.

بلى... ولا يسعنا إلا أن نقول: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

كما لا يسعنا إلا أن نذكر شعار الخلق في القرآن، الذي أصبح اليوم شعار علماء الكون والحياة: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

٣ ـ الزوجية في الكروموسومات

لقد رأينا كيف أن الإنسان كان يعتقد في الماضي أن خلق الزوجين الذكر والأنثى إنما كان من التقاء الزوجين البويضة والحيوان المنوي، اللذين يكونان الخلية الملقحة، ثم المضغة، ثم العلقة، ثم الذكر أو الأنثى.

إلا أن هذا الظاهر الصحيح الذي ما زلنا نؤمن به قد احتوى على باطن وسر أدق منه وأبدع وأغرب، وقد عرفنا هذا حينما كشفنا أن الزوجين أيضاً كانا سراً في الحيوان المنوي عند الرجل، وأن نطفته تحمل حيواناً منوياً ذكراً وآخر أنثى، وأن هذه النطفة هي التي تحقق طبيعة الولد. فإن لقحت البويضة بحيوان منوي ذكر كان الولد ـ بإذن الله ـ ذكراً، وإن لقحت بحيوان منوي أنثى كان الوَلد أنثى.

بذلك وضعنا أيدينا على سر جديد للآية الكريمة: ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى، من نطفة إذا تمنى﴾.

وأعلن الإنسان وبكل قوة وفخر أنه وضع يده على سر الخلية الجنسية التي يتكون منها الولد، وبذلك أضافوا دعامة جديدة لقانونهم وشعارهم أن كل شيء في الكون لا بد أن يكون عن طريق الزوجين، الذي كان نداء الله وكلامه منذ أربعة عشر قرناً: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

ولكنهم ما إن أعلنوا هـذا وفرحـوا به، حتى صـاحت بهم الحقيقة من جديد، لتعلن لهم ثانية أن هذا الذي أدركوه مما كان خافياً عليهم، إنما هو الآن أمر ظاهر، وأنه يحتوي في باطنه على سر آخر أبلغ من هذا الذي كشفوه وأدق، وأنه أيضاً قد خلق زوجين زوجين، مما قال الله فيه ﴿ومما لا يعلمون﴾.

وتابع العلماء المسيرة، وواصلوا البحث للوقوف على السر الجديد المذهل في الخلية الإنسانية، والذي خلقه الله أيضاً زوجين، ولكنه في هذه المرة لا ليحدد صفة المولود، هل هو ذكر أو أنثى، وإنما ليحدد نوعه، هل هو إنسان، أو قرد، أو حصان، أو نوع آخر من أنواع الحيوان الكثيرة، على أنه أيضاً كان زوجاً زوجاً، على قانون الله في الزوجية في كل شيء.

وذلك أن كل خلية من خلايا الكائن الحي الكثيرة، والتي تعد بالملايين، تحتوي في داخلها على نواة، هذه النواة تحتوي في داخلها على «كروموسومات أو صبغيات» وهذه الكروموزومات أو الصبغيات هي التي تحدد نوع الكائن الحي، بسبب عددها في الخلية، فإذا كانت الخلية خلية إنسان، فإنها تحتوي في داخل نواتها على ستة وأربعين كروموزوما، وإن كانت خلية قرد من نوع الريسوس، فإنها تحتوي على (٤٢) اثنين وأربعين كروموزماً، وإن كانت خلية بقر، فإنها تحتوي على (٦٠) ستين كروموزوما، وهكذا نجد أن نوع الكائن الحي يختلف باختلاف عدد الكروموزومات فيه.

وهذه الكروموزومات دائمة الانقسام، بسبب انقسام الخلية، لتعويض الجسم عن الخلايا التي تموت فيه باستمرار، والتي تقدر أيضاً بالملايين.

والخلية عندما تنقسم لا بدّ أن يحتوي كل جزء من جزأيها الجديدين على نفس العدد من الكروموزمات، وإلا لحدثت الكارثة، وتغير نمو المخلوق وشكله.

ولو كان انقسام الخلية يؤدي إلى أن يأخذ كل قسم من أقسامها نصف الكروموسومات في الخلية الأم ـ لأدى هذا إلى كارثة أفدح، وذلك أن الخلية ستنقرض بعد عدة انقسامات لها.

ولكن ما هو السر الذي نريده من هذه المعلومة..؟.

السر في ذلك أن هذه الكروموسومات قد جاءت أيضاً أزواجاً، فإنك تجد كل زوجين منها متشابهين تمام الشبه، ويكون أحدهما إلى جانب الآخر كالقرين له، ولا سيما في حالتي اجتماع الأزواج وانقسامها.

ففي الإنسان ثلاثة وعشرون زوجاً من الكروموسومات، كل زوجين منها متشابهان تماماً، إلا الزوجَ الأخير الثالثَ والعشرين، فإننا نجد فارقاً بينه وبين زوجه، وذلك بكون أحدهما أكبر من الآخر، وهما الزوجان المسؤولان عن تحديد الذكورة والأنوثة في الكائن الحي.

وكأن الله ميّز بين الذكر والأنثى حتى على مستوى الصبغيات في الخلية.

وكل زوج من هذه الأزواج قرين لزوجه وملازم له.

وعند انقسام الخلية تنقسم هذه الصبغيات، ويعطي كل زوج منها زوجاً آخر شبيهاً له مائة بالمئة، استعداداً للانقسام والتكاثر، فيصير في الخلية ستة وأربعون زوجاً، ليعود العدد بعد الانقسام إلى ثلاثة وعشرين زوجاً، ولتستمر مسيرة الحياة.. ويستمر الحفاظ على الأنواع.

فـ ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

ولكن.. هل هذا هو كل ما في الأمر من أسرار الأزواج..؟.

والجواب على هذا: لا، كما سنراه في الفقرة القادمة.

٤ ـ الزوجية في الكروموسومات في الخلية الجنسية

إن الأمر الأكثر إثارة في أسرار الأزواج في الكروموسومات في الخلية، على ما عرفناه في الفقرة السابقة، هو أن جميع خلايا الجسد عندما تنقسم تعطي في كل خلية جديدة نفس العدد من الكروموسومات، فنجد أن كل خلية من خلايا الإنسان تحتوي على ثلاثة وعشرين زوجاً من الكروموسومات، أي أنها تحتوي على ستة وأربعين كروموسوماً، إلا في خلية واحدة، وهي الخلية الجنسية، فإنها عندما تنقسم نجد أن الخلية الناتجة عنها والمتمثلة في الحيوان المنوي أو البويضة، لا تحمل ستة وأربعين كروموسوماً، وإنما تحمل ثلاثة وعشرين فقط، وكأن الأزواج ينفصل بعضها عن بعض فقط في هذه الخلية، في الحيوان المنوي والبويضة...

لم يكون هذا.. وما هو السر الكامن وراءه..؟.

إننا عرفنا أن ازدياد عدد الكروموسومات أو نقصانها في الخلية يؤدي إلى تغير نوع الحيوان أو انقراضه ـ على ما فصلناه في الفقرة السابقة ـ.

وبناء على ذلك لو أن الخلية الجنسية في الإنسان انقسمت، وكان الحيوان المنوي يحمل نفس عددها من الكروموسومات، أي كان يحمل ستة وأربعين كروموسوماً، وكذلك كانت تحمل البويضة نفس العدد، لكان معنى هذا أنه عندما يتم الإخصاب والتلقيح بين الحيوان المنوي والبويضة، سينتج معنا خلية مكونة من اثنين وتسعين كروموسوماً، وهذه خلية حيوان آخر، وليست خلية الإنسان، ولكان معنى هذا أن ينقرض النوع الإنساني من أول حمل تحمل به أنثى.

ولذلك اقتضت حكمة الله أن الخلية الجنسية إذا انقسمت، يكون الحيوان المنوي المتولد منها حاملاً لنصف أعدادها من الكروموسومات أو الصبغيات، أي أنه يحمل ثلاثة وعشرين كروموسوماً فقط، وكذلك البويضة، فإذا ما تم التلقيح أو الإخصاب، كانت الخلية الأولى في الكائن الحي الجديد أو المولود الجديد تحمل نفس العدد من الكروموسومات التي كانت تحملها الخلية الأصلية للإنسان، أي أنها تحمل ستة وأربعين كروموسوماً، وبعد ذلك تبدأ بالانشطار والتكاثر إلى أن يتم تخلق المولود، بل إلى أن تنتهي حياته على المنهج المرسوم لها عند خالقها من الأزل.

ولكن أين سر الأزواج في هذا؟ ألسنا نتكلم على الأزواج؟.

بلى.. إننا نتكلم عن الأزواج، والسر هنا يكمن في أن الحيوان المنوي الذي يحمل ـ كما ذكرنا نصف عدد الأزواج التي كانت تحملها الخلية الجنسية من الكروموسومات ـ إن هذا الحيوان عندما يلقح البويضة في رحم المرأة، وتتكون الخلية الأولى، نجد أن كل كروموسوم من الكروموسومات الثلاثة والعشرين تندفع في هذه الخلية الجديدة، وكأنها تبحث عن شيء مفقود، وإذا بكل واحد منها يبحث عن زوجه وقرينه الذي انفصل عنه في الخلية الأساسية، فإذا ما التقيا تلاصقا، كما يتم التلاصق بين كل زوجين في حياتنا الظاهرة، وكأن أحدهما يدلي للآخر بأسراره، ويطلعه على باطنه، ويتبادل معه المعلومات السرية التي لا يعلمها إلا خالقه، والتي سيتكون منها المولود الجديد.

وهكذا تبدأ الخلية الجديدة عملها وحياتها بعد أن تم فيها تركيب الأزواج والتقاؤها، وتم هيكلها المكوّن من ثلاثة وعشرين زوجاً من الكروموسومات، ولتتجلى لنا الآية القرآنية مرة ثانية، مرشدة للإنسانية الحائرة إلى عظمة الله وإعجازه في قرآنه: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

فـ «سبحان الذين خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، وما لا يعلمون﴾.

وسبحان الذي أوحى إلى عبده الأميّ الذي لم يعرف كتابة، ولا قراءة،

ولا فلكاً، ولا طبّاً، ولا درس تشريحاً، ولا بحث في خلية، فعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضله عليه عظيماً، إذ أوحى إليه بأدق تفاصيل الكون والحياة، مما كان مستحيلاً معرفته له ولأمثاله، ولكل من في الأرض في عصره وبعد عصره لأمد طويل، ليجعل من ذلك الوحي معجزة هذا الدين الحنيف.

وصدق رسول الله إذ قال: «وكان الـذي أوتيته وحياً، فأرجـو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

ولكن سر الزوجية لم ينته عند هذا الحد في الخلية، وإنما تعداه إلى سر آخر كامن وراءه.. ألا وهو الزوجية في الجينات.

٥ ـ الزوجية في الجينات
وراء
الزوجية في الكروموسومات

إن ما ذكرناه في الفقرات السابقة عن الكروموسومات التي تحدد نوع الحيوان من إنسان وغيره، والتي كانت سراً خافياً علينا، والتي اكتشفنا فيها الزوجية على النحو الذي بيّناه، قد انقلبت إلى ظاهر بسيط، ولوّحت لنا من باطنها بسر جديد، لم نكن نعرفه، فهو ﴿مما لا يعلمون﴾.

ألا وهو سر الجينات الرهيب، والذي جاء أيضاً زوجين زوجين.

وذلك أننا لو أخذنا كروموسوماً من الكروموسومات، أو صبغياً من الصبغيات الموجودة في الخلية، والتي كانت زوجاً كما ذكرنا، لو أخذنا واحداً منها، وكبرناه آلاف المرات تحت المجهر، لوجدنا أن هذا الصبغي يحتوي على السجلات الوراثية للإنسان، وذلك في جينات صغيرة متراصة، تظهر على الصبغي، ويبلغ عددها على الصبغي الواحد عشرات الآلاف.

وبسبب هذه الجينات تختلف ألواننا، وأصواتنا، وأشكالنا، وطبائعنا، وطولنا، ولون شعرنا أو عيوننا، وكل ما يتعلق بأوصافنا، ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾. (سورة الروم: آية ٢٢).

وبسبب هذه الجينات أيضاً تنتقل صفات الأجداد إلى الآباء، وصفات الآباء إلى الأبناء، فيحمل كل جيل صفات الجيل السابق، من اللون والشكل، والصوت، والطول، والقصر، والعنف، والبرودة، وغير ذلك من الصفات، أو الأمراض، أو الطبائع.

إن كل جينة من هذه الجينات بمثابة السجل السري الذي يحتفظ في داخله وبقدرة بارئه، يحتفظ بالخطة السرية لكل ما يتعلق بالإنسان من الأوصاف، والتي سيعبر عنها مع مرور الزمن، ونمو المولود وتكامله.

إن هذه الجينات جاءت كما ذكر القرآن الكريم أزواجاً ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾.

ولكن.. لماذا جاءت أزواجاً، ولم تأت فرادى..؟.

إنها سنة الله القاضية بأن يأخذ الولد صفاته من كلا أبويه، لا من أحدهما، وبناء على ذلك لا بد أن يكون نصفها من الأب ونصفها من الأم، فلو افترضنا جدلاً أن الخلية تحتوي على أربعين ألفاً من الجينات، فمعنى هذا أن عشرين ألفاً منها جاءت من الأب، والعشرين الأخرى جاءت من الأم، فهي تحمل عشرين ألف زوج من الجينات المشتركة، التي تحمل صفات الأب والأم معاً.

- ففي بعض الحالات تتفوق الجينة من الأب في التعبير عن نفسها تعبيراً يفوق جينة الأم، فيكون الشبه في الولد لأبيه.

وأحياناً تعبّر الجينة من الأم عن نفسها تعبيراً يفوق جينة الأب، فيكون الشبه في هذه الحالة للأم.

وقد يكون التعبير من قبل الجينتين معاً، وفي هذه الحالة يشبه الولد أبويه معاً.

وفي بعض الحالات تتنحى الجينة، فلا تعبر عن نفسها في الجيل الأول، إلا أنها قد تعبر عن نفسها في الجيل الثاني، أو الثالث، أو الرابع، لتنتقل إليه صفات جده الأعلى.

وهذه هي التي أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله: «لعلها نزعة عرق» في القصة المشهورة بهذا الحديث[1].

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

وكما كان الشبه للولد بأبويه من أجل خلق هذه الجينات أزواجاً، واختلاطها في عملية الإخصاب في الخلية الأولى أزواجاً من الأب والأم، كان الاختلاف النسبي في الشبه أيضاً، فإنه من المحال أن تجد إنساناً يشبه إنساناً آخر شبهاً مطلقاً.

وبهذا الصدد تذكر قول عالمي الخلية والوراثة «وليام ماكلروي» و «كارل سوانسن» في كتابيهما «البيولوجيا الحديثة لعلم الخلية». إذ يقولان:

- إنه لو لم تختلط هذه الجينات الكامنة على الكروموسومات لما اختلف طبائع الناس هذا الاختلاف، ولأصبحت الوجوه في صورة واحدة، ولركدت الحياة.

ثم ضرب مثلاً يوضح عظمة الخالق في مدى احتمال الشبه المطلق فقالا: لما كانت الصفات الكامنة على الجينات تختلط أزواجاً في عملية الإخصاب فإن احتمالات عدد مرات الخلط بينها يزيد بزيادة عددها، ولنفرض أن الخلية في الإنسان تحتوي على ألف جينة أو مورثة - وهو تقدير متواضع، لأن العدد في الواقع أكبر من هذا بكثير - إننا لو افترضنا هذا لكانت النتيجة أن عدد احتمالات الاخلاط هنا سيكون حصيلة الرقم (٢) اثنين مضروباً في نفسه ألف مرة، والحق أن الناتج لا شك سيكون أكبر من عدد الذرات الموجودة في كل الأكوان بأضعاف مضاعفة.

وبناء على ذلك فإن احتمال مجيء إنسان يشبه إنساناً آخر شبهاً مطلقاً سيكون غير جائز إلا مرة واحدة في بلايين بلايين بلايين بلايين المرات، وأضف ما شئت من بلايين الاحتمالات، فالرقم أكبر مما تتصوره عقول البشر[1].

وهذا كله إذا افترضنا أن الخلية تحمل ألف جينة أو مورثة، فكيف يكون الرقم والاحتمال لو افترضنا أنها تحمل عشرين ألفاً، أو أنها تحمل خمسين ألفاً..؟.

---

(١) الدكتور عبدالمحسن صالح ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾ حلقة ٥ الوعي الإسلامي.

إنها الأرقام التي لا تحيط بها عقول البشر، بل ولا تتصورها.

وكأن الجينات وحدها في هذا العالم تقول لنا: ﴿لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي، ولو جئنا بمثله مدداً﴾.

فهل عرفت أخي القارىء السر الباطن الكامن وراء الصبغيات أو الكروموسومات وهو الجينات...؟

وهل عرفت أنها جاءت كما أخبر الله، واكتشف العلم، جاءت أزواجاً أزواجاً..؟.

وهل علمت السر في كونها أزواجاً، والغاية من الزوجية فيها..؟.

إذن فردد معي قول الله تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

ولكن سر الزوجية أيضاً لم ينته عند هذا الحد في الخلية، وإنما تعداه إلى سر آخر من ورائه.. ألا وهو سر تكوين الجينة نفسها..؟؟.

٦ ـ الزوجية في تكوين الجينة نفسها
وراء
سر مجيئها ازواجا

لقد عرفنا كيف تجلى الزوجان في الحياة، في الذكر والأنثى، ثم في الحيوان المنوي والبويضة، ثم في الحيوان المنوي ذاته، إذ كان منه الزوجان المؤنث والمذكر، ثم في الكروموسومات أو الصبغيات، ثم في الجينات التي توجد على الصبغيات، والتي تحدد صفات البشر وطبائعهم، وتنقل في نفس الوقت صفات الأجداد إلى الآباء والأبناء، وقد رأينا كيف أنها كانت أزواجاً، وعرفنا سر مجيئها أزواجاً، كما عرفنا الغاية التي من أجلها كانت أزواجاً.

ولكن هل انتهى الموضوع عند ذلك..؟.

إن الحقائق العلمية، والمكتشفات المتتابعة تقول لنا: إن الأمر لم يقف عند هذا.

لقد ذكرت في بداية الكلام على الأزواج أنها من أعظم أسرار الله في الكون والحياة، وأن الإنسان لا يكاد يضع يده على سر من أسرارها، متوهماً أنه أدرك حقيقته، إلا وينقلب الأمر عليه، ويصبح ما أدركه أمراً ظاهراً، يحمل في باطنه سراً آخر، قال الله تعالى: ﴿ومما لا يعلمون﴾.

. إن آخر ما وضعنا أيدينا عليه من الأزواج هو هذه الجينات، التي تصطف على الصبغيات أزواجاً أزواجاً.

ولكن ما هي حقيقة هذه الجينات..؟.

والجواب على هذا أن الجينة الواحدة أيضاً قد حملت سراً من الأسرار التي

أدى كشفها إلى إثبات إعجاز القرآن، وإظهار عظمة الخالق، إذ ثبت أنها تتكون من الأزواج أيضاً.

وذلك أن كل جينة من هذه الجينات تعتبر معلومة مستقلة، تعمل لتوريث الكائن الحي صفة محددة.

وعندما أجرى العلماء الفحوص على هذه الجينات، وجدوا أن الجينة الواحدة تتكون من شريط، قد يفرد، وقد يطوى، فإذا أريد من الشريط أن يقوم بمهمته، وينفذ خطته الوراثية المرسومة له، انفرد، واستقام، وهو لدقته لا يكاد يرى إذ أن عرضة لا يزيد عن جزئين اثنين من مليون جزء من المليمتر.

فإذا ما انتهى من عمله، طوى نفسه وعاد إلى ما كان عليه على الكروموسوم أو الصبغي، كحبة أو عقدة صغيرة.

لكن هذه الجينة لم تتكون من شريط واحد، وإنما تبين بالفحص والتدقيق أنها على هيئة شريطين اثنين، يلتف أحدهما على الآخر ويحتضنه كالضفائر المجدولة.

إلا أن الأمر أيضاً لم ينته عند هذا...؟ إذ كثيراً ما تأتي هذه الضفائر أيضاً أزواجاً.. على شكل زوجين اثنين، ويلتف كل زوجين منها بالزوجين الآخرين.. على أنه قد تتكرر هذه العملية مرة ثالثة في زوج ثالث.

أخي القارىء.. ألا ترى أن الأمر قد فاق تصورات العقل، وتجاوز حدود الخيال، وكأن كل شيء في هذا الكون يقول: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾.

إن هذه الشرائط التي تتكون منها الجينة، والتي جاءت على شكل شريطين مجدولين، هي التي سجلت عليها الملايين والملايين من الصفات السرية للكائن الحي، وكأنها كلمة السر فيه، وهي التي حيرت المفكرين والعباقرة وعلماء الحياة.

فما هو سر هذه الشرائط التي سجلت عليها الملايين والملايين من

الصفات، والتي جاءت أزواجاً، وما هي حقيقتها، وهل هي أيضاً احتوت على سر آخر من الأزواج في تركيبها، جاء وراء ظهورها أزواجاً...؟.

الجواب: نعم، وبكل تأكيد، طبقاً لقانون الله الأزلي: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ كما سنراه في الفقرة القادمة إن شاء الله.

٧ - الزوجية في تركيب أشرطة الجينة

وراء

سر الزوجية

لقد عرفنـا من بدايـة بحثنا في الأزواج إلى الآن أن النـطفة والبـويضة زوجان، والنطفة ذاتها قد جاءت زوجـين، والصبغيات قـد جاءت أزواجـاً، والجينات أيضاً قد جاءت أزواجاً، والجينة ذاتها قد جاءت على شكل أشرطة ملتفة زوجاً أو أزواجاً.

ولكن.. ما هي حقيقة هذه الأشرطة، وهل تحتوي هي أيضاً في تركيبها على الأزواج...؟.

لا شك أن علماء الحياة قبل أن يكتشفوا حقيقتها، كانوا يفترضون أنهم إن وقفوا على حقيقتها، وكشفوا سرها، فإنها لا بدّ أن تكون أزواجاً، على ما ذكرناه من أن خلق الأزواج قد أصبح شعارهم، فما من شيء يضعون عليه أيديهم إلا ويجب أن يكون قد جاء زوجاً زوجاً.

وتابع العلماء جهودهم في البحث عن حقيقة الجينة ومكوناتها، إلى أن جاء العالمـان «جيمس واتسون» المتخصص في علم البيولوجيا، و«فرنسيس كريك» المتخصص في علم الفيزياء الكيميائية، وتمكنا عام ١٩٥٢ من اكتشاف حقيقة الأشرطة التي تتكون منها الجينة، التي بينا أنها جاءت أزواجاً على شكل ضفائر مجدولة، أو سلالم حلزونية، ذات درجات متتابعة، بعضها فوق بعض، والتي تحتوي على أسرار الحياة بالنسبة للكائن الحي.

وبهذا الكشف وضعا أيديهما على أعظم سر من الأسرار التي تحمل صفات هذا الكائن الحي العجيب الغريب، المعجز المذهل.

واستحقا بناء على ذلك جائزة نوبل، كما استحقها من جاء بعدهما، ممن تابع أبحاثهما.

لقد أثبت هذان العالمان أن هـذه الأشرطـة التي تحفظ أسرار الحيـاة والصفات الخاصة للكائن الحي، أنها تتكون من عناصر الأرض، وذلك لأن الإنسان خلق منها.

- فأثبتنا أن هذه الأشرطة تتكون من أربعة قواعد نتروجينية وهي: «أدنين، وجوانين، وسايتوزين، وثايمين».

ونحن لا نسوق هذا لنتكلم على التركيب الكيمياوي لتلك الأشرطة التي تحفظ أسرار الحياة.

- ولا لنتكلم على حقيقة هذه المركبات التي تتكون منها تلك الأشرطة.

ولكنا نسوق هذا لأمر أعجب وأغرب، يقف أمامه العقل الإنساني حائراً ذاهلاً.

وذلك أن هذه المـركبات لم تـأت فرادى أبـداً، وإنما جـاءت أزواجاً، أزواجاً، لتقول لكل من يقف على حقيقتها: ﴿سبحان الـذي خلق الأزواج كلها، مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم، ومما لا يعلمون﴾ ولتبرهن لكل ذي عقل أن إخبار الله لن يتخلف.

فكما أننا عرفنا أن أصغر جسيمات الذرة قد جاء زوجين، كذلك يجب علينا أن نعرف أن مركبات الكائن الحي أو الخلية قد جاءت أيضاً أزواجاً، ليسير الكون على نظام واحد، ونسق واحد، لأن الخالق المبدع واحد: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾.

لقد ذهل العلماء حينما رأوا أن هذه المركبات قد جاءت في كل كائن حي أزواجاً.

فالأدنين دائماً يتزاوج مع الثايمين، والجوانين دائماً يتزاوج مع السايتوزين.

ولا يمكن أبداً أن يتزاوج الآدنين مع الجوانين، ولا الجوانين مع الثايمين، ولا السايتوزين مع الآدنين، ولا الآدنين مع السايتوزين.

كما لا يمكن أبداً أن تختل هذه الأزواج في أي كائن من الكائنات الحية، وإلا كانت الكارثة الوراثية.

- ولم يقف الأمر عند هذا، بل تعداه إلى أن كل واحد من هذه القواعد الأربعة يتصل بسكر خاص اسمه «ريبوز» وهذا السكر يتصل بجزيء من الفوسفات ليكون معه أيضاً زوجاً، ولا يبتعد عنه، ولا ينفصل منه.

وبعد ذلك تتكرر هذه الأزواج في جزيئآتها الوراثية ملايين المرات، وكل واحد منها يعرف مكانه من الخلية كما يعرف زوجه وطبيعته ونوعه، فيقترب منه، ويرتبط به.

وإذا أردت أخي القارىء أن تعرف المزيد عن هذا فاعلم أن الخلية الواحدة من جسم الأنسان تحتوي على ثمانية بلايين من هذه القواعد الأربعة، وكلما ولدت خلية جديدة أخذت معها هذا العدد من البلايين، إلا في الخلية الجنسية - كما ذكرنا سابقاً - إذ أن الحيوان المنوي يحمل نصف هذا العدد، أي يحمل فقط أربعة بلايين منها، ليلتقي مع البويضة، التي تحمل نفس العدد، ولتتكون الخلية الأولى، التي تحمل البلايين الثمانية، وبعد ذلك تبدأ الأزواج من هذه القواعد الأربعة بإصدار أوامرها لتتكون الجينة.

ولا يسعنا في نهاية المطاف في عالم الأزواج في الكون والحياة، والذي رأينا فيه من خلال مكتشفاتنا وعلومنا الحديثة ما يدل دلالة قاطعة على إعجاز القرآن في مضمار الإخبار عن أسرار الخلق في أعمق أعماقه، مما كان من المستحيل معرفته على أهل العصر الذي نزل فيه القرآن، ومما لم يعرفه الإنسان إلا في العصر الحديث، بما طوره من الوسائل البصرية، وتوصل إليه من وسائل الكشف والمعرفة، لا يسعنا إلا أن نردد قوله تعالى: ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾.

الآية التاسع عشرة

﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾

والاعجاز فيها

قال الله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾ (سورة الطارق: آية ٥ ـ ٧).

ما أكثر ما نقرأ هذه الآية الكريمة، وما أكثر ما نسمعها، ولكن ما أقل ما نعي فيها من الإعجاز القرآني الذي ينطق بأن هذا الكلام يستحيل أن يكون من كلام البشر، وإنما هو كلام خالق الإنسان ومبدعه، والعالم بسره وعلانيته.

ولكي نفهم هذه الحقيقة التي ربما تدق على الأفهام، يجب علينا أن نعرف ما كان يتصوره الناس من العلماء والعامة عن ماء الرجل والمرأة، وعن المكان الذي يتكوّن فيه ماء الرجل، في زمن نزول القرآن، إلى العصر الحديث، حيث اكتشف الإنسان بوسائله البصرية والعلمية الحقيقة المذهلة التي نطقت بما جاء به القرآن قبل قرون طويلة من الزمن الذي سادت فيه المعلومات الخاطئة عن هذه الحقيقة على ما سنذكره الآن.

فمما كان الناس في الماضي يعتقدونه أن ماء الرجل يتكون في ظهره، وأن ماء المرأة يتكون في ترائبها، وأن الولد يتكون منهما.

فقد أخرج عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، في قوله: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ قال: «صلب الرجل، وترائب المرأة، لا يكون الولد إلا منهما».

وأخرج عبد بن حميد، عن ابن أبزي، قال: «الصلب من الرجل، والترائب من المرأة».

وعن عكرمة رضي الله عنه، أنه سئل عن قوله: ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ قال: صلب الرجل، وترائب المرأة، أما سمعت قول الشاعر:
والزعفران على ترائبها شرفا به اللبات والنحر؟

ومما كان يعتقد أنه يخلق من ماء الرجل، الذي يخرج من صلبه العظم والعصب، ومن ماء المرأة الذي يخرج من ترائبها اللحم والدم، كما روي عن الأعمش[1].

ومما كان يعتقد أن مني الرجل يخرج من بين صلبه وترائبه، وكذلك ماء المرأة، على معنى أن ظهر الرجل هو مستودع منيه.

واستدلوا على ذلك بأن المكثر من الجماع يجد وجعاً في ظهره وصلبه، وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبساً فيه من الماء[2].

ومما كان يعتقد أن ماء الرجل ينزل من الدماغ، ثم يجتمع في الانثيين، قالوا: وهذا لا يعارض قوله: ﴿من بين الصلب﴾ لأنه إن نزل من الدماغ، فإنما يمر من بين الصلب والترائب.

ولذلك دون فقهاؤنا رضي الله عنهم نصوصهم الفقهية بناء على هذا التصور..

فقالوا: إن كسر صلب الإنسان، وخرج منه المني، هل يجب عليه الغسل، أو لا يجب؟.

وإن انسد مخرجه الأصلي، وانفتح ما فوق سرته، أو تحتها من ظهره، هل يجب عليه الغسل، أو لا يجب؟.

---

(١) الدر المنثور: ٣٣٦/٦، والقرطبي: ٦/٢٠.
(٢) القرطبي: ٧/٢٠.

إلى آخر ما هنالك من الفروع الفقهية الكثيرة، التي ذكروها، وبنوها على هذا التصور الذي كان قائماً عندهم، والذي ينص على أن الظهر مستودع ماء الرجل، **وهو نفس التصور الذي كان شائعاً عند جميع أمم الأرض.**

وأنا لا أذكر هذه النقول عن سلفنا ـ رضي الله عنهم ـ لأجعل من كلامهم وسيلة ومادة للهزء والسخرية، كما يفعل بعض من لا خلاق له، ممن حرم الأدب والخلق الإسلامي.

وإنما أذكره لأبين ما كان سائداً عندهم من التصورات عن هذا الموضوع، ولا تثريب عليهم بعد ذلك إن أخطأوا في هذا التصور، فهذا ما تمكنوا من الوصول إليه بما لديهم من وسائل، وما معهم من علوم ومعارف، والدلالة اللغوية للقرآن تحتمله ولا ترده، وهي الأساس الأول للتفسير بعد الأحاديث والآثار، وجزاهم الله خير الجزاء على اجتهادهم، والمجتهد عندنا يثاب أصاب أم أخطأ.

وإنما أذكر ما أذكره لأبين حقيقة تصورهم وتصور البشر، لمكان ماء الرجل والمرأة، حتى إذا سمعنا من يذكر خلاف هذا، مما يبعد عنه كل البعد، وهو لم يعد تلك البيئة، وليس لديه سوى تلك المعارف، علمنا أن لا ينطق ما ينطق به إلا بناء على خبرة يقينية بحقيقة الخلق وتركيبهم، وهذا لا يكون إلا من قبل الخالق الحكيم.

لقد نصت الآية القرآنية على أن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب.

﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾.

إذن فالقرآن يحدد مكان الماء، وهو في المكان الواقع بين الصلب: وهو العمود الفقري، والترائب: وهي عظام الصدر التي تلي الترقوة، فكيف نوفق بين هذا النص، وبين الحقيقة اليقينية التي لا تخفى على أحد، وهي أن ماء الرجل يتكون في الخصيتين، كما أن بويضة المرأة تتكون في مبيضها؟.

إنه الأمر الذي سنثبت فيه إعجاز القرآن.

وذلك أن العلماء أثبتوا بالصور أن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الحدبة التناسلية، بين صلب الجنين وترائبه، ثم بعد ذلك تبدأ الخصية بالنزول تدريجياً حتى تصل إلى كيس الصفن خارج الجسم، في أواخر الشهر السابع من الحمل.

وينزل المبيض إلى حوض المرأة، ولا ينزل إلى ما وراء ذلك.

ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء، والأعصاب، واللمف، تبقى من بين الصلب والترائب، حيث أصلها.

فشريان الخصية أو المبيض، يأتي من الشريان الأبهر، وهو (الأورطي البطني) من بين الصلب والترائب، كما أن وريد الخصية يصب في نفس المنطقة.

وكذلك أوردة المبيض وشريانه تصب في نفس المنطقة، أي بين الصلب والترائب.

وكذلك نجد أن الأعصاب المغذية للخصية، أو المبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة، من بين الصلب والترائب.

وكذلك الأوعية الليمفاوية تصب في نفس المنطقة، أي بين الصلب والترائب[1].

فماذا يستطيع أن يقول أي عالم من علماء الطب والحياة عندما يسمع هذه الآية الصريحة: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب﴾.

ماذا تراهم يقولون عندما يسمعون هذه الآية التي نزلت في العصر الذي لم يكن فيه أحد يعرف شيئاً عن حقيقة تكون الخصية والمبيض، مع التصورات الساذجة عن مكان ماء الرجل.

ماذا تراهم يقولون وقد وضعوا أيديهم على الحقيقة العلمية التي جاءت موافقة مائة بالمئة لما نص عليه القرآن.

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن: ص ١١٦.

أتراهم يقولون: إن محمداً كان عبقرياً..؟.

وما علاقة العبقرية بأدق المكتشفات العلمية التي لا سبيل للعقل المجرد - مهما بلغ من الذكاء والدهاء - إلى إدراكها، لأنها متوقفة على أدق الوسائل العلمية والبصرية الحديثة..؟.

أم تراهم يقولون: إنما يعلمه بشر، إذاً لكان من الواجب أن يعلمه ما كان سائداً في عصره...

إنهم لا سبيل لهم إلا أن يقولوا: إن هذا تعليم خالق الإنسان، والعالم بسره وتكوينه، ليكون كلامه المعجزة الناطقة الدالة عليه حينما يكتشف البشر حقيقتهم التي كانت خافية عليهم، ويعرفون سرهم الذي كان غائباً عنهم.

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

بلى.. آمنا بك ربنا وسلمنا، لا عن تقليد وإكراه، وإنما عن نظر وعلم، من خلال آياتك، ومعجزات كتابك.

الآية المتمة العشرين

﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾

والاعجاز في الامشاج

لم يكن الناس في الماضي يعرفون شيئاً عن حقيقة بـداية خلق الإنسـان وتكوينه في رحم أمه.

أما العرب فهم الأمة الأمية، ولا علم لديهم في مثل هذه الأمور، وأما الأمم الأخرى التي كانت توجد فيها الفلسفة والحضارة، فقد كانت تسودها في مثل هذا الموضوع التصورات الساذجة، والأفكار البلهاء.

فقد كانوا يعتقدون أن رحم المـرأة ليس سوى محضن لـذلك الجنـين، وشبهوا ذلك بالبذرة تلقى في الأرض، ثم تنمو فيها، والرحم كالأرض للبذرة التي هي نطفة الرجل.

ثم جاء أرسطو، أشهر فلاسفة اليونان، قبل الميلاد بأربعة قرون، إلا أن الأمر لم يزدد إلا سوءً، رغم أن أرسطو أفرد علم الأجنة ببحث خاص بناه على ملاحظة لكثير من أجنة الطيور والحيوانات، وخلاصة رأيه في الأجنة يندرج تحت نظريتين:

الأولى: أن الجنين يكون جاهزاً في ماء الرجل، فإذا دخل الرحم، انعقد ونما كما تنمو البذرة في الأرض.

والثانية: أن الجنـين يتخلق من دم الحيض، حيث يقوم المني بعقـده، ويكون عمله كعمل **الإنفحة** باللبن إذ تعقده جبناً، وليس للمني في إيجاد الولد دور قط سوى المساعدة كدور **الإنفحة**.

وقد اختار أرسطو هذه النظرية الثانية التي لم تسلم من الهجوم والنقاش من أصحاب النظرية الأولى ومؤيديها.

وبقي هذا النقاش محتدماً بين أنصار النظريتين حوالي ألفي سنة دون أن يطرأ على الموضوع أي جديد.

إلى أن اخترع المجهر، حيث تمكن «هوك» وزميله «هام» باكتشاف الحيوان المنوي في مني الإنسان سنة ١٧٦٧.

وتمكن العالم «جراف» من اكتشاف حويصلة البويضة التي ما زالت تدعى باسمه إلى اليوم «حويصلة جراف».

إلا أن أحداً لم يتمكن من إدراك دور كل واحد من المني والبويضة في تخليق الجنين.

واستمر الأمر على ما كان عليه، واستمر فيه النزاع والصراع الفكري مع التقدم البطيء جداً.

ففي عام ١٨٣٩ قدم «شليدن» و«شوان» نظريتهما المتعلقة بالخلية.

وفي عام ١٨٥٩ عرف العلماء أن الحيوان المنوي ليس إلا خلية حية، وكذلك البويضة.

وفي عام ١٨٧٥ تمكن «هيرتوج» من اكتشاف تلقيح الحيوان المنوي للبويضة، وأن الجنين يتكون منهما.

وفي عام ١٨٨٣ تمكن «باندن» من إثبات اكتشاف سابقة «هيرتوج» وأن كلا من البويضة والحيوان المنوي يساهمان بالتساوي في تكوين البويضة الملقحة، كما أثبت «بوفري» عام ١٩٠٩ الكروموسومات وانقسامها وخصائصها.

وفي عام ١٩١٢ تمكن «مورجان» من اكتشاف الجينات وعملها.

وهكذا بقي العالم يتخبط قروناً طويلة في أمر الجنين وتكوينه، إلى أوائل القرن العشرين. حيث تمكن العلماء من اكتشاف الخلية الأولى المتكونة من

البويضة الملقحة بالحيوان المنوي، حيث تختلط فيها الكروموسومات مكونة الخلية الأمشاج[1].

إذن فلم يكن في الزمن الذي نزل فيه القرآن على محمد ﷺ أية أثارة من علم حول موضوع تكوين الجنين.

ولو أراد محمد ﷺ، بل كل من في الأرض أن يتكلموا عن الموضوع، لما تكلموا فيه إلا بمعارف أهل العصر، على النحو الذي قدمناه.

ولكننا وجدنا القرآن، في خضم هذا التيار العاتي من الأفكار الساذجة الخاطئة عن بداية تكوين الجنين، وجدناه يطرح فكرة جديدة في تكوينه، بعيدة كل البعد عن تصورات أهل العصر الذي نزل فيه، بل تخالف معتقدات البشر إلى ما بعد نزوله بثلاثة عشر قرناً.

وجدنا القرآن يطرح معلومة جديدة حول تكوين الإنسان في الرحم، بعيدة كل البعد عن أفكار العصر، وخلاصتها:

ان الجنين يتكون من نطفة أمشاج ـ أي مختلطة ـ من ماء المرأة والرجل، فقال تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعاً بصيراً﴾.

والمراد بالنطفة: الجنس الشامل لماء المرأة، وماء الرجل، أو للبويضة والحيوان المنوي.

والأمشاج: هي الأخلاط المتكوّنة من ماء المرأة وماء الرجل، ويصير المعنى من نطفة مختلطة من ماء المرأة وماء الرجل.

وهذا ما فهمه سلفنا رضوان الله عليهم، لا عن علم وتجربة واكتشاف، ولكن عن إيمان بمضمون كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الذي اتفق عليه المفسرون أيضاً، من القدماء والمحدثين.

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ١٨٣ بتصرف.

فقد روي عن ابن عباس أنه قال: ﴿من نطفة أمشاج﴾ قال: من ماء الرجل وماء المرأة، حيث يختلطان، وقال: هو نزول الرجل والمرأة يمشج بعضه ببعض.

وروي عن الحسن البصري أنه قال في الآية: مُشج ماء الرجل بماء المرأة، فصار خلقاً.

وروي عن الربيع بن أنس أنه قال: إذا اجتمع ماء الرجل وماء المرأة، فهو أمشاج.

وقال الإمام الطبري في تفسيره للآية: إنا خلقنـا ذرية آدم من نـطفة، يعني: ماء الرجل وماء المرأة، وقوله: ﴿أمشاج﴾ يعني: أخلاط، وأحدها مشج ومشيج، يقال منه: إذا مشجت هذا بهذا خلطته، وهو مشوج به، ومشيج: أي مخلوط، ثم قال: وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة.

وهذا الذي قاله ابن عباس، والحسن، والربيع، والطبري، هو ما قاله جميع المفسرين مما فهموه من الآية..

فماذا يا ترى يقول علماء الأجنة في القرن العشرين، وقد أرهقهم البحث عن حقيقة بداية تكوين الجنين ما يزيد عن ألفي عام حتى وصلوا إلى هذا الذي أخبر عنه القرآن قبل أربعة عشر قرناً، وكان موافقاً تماماً لما اكتشفوه...؟!.

ماذا تراهم يقولون وهم يعلمون أن زمن نزول القرآن لم يكن أحد من أهل الأرض يعلم أية حقيقة علمية عن بداية تكوين الجنين، وأن ما كان يعلمه البشر، كانت معلومة ساذجة خاطئة؟!

ماذا تراهم يقولون حينما يجدون أن نهاية مطافهم هي كشفهم للحقيقة القائلة بأن بداية خلق الجنين هي الخلية الأولى المتكـونة من اختـلاط الحيوان المنـوي بالبويضة لتتكون الخلية الأولى الممشوجة منهما، وهو عين ما أخبر عنه القرآن تماماً، في قوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه﴾.

إنه لا يسع أحداً من أهل الأرض ممن يعرف هذه الحقيقة إلا أن يقول: آمنا بك ربنا، وسلمنا أن هذا الكلام لم يكن ليخرج إلا منك، لأنه إخبار عن أمر يستحيل أن يعرفه في ذلك الزمان إلا أنت. .

الآية الحادية والعشرون

﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك﴾

والاعجاز فيها

قال الله تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك﴾ (سورة الزمر: آية ٦).

ولقد بيّنا في الفقرة الماضية كيف أن الناس من قبل الإسلام إلى أوائل القرن العشرين كانوا يجهلون جهلاً تاماً حقيقة تكوين الجنين، ثم تبين لهم بعد ألفي سنة من البحث والدرس أن ما أخبر به القرآن هو اليقين الذي وصلوا له، وآمنوا اليوم به.

وما ذكرناه عن بداية تكوين خلق الإنسان، من حيث الجهل به نقوله وبكل بساطة عن جميع المراحل التي يمر بها الجنين.. ما لم يعرفه العالم إلا في كشوفاته المعاصرة، في العصر الحديث.

ولكن المذهل في الأمر ليس هذا، وإنما هو أنهم وجدوا أن ما وضعوا عليه أيديهم كان هو بذاته عين ما أخبر عنه القرآن قبل أربعة عشر قرناً.

لقد أخبر الله في هذه الآية أن الجنين يمر في خلق من بعد خلق، في ظلمات ثلاث...

ولكن ما هي هذه الظلمات التي ذكرت في القرآن..؟.

لم يكن الناس في الماضي على معرفة بحقيقة هذه الظلمات، ولذلك

فسروها حسب مقتضيات اللغة ومدلولاتها، مع ما هو معروف لديهم بالبداهة عن مكان الجنين، وهو البطن، والرحم، والمشيمة.

فقالوا: الظلمات الثلاث المذكورة في الآية هي: ظلمة البطن، تليها ظلمة جدار الرحم، ثم تليها ظلمة المشيمة المحيطة بالجنين.

وهذا تفسير سليم من جهة اللغة تماماً، وأيضاً هو سليم من حيث الواقع، فالجنين فعلاً يكون في هذه الظلمات.

إلا أن المعلومات الحديثة عن أوعية الجنين، التي أظهرتها الكشوف الحديثة، تعطينا معنى جديداً للظلمات الثلاث، تظهر فيه قدرة الله وعظمته في الخلق والتكوين.

وذلك أن الجنين يكون محاطاً بثلاثة أغشية تحيط به من كل جانب، وكل غشاء من هذه الأغشية يقوم بدور لا يقوم به الغشاء الآخر.

الأول، غشاء السلى، أو غشاء الأمنيون، ويدعى بالغشاء الباطن، لأنه يحيط بالجنين من كل جانب، وهو عبارة عن كيس غشائي رقيق، يحتوي سائلاً يزداد مع نمو الجنين، ويقوم على تغذيته وحمايته من الصدمات، كما يسمح للجنين بالحركة، ويحتفظ له بالحرارة الثابتة، إلى جانب فوائد أخرى، ولا سيما أثناء الولادة.

وهذه هي الظلمة الأولى.

وأما الغشاء الثاني: فهو غشاء الكوريون، ويكون محيطاً بالغشاء الأول، وطبقته الخارجية بها زغابات وخملات كثيرة، تنتقل بواسطتها الأغذية والأوكسجين من الأم إلى الجنين، كما ينتقل غاز ثاني أوكسيد، الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم.

وهذا يشكل الظلمة الثانية.

وأما الثالث: فهو الغشاء الساقط، ويحيط بالغشاء الثاني، ومن ثم بالجنين من كل جانب، وهو مكوّن من الغشاء المخاطي المبطن للرحم، وهو رقيق، إلا أنه ينمو نمواً سريعاً بتأثير هرمون الحمل.

وهذا يشكل بدوره الظلمة الثالثة.

وبهذا نكون قد وقفنا على معنى آخر للظلمات الثلاث التي يكون فيها الجنين، وهو معنى جديد ما كان الإنسان القديم يعرف عنه شيئاً، وقد جاء موافقاً لإخبار القرآن، ليضيف به معجزة جديدة لمعجزات القرآن العلمية التي أخبر عنها قبل أربعة عشر قرناً من الزمان..

﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك﴾.

الآية الثانية والعشرون

﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾

والاعجاز فيها

قال الله تعالى: ﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (سورة النساء: آية ٥٦).

لقد قرأ أسلافنا رضوان الله عليهم هذه الآية، وفهموها فهماً سليماً، مطابقاً لمدلولها اللغوي، الذي يجب أن يكون أولاً وأخيراً الحكم في تفسير كتاب الله، فقالوا: معنى الآية أنه كلما احترقت جلودهم ونضجت بدلناهم بجلود أخرى غيرها، لتحترق هذه الجلود ثانية، ويعودَ العذاب.

فقال مقاتل: تأكل النار جلودهم كل يوم سبع مرات.

وقال الحسن: تأكل النار جلودهم كل يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فعادوا كما كانوا.

وقال ابن عمر: إذا احترقوا بدلت لهم جلود بيض كالقراطيس.

ولكن لماذا تبدلت جلودهم بجلود غيرها..؟.

ولماذا كان التبديل خاصاً بالجلود؟.

ولم قال تعالى عقب هذا ﴿ليذوقوا العذاب﴾؟.

أو ما كان من الممكن أن يذوقوا العذاب باحتراق لحمهم وعظامهم؟.

أسئلة ما كانوا يستطيعون الإجابة عنها، لأنهم لم يكونوا على علم بالعلاقة

الكائنة بين الجلد والعذاب، مما عرفناه نحن اليوم، وكان تصورهم أن الجلد يألم بسبب احتراقه، أو أن النفس تألم بسبب احتراق الجلد، ولكن لم..؟ لا يدرون.

ولذلك أثار الفلاسفة أمام المسلمين مسألة من مسائلهم التي جعلوها شبهة لنفي حشر الأجساد يوم القيامة ـ فيما كفروا به من قولهم: إن الله يحشر الأرواح دون الأجساد.

فقالوا: كيف يجوز أن يبدل جلد كان يتلذذ بالمعاصي في الدنيا بجلد آخر ما كان يتلذذ بها..؟ فكيف يجوز أن يعذب هذا الجلد الجديد بدلاً عن الجلد القديم؟!.

وقد أجاب السلف رضوان الله عليهم بأجوبة متعددة تتفق في نتيجتها مع الحقيقة العلمية التي يعرفها العلماء والمعاصرون.

ولكن الفرق بين المعرفتين أن معرفة أسلافنا رضوان الله عليهم كانت مبنية على إخبار القرآن وتعليله، فيه إجابة نظرية، مبنية على الإيمان بالله.

بينما إجابة العلماء اليوم مبنية على التجربة والكشف، فهي إجابة عملية تجريبية.

وذلك كاعتقاد سلفنا بأن الماء يحترق، وذلك لإخبار القرآن عن احتراقه، كما أسلفنا في هذا الموضوع، ولكن لماذا؟ ما كانوا يدرون والعلماء المعاصرون يعتقدون أيضاً أن الماء يحترق، ولكن ليس من إخبار القرآن، وإنما من كشفهم لحقيقة الماء وتركيبه.

فما جاء به العلم الحديث، فيما خاض القرآن فيه، أو أشار إليه، لم يكن علماً جديداً بالنسبة للمسلمين، وإنما كان تصديقاً لما تعلموه من كتاب الله، وكشفاً للعلة والسبب الذي من أجله كان إخبار القرآن، ليثبت العلم بذلك إعجاز القرآن.

فقالوا رضي الله عنهم في جواب الفلاسفة: إن ألم العذاب إنما يصل إلى

الإنسان الذي هو غير الجلد واللحم، وإنما يحرق الجلد ليصل إلى الإنسان ألم العذاب، فأما الجلد واللحم فلا يألمان، وبناء على ذلك يستوي الأمر بالنسبة للكافر، أعيد إليه جلده السابق، أم جلد آخر سواه[1].

قالوا: والدليل على هذا أن الله تعالى قال: ﴿ليذوقوا العذاب﴾ فالمقصود تعذيب الأبدان، وإيلام الأرواح، ولو أراد الجلود لقال: ﴿ليذقن العذاب﴾[2].

وإننا في هذا العصر الذي وضعنا فيه أيدينا على الكثير مما كان مجهولاً للبشرية قديماً، في جانبي الكون والحياة.. لا نستطيع أن نقول غير هذا.

ولكننا نستطيع أن نعلله، والتعليل الذي عرفناه كان عين ما أخبر عنه القرآن.

وذلك أن النهايات العصبية الملتصقة بالجلد هي التي تنقل ما تُحسه من الحرارة والبرودة وغير ذلك إلى المخ، الذي لا يلبث أن يصدر أوامره إلى الأطراف، بناء على ضوء المعلومات المنقولة إليه.

وعلى سبيل المثال إذا قربنا إلى الجلد شيئاً حاراً، فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية، وترسلها فوراً إلى المخ، وبناء على ذلك نحس بالألم، فإذا ما احترق الجلد، واحترقت هذه الخلايا الملتقطة للحرارة، انقطع الإتصال، وفقد الإحساس بالألم إجمالاً.

إذن فالجلد بما يحتويه من الخلايا العصبية الناقلة للحرارة، هو السبب الذي نحس به بألم الحرارة.. ولذلك كان لا بد من وجود الجلد، لنحس بآلام الحرق.

من أجل هذا اقتضت الحكمة الإلهية أن يتجدد جلد الكافر، وأن يرجع كما كان من أجل أن يستمر شعوره بألم الحرق وعذابه، على أكمل وجه وأتمه.

---

(١) تفسير الماوردي: ١/٣٩٩.

(٢) القرطبي: ٥/٢٥٤.

﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾.

فقوله تعالى: ﴿ليذوقوا العذاب﴾ واضح كل الوضوح في التعليل العلمي الذي ذكرناه، مما يدلنا دلالة صريحة على أن هذا الكلام إنما هو كلام خالق الإنسان ومبدعه، وليس من كلام البشر، وإلا فما كان في ذلك العصر الذي نزل فيه القرآن من المعارف والعلوم ما يمكنهم من الكلام على هذه الحقائق العلمية التي لم يعرفها الإنسان إلا في العصر الحديث.

إن الآيات التي تتعرض لمثل هذه الحقائق في الحياة كثيرة، ولم يحدث أبداً أن أثبت العلم تخلف القرآن في خبر واحد من هذه الأخبار، بل إن كل ما جاء به العلم الحديث كان إثباتاً لصدق ما أخبر عنه القرآن تماماً، ليدل كل عاقل على أن هذا الكلام إنما هو كلام الله.

إن أعظم عباقرة الدنيا، في شتى مجالات العلم والمعرفة، مع ما لديهم من وسائل علمية للكشف والإدراك ليكتبون ويؤلفون، ولكن لا تلبث الأيام إلا قليلاً حتى تكشف عن كثير من الأخطاء في كتاباتهم ومؤلفاتهم، بسبب تطور العلوم، والوقوف على المزيد من الأسرار، وهذا لم يخل منه كتاب على وجه الأرض، إلا القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تزيده العلوم والمكتشفات إلا قوة وثباتاً، ولا تظهر فيه إلا الإعجاز، ليبقى التحدي للإنسان قائماً إلى يوم القيامة، وليبقى العجز الإنساني عن تحدي القرآن أيضاً إلى يوم القيامة.

﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾.

﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

كما أن الإنسان إذا أراد أن يتكلم فإنما يتكلم بلغة معارفه، وإذا أراد أن يعمل، فإنه يعمل حسب طاقته، فإذا ما وجدنا طفلاً صغيراً ما كاد يجيد النطق بعد وإذا به فجأة يتكلم بعدة لغات عالمية يعجز الإنسان عن تعلمها خلال

الدهر الطويل.. إننا حينما نجده، وهو لم يجد النطق بعد، حينما نجده ينطق بهذه اللغات، فإننا نستغرب هذا، وننسبه إلى أمر وراء الطبيعة، وتكثر حوله الأساطير والخرافات، ويتناقل خبره العلماء التجريبيون، والفلاسفة النظريون، والعامة والخاصة، مع علمنا بأن الناس حوله يتكلمون بهذه اللغات التي نطق بها، وأمر تعلمها له ليس بمستحيل، ولكنه بعيد كل البعد عن الطاقات البشرية المعتادة عند طفل صغير، ولذلك كان مثل هذا مستغرباً منه.

فماذا نقول إذا سمعنا أمياً في وسط جزيرة العرب، لا يعرف قراءة ولا كتابة، ولم يطالع كتب فلك، ولا طب، ولا هندسة، ولا علوم، ومع ذلك ينطق بالقوانين العلمية في شتى مجالات العلم والمعرفة، وفيها لم يكن معروفاً في زمنه أبداً، ولا ينطق به من الناس أحد ـ وبعد القرون الطويلة المتعددة تأتي العلوم الحديثة لتثبت كل ما قاله حرفاً حرفاً.

لا شك أننا نقطع بأن هـذه القوانـين التي قالهـا، وتلك الكلمات التي رددها، لم تكن من صنعه ولا اجتهاده، لأنها لم تكن معروفة في أهل الأرض، وإنما هي قول خالق الكون والإنسان العارف بما خلق، ليجعل من هذا الكلام معجزة علمية دالـة عليـه ومشيـرة إليـه، ﴿ألا يعلم من خلق وهـو اللطيف الخبير..؟﴾.

خاتمة

إن هذاالذي ذكرناه من الآيات القرآنية التي ظهر فيها الإعجاز العلمي لكل ذي سمع وبصر، لا شك أن الإعجاز فيها ليس على مستوى واحد من الظهور، بل هو متفاوت، إلا أن أدنى درجاتها يكاد ينطق بالإعجاز، ويدل على أنه من كلام الله، ويعتبر صرخة مدوية في عصر المادة والإلحاد يهز كيان الإنسان المادي في أعماقه ليلفت نظره إلى خالقه.. في عصر خبت فيه جذوة الروح، واضمحلت معاني الغيب والإيمان.

وإني لأعتقد أن كثيراً من الماديين الملحدين اليوم لو أتيح لهم أن ينظروا في كتاب الله على هذا النحو الذي ذكرناه من وجوه الإعجاز العلمي فيه لما وسعهم إلا أن يعلنوا إيمانهم بالخالق العليم الحكيم.. كما فعل كثير من المنصفين.

فنحن اليوم إذن في أشد الحاجة إلى الوقوف على كل معنى من معاني كتاب الله مما له صلة بالعلوم من قريب أو بعيد، لنخاطب العالم بلغته التي يعرفها، ومناهجه التي رسمها.

وإن هذا الذي ذكرناه من الآيات ليس كل ما في القرآن الكريم من الآيات التي يظهر فيها الإعجاز العلمي، وإنما هو بعضها، يتم فيها أحدنا ـ نحن المهتمين بالدعوة إلى هذا الدين ـ يتم فيها أحدنا طريق الآخر، لتبقى مسيرة الدعوة قوية، ويبقى الاهتمام بالنظر في آيات القرآن الكريم قائماً عند كل مسلم، بل عند كل عارف بحقيقة كتاب الله، كما يفعل كثير من العلماء والباحثين اليوم، ويستنبط الجميع منه أسرار الكون والحياة، وراء معنى التعبد الذي تعبدنا به الله تعالى ـ نحن المسلمين ـ بتلاوته وتدبره والعمل بأحكامه.

ولا ندري ماذا تحمله لنـا الأيام في طيـاتها، في بحـار العلوم والمعارف المعاصرة، مما سيكشف لنا الكثير والكثير من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم في شتى مجالات العلم والمعرفة.

فإن في القرآن لكثيراً من الآيات التي تشير إشارات خفية إلى معان يقف الإنسان إزاءها حائراً، يجد فيها العديد من الاحتمالات والكثير من المعـاني، وكأنها تلوح من خلالها بوارق معرفة جديدة ربما غيرت مسيرة العلم، وبدلت كثيراً من مناهج الحياة.

وإن شئت أخي القارىء فتساءل معي عن سر الأرضين السبع التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى:

﴿الله الذي خلق سبع سموات، ومن الأرض مثلهن، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ (سورة الطلاق: آية ١٢).

وعن سر نقصان الأرض من أطرافها في قوله تعالى: ﴿إنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾.

وعن سر سد يأجوج ومأجوج، وعن سر القوم أنفسهم، الذي أشار إليه القرآن بالتفصيل في سورة الكهف.

وعن سر القسم بكثير من المخلوقات، من الثمـار، والجمادات، وغـير ذلك، إلى آيات كثيرة في هذا المعنى لا أريد الإسهاب بذكرها.

إننا متعبدون حتى الآن بفهمها حسب قواعد اللغة، وما نقل إلينا من آثار عن السلف رضوان الله عليهم في فهمها، ونحن نؤمن بها حسبما هو مفهوم من ظاهرها بناء على القواعد المسلمة في التفسير.

ولكنني على يقين بأن العلوم ستكشف لنا عن كثير من الأسرار والخفايا التي لا نعلمها، لا تنفي المعنى المفهوم من ظاهرها بل تكشف لنا عن سر معنى جديد كان خافياً علينا، يظهر فيه الإعجاز القرآنيّ بأوضح صورة وأدقها، لتثبت

التطورات العلمية إلى قيام الساعة أنها في نهاية مطافها لا تجد بداً من الإذعان لإعجاز القرآن فإن خالق القانون العلمي، والمخبر عنه في القرآن الكريم واحد، ألا وهو الله الذي أتقن كل شيء خلقه، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾، ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.



الذروة الإعجاز العددي
في
القرآن الكريم

مقدمة

إننا وقبل أن نترك الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، والذي اكتفينا فيه بما أوردناه من الآيات عما لم نورده منها، إننا وقبل أن نتركه يجدر بنا أن نعرج على أمر مهم له مساس بالعلوم المعاصرة، ومكتشفات العصر، ألا وهو الإعجاز العددي في القرآن الكريم، والذي صارت له شهرة ورواج لا يخفيان على أحد، حتى صار يتردد في كل مجال، ومن المؤسف أنه صار يردده بعض الدعاة مستسلمين لما فيه من الأوهام والأكاذيب، التي زعمها صاحب الفكرة رشاد خليفة، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث فيها والتمحيص لها.

قاعدة عامة في التفسير:

وقبل الدخول في الموضوع، وبيان ما فيه من حق أو باطل، يجب علينا أن نبين القاعدة الهامة التي يجب على كل من يخوض في القرآن الكريم أن يرجع إليها، سواء أكان يريد أن يخوض في تفسيره، أم يريد أن يستنبط منه الأحكام، أم يريد أن يظهر فيه الإعجاز، أم يريد أن يخوض في أي جانب من جوانبه الكثيرة ـ يجب على كل أحد يريد شيئاً من هذا أن يلتزم هذه القاعدة. . .

وهي أن الله قد أنزل كتابه الكريم بلغة العرب، وتعبدنا نحن المسلمين عرباً كنا أم من غير العرب ـ تعبدنا أن نفهم القرآن بناء على قواعد لغة العرب التي أنزله بها، وبناء على مفهوم مدلولاتها.

فقال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾ (سورة يوسف: آية ٢).

وقال جلّ وعلا: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾ (سورة الزمر: آية ٣٩).

وقال: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين﴾ (سورة الشعراء: آية ١٩٥).

والآيات في هذا أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وكلها تدل على أن القرآن نزل بلغة العرب، ولا دخيل من غيرها فيه.

وبناء على ذلك، فإننا يجب علينا أن نفهم القرآن من خلال **قواعد لغة** العرب التي نزل بها، ولا يجوز لنا العدول عنها، مهما كانت الظروف والأحوال.

ولذلك وجدنا أن نبينا عليه الصلاة والسلام، وأصحابه من بعده، وأمته من بعد أصحابه، إلى يومنا هذا، بل إلى يوم القيامة، قد فهموا هذا الكتاب على هذه القواعد وكانوا إذا بيّنوه بينوه بناء عليها.

فإذا ذكر الله تعالى لنا ﴿البقرة﴾ في سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ فهمنا منها أنها البقرة المعروفة، وهي الحيوان الأليف اللبون ذو القرون.

ومن فهم من البقرة غير هذا الفهم، وزعم أنها نوع من أنواع العصافير ـ كما زعمه بعض المحرفين لكتاب الله ـ فإنه لا شك بأن فهمه هذا خطأ وضلال وانحراف، وإلحاد في آيات الله، يلزم منه الكفر، لأنه عبث بكتاب الله، وتفسير باطني خارج عن قواعد اللغة، ومدلولات الخطاب، والمتبادر من معاني الألفاظ.

ومن فهم من المسجد الأقصى، المذكور في قوله سبحانه: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ من فهم منه مسجداً آخر غير المسجد المعروف في القدس، والذي يعرفه كل مسلم ـ كما فهمه بعض المحرفين لكتاب الله أيضاً، فإنا نقول فيه ما قلناه فيمن فهم العصفور من البقرة.

وهكذا نطرد القول في كل من حاول تحريف آيات القرآن بإعطائها معنى جديداً غير المعنى المفهوم منها حسب لغة العرب وقواعدها.

من أجل هذا ألزم العلماء قديماً وحديثاً ألزموا من فهم من الكلام غير مدلوله العربي ـ ألزموه الكفر والإلحاد.

وذلك لأنه لو كان يجوز للإنسن أن يفهم من القرآن ومن الكلام ما يروق له، مما يتفق مع شهواته وأهوائه، دون ضابط لغوي، أو قاعدة سليمة، لأدى هذا إلى تحريف القرآن، وتبديل الدين، وتغيير الأحكام واضطراب المعارف، وتزييف الحقائق، وتسفيه العقول، ولجعل الإنسان سوفسطائياً مجنوناً، بدلاً من أن يصير عالماً عاقلاً.

تجنب العلماء وردهم لكل ما كان فيه بعد من المعاني:

ولهذا الذي ذكرناه، حرص علماؤنا سلفاً وخلفاً على تجنيب القرآن كل ما من شأنه أن يؤدي في نهاية الأمر إلى البعد عن مدلولاته العربية، والانحراف عن معانيه الأصلية، سداً للذرائع، ودرءً للمفاسد، وطرداً لباب الانضباط في دائرة المعاني التي وضعت لها لغة العرب، ودلت عليها.

ومن أجل هذا رد العلماء كل تفسير فيه تكلف أو بعد، ولو كان معقولاً.

من ذلك ما ذكره بعض المفسرين من المعاني المتكلفة في البسملة، كقول بعضهم في كلمة ﴿بسم﴾ من ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ إذ قال:

الباء: بهاء الله، وبركته، وبره، وبصيرته.

والسين: سناؤه، وسموه، وسيادته.

والميم: مملكته، ومجده، ومَنُّه.

وقال بعضهم: إن الباء تعني: أنه بريء من الأولاد، والسين: سميع الأصوات، والميم: مجيب الدعوات.

وقال بعضهم: إن الباء تعني: بارىء الخلق، والسين: ساتر العيوب، والميم تعني: المنان.

قال الإمام أبو الحسن الماوردي بعد أن ساق هذه الألفاظ التي أبعدت في التكلف، والتنطع، والتحكم في المعاني، قال رحمه الله: ولولا أن هذا الاستنباط يحكى عمن يقتدى به في علم التفسير ـ لرُغِبَ عن ذكره، لخروجه عما اختَصَّ الله تعالى به من أسمائه.

لكن قاله متبوع، فذكرته مع بعده، حاكياً لا محققاً[1].

ولهذا نظائر كثيرة، سنقف على بعضها في الفقرات القادمة، على أن المنهج الباطني في التفسير كله على هذا المنوال.

التفسير بالأرقام منهج باطني يهودي قديم:

هذا وإن مسألة التفسير الباطني، والتفسير بالأرقام، وجعل الألفاظ القرآنية رموزاً ظاهرة لمعان باطنة، ليست جديدة، وإنما هي قديمة قدم الإسلام، وقدم الحركات الهدامة التي نشأت فيه.

وإن من المعروف لدينا جميعاً أن اليهود هم أول من حاول التفسير بالأرقام.

فقد أخرج ابن إسحاق، والبخاري في تاريخه، وابن جرير الطبري في تفسيره، عن ابن عباس، عن جابر بن عبدالله بن رباب قال: مر أبو ياسرٍ بنُ أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه: ﴿آلم ذلك الكتاب﴾.

فقالوا؛ أنتَ سمعته؟.

قال: نعم، فمشى حيي في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك: ﴿آلم ذلك الكتاب﴾؟.

قال: بلى.

قالوا: قد جاءك بهذا جبريل من عند الله؟.

---

(١) تفسير الماوردي: ١/٥١.

قال: نعم.

قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء، ما نعلمه بُيِّنَ لنبي لهم ما مدة ملكه، وما أجل أمته غيرك.

فقال حيي بن أخطب، وأقبل على من كان معه: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه، وأجل أمته إحدى وسبعون سنة..؟

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟.

قال: نعم.

قال: ما ذاك؟.

قال: ﴿آلمص﴾.

قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه مائة وإحدى وستون سنة.

هل مع هذا يا محمد غيره؟.

قال: نعم.

قال: ماذا؟.

قال: ﴿آلر﴾.

قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة.

فهل مع هذا غيره؟.

قال: نعم ﴿آلمر﴾.

قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان.

ثم قال: لبس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً.

ثم قاموا، فقال أبو ياسر لأخيه حيي ومن معه من الأحبار: وما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون.

فقالوا: لقد تشابه علينا أمره[1].

فهذا واضح صريح في محاولة اليهود لفهم فواتح السور، فهماً حسابياً رقمياً، يستدلون به على أمر باطني، لا تدل عليه هذه الحروف، لا من قريب، ولا من بعيد، ولا وضعت له، ألا وهو عمر أمة محمد ﷺ، مما أنكره عليهم كل مسلم، وكذبه الواقع.

الربط بين المنهج اليهودي ومنهج رشاد خليفة:

وأنا أذكر هذا لأربط بينه وبين المنهج الذي سلكه رشاد خليفة في تفسيره الباطني بالأرقام، على ما سنبينه في الفقرات القادمة إن شاء الله، ووصل به في نهاية المطاف إلى أنه ادعى العلم بقيام الساعة وحدده..؟؟.

وقد اعتمد في منهجه واستدلاله على هذا الذي قاله اليهود على ما سنعرفه سالكاً منهجهم، ومتمماً لطريقهم.

كلام حجة الإسلام الغزالي في مثل هذه التفسيرات الباطنية:

وقد ذكر حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في كتابه «فضائح الباطنية» بعض تفسيرات الباطنية وتحريفاتهم لكتاب الله، فقال: إنهم يزعمون أن كلمة محمد حيثما وردت، لا يراد بها ذكر رسول الله، فهذا أمر ظاهر، وأما الحقيقة والباطن فالمراد بها علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، وذلك أنها مركبة من أربعة أحرف فالميم إشارة لعلي، والحاء إشارة لفاطمة، والميم الثانية إشارة للحسن، والدال إشارة للحسين.

فقال الغزالي معارضاً لهم، وراداً لكلامهم: إذا كان القرآن يفسر هكذا، بدون ضابط، وتبعاً للشهوة والهوى والعقائد الضالة المنحرفة فإنا نقول:

---

(١) الدر المنثور: ١/٢٣، والطبري: ١/٢٧.

إن كلمة محمد حيثما وردت دلت على أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم.

وذلك أنها مكونة من أربعة أحرف، وهم أربعة خلفاء، فالميم إشارة إلى أبي بكر، والحاء إشارة إلى عمر، والميم الثانية إشارة إلى عثمان، والدال إشارة لعلي.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿حمعسق﴾ قالوا: الحاء: حرب علي ومعاوية.

والميم: ولاية بني مروان.

والعين: ولاية العباسيين.

والسين: ولاية السفيانيين.

والقاف: القدوة بالمهدي.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قالوا: المراد بالبقرة عائشة، والمراد بقوله: ﴿اضربوه ببعضها﴾ طلحة والزبير.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر﴾ المراد بهما: أبو بكر وعمر.

إلى آخر ما هنالك من الأباطيل الناجمة عن الزندقة، والكفر والإلحاد، والاستهزاء بالقرآن.

وأنا لا أسوق هذا لأبين نماذج من التفسير الباطني الملحد - كما ذكرت - وإنما لأربط بين هذا الانحراف وبين الانحراف الجديد الناتج عن التفسير بالأرقام الذي وصل إلى نفس هذه المعاني التي ذكرناها عن الباطنية والملاحدة، والذي وصل لدرجة العلم بموعد قيام الساعة.

الفرق الباطنية ما زالت قائمة:

وقبل أن ندخل فيما رمينا إليه من هذه المقدمة، من الكلام على ما يسمى بالمعجزة العددية، يجب علينا أن نعلم أن الفرق الباطنية الهدامة ما زالت قائمة في أمتنا، وربما كان بعضها أقدر على العمل اليوم منه في الماضي، مما لا يخفى على أحد.

اتخاذ البهائية الرقم (١٩) رمزا لها:

كما أنه يجب علينا أن نعرف أن البهائية، وهي الفرقة الكافرة، التي لا يخفى كفرها على مسلم، والتي اتخذت لنفسها كتاباً، ونبياً، وتشريعاً، وقانوناً، سوى كتاب الله، ونبيه محمد ﷺ، وسوى التشريع الإسلامي، ودعت إلى الشيوعية الجنسية، وغير ذلك، مما لا داعي للإطالة به، بعد أن عرفنا كفرها، بإعراضها عن كتاب الله ونبيه.

يجب علينا أن نعرف أن هذه الطائفة الكافرة، قد اتخذت لنفسها من الرقم (١٩) تسعة عشر سراً ورمزاً.

وذلك أن ميرزا علي محمد، مؤسس البهائية أو البابية، الملقب «بالباب» استطاع أن يجمع حوله ثمانية عشر شخصاً، وسماهم بكلمة «حي».

وهي في حساب الجُمَّل - أي بتحويل الحروف إلى أرقام - تساوي ثمانية عشر.

وذلك أن الحاء تساوي رقم ثمانية (٨) والياء تساوي رقم عشرة (١٠) فالمجموع ثمانية عشر.

ولما كان الملا حسين البشروني أولَ من آمن بالباب، التفت إليه الباب وقال له: يا من هو أول من آمن بي حقاً، إنني أنا باب الله، وأنت باب الباب، ولا بد أن يؤمن بي ثمانية عشر نفساً، بكامل رغبتهم، دون ضغط أو إكراه، ويعترفوا برسالتي.

ويجب انتخاب أحدهم لمرافقتي في الحج، وهناك أبلغ الرسالة الإلهية إلى شريف مكة، ثم ارجع إلى الكوفة، وفي مسجدها أظهر الأمراء.

وفي وقت توديع الباب لحروف حي - وهم مريدوه - أمرهم أن يدونوا في قائمةٍ اسمَ كل مؤمن اعتنق الدعوة، وقال لهم:

سوف أبوب هذه الأسماء ثمانية عشر باباً، وأجعل كل باب يحتوي على أسماء تسعة عشر شخصاً، فيكون كل باب في مجموعة واحدة.

فإذا أضيفت هذه الأسماء في أبوابها الثمانية عشر إلى الواحد الأول الذي تكون من اسمي وأسماء الحروف الثمانية عشر، التي هي حروف «حي» فإنها تكون عدد كل شيء.

وانتبه أخي القارىء إلى كلمة «فإنها تكون عدد كـل شيء، لما لهـا من الأهمية في موضوعنا».

كما ألف الباب كتابه المسمى «بالبيان» ورتبه على تسعة عشر واحداً.

وقسم كل واحد إلى تسعة عشر باباً.

فتكون أبـواب الكتاب واحداً وستين وثلاثمائة، وهذا العدد من مضاعفات الرقم تسعة عشر (١٩).

والسنة عند البهائيين مكوّنة من تسعة عشر شهراً، مع أن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، وما ذاك إلا زيادة في كفرهم وتقديسهم للرقم (١٩) الذي هو رمزهم وسرهم.

وكل شهر من شهورهـم مكوّن من تسعة عشر يوماً، فالسنة عندهم واحد وستون يوماً وثلاثمائة يوم وهو من مضاعفات الرقم تسعة عشر.

والصوم عندهم في الشهر التاسع عشر، المسمى بشهر «العلاء» فيصومون تسعة عشر يوماً.

وعدد ركعات الصلاة اليومية عندهم «تسعـة» فعدد ركعـاتهم في السنة (٣٢٤٩) ركعة، وهو حاصل ضرب (٣٦١) وهو عدد أيام السنة في (٩) وهو عدد الركعات، وهذا العدد من مضاعفات التسعة عشر ٣٦١ × ٩ = ٣٢٤٩.

ومهر الزوجة عندهم لا يقل عن تسعة عشر مثقالاً من الذهب الإبريز، ولا يزيد عن(٩٥) مثقالاً، وهو من مضاعفات الرقم (١٩).

كما ورد في قانون الأحوال الشخصية على مقتضى الشريعة البهائية، وهو مستمد من كتاب «الأقدس» الذي وضعه الباب ميرزا حسين.

وقال الباب في كتابه «البيان» في الباب الثامن، من الواحد الثامن ما نصه: «يجب على كل نفس أن يورث لوارثه تسعة عشر أوراقاً من القرطاس اللطيفة، وتسعة عشر خاتماً ينقش عليها اسماً من أسماء الله».

وقال في الباب الثالث من الواحد السابع: «فيما فرض الله على كل عبد أن يكون عندهم تسعة عشر آية، ممن يظهره الله في أيام ظهوره بخطه».

وقال في الباب السادس عشر من الواحد السادس: «ومن يجير أحداً على أحد في سفر، أو يدخله بيته بغير إذنه، أو يريد أن يخرجه من بيته بغير إذنه، حرم عليه زوجته تسعة عشر شهراً».

وقال في الباب الثامن عشر من الواحد السابع: «إن من يحزن نفساً عاقلاً، فله أن يؤتي تسعة عشر مثقالاً من الذهب»[1].

وبهذه المقتطفات السريعة من أقوال الباب وبأمثالها مما ورد ذكره كثيراً في كتابه - نفهم معنى قوله السابق في العدد تسعة عشر، المكوّن منه ومن مريديه المرموز لهم برمز حي، إذ قال في هذا العدد: إنه عدد كل شيء، كما ذكرناه قبل قليل.

وأنا إذ أسوق هذا الكلام، لا أسوقه لذاته، وإنما أسوقه لأربط بينه وبين التفسير بالأرقام، الذي بدأه اليهود على عهد النبي ﷺ، ولأربط بينه وبين ما يدعى في هذه الأيام من أن الرقم تسعة عشر سرُ القرآن، لتحرف به معاني كلماته، ولننتقل الآن إلى صلب الموضوع.

محاضرة رشاد خليفة ودعواه:

لقد ألقى الدكتور رشاد خليفة محاضرة في الكويت عام ١٩٧٦ في موضوع الإعجاز العددي في القرآن، وخرج فيها على الملأ بفكرة الإعجاز الذي يدور حول الرقم تسعة عشر، وقال:

---

(١) البهائية في الميزان، لأمير القزويني، وانظر: التسعة عشر ملكاً ص ٢٩ - ٣٦ للمستشار ناجي حسين.

إن الإعجاز العددي الذي وقف عليه من خلال هذا الرقم لم يكن معروفاً لأحد قبل شهر يونيو ١٩٧٥ الموافق لجمادى الثانية من عام ١٣٩٥ هـ وأنا سأوجز هذه المحاضرة الآن، كما قالها، وبعد ذلك سأتكلم على ما فيها من إيهام وكذب، وتحريف وتضليل، ثم ما يترتب على القول بها من تفسير باطني للقرآن الكريم، على غرار تفسيرات الباطنية، والبهائية، ومن نحى نحوهم، على أن محاضرته مطبوعة ومعروفة.

قال:

«إن عدد حروف البسملة يتكون من تسعة عشر حرفاً».

وإن كل كلمة من كلمات البسملة يتكرر في القرآن أيضاً عدداً من المرات، هي دائماً من مضاعفات الرقم تسعة عشر.

فكلمة «اسم» تتكرر في القرآن تسع عشرة مرة.

وكلمة «الله» تتكرر ٢٦٩٨ مرة، وهي من مضاعفات (١٩)، إذ هي حاصل ضرب ١٩ × ١٤٢ = ٢٦٩٨.

وكلمة «الرحمن» تتكرر ٥٧ مرة، ثلاثة أضعاف الرقم (١٩).

وكلمة «الرحيم» تتكرر في القرآن ١١٤ مرة، ستة أضعاف الرقم (١٩).

ثم تكلم على خاصية الرقم (١٩)، وأنه يحتوي على بداية النظام الحسابي وهو رقم (١)، ونهايته، وهو الرقم (٩)، وإن هذا الرقم (١٩) لا يقبل القسمة.

ثم قال: إن هذا التكرار لكلمات البسملة على هذا النحو - أي أنه جاء على أضعاف الرقم (١٩) قال: إن هذا يستحيل أن يكون من قول البشر.

إذ لو زادت كلمة الرحمن مثلاً مرة واحدة، فكانت (٥٨)، بدلاً من (٥٧)، لما قبلت القسمة على الرقم (١٩).

وهكذا بقية كلمات البسملة.

وبعد ذلك انتقل نقلة واسعة فقال: إننا نجد الرقم (١٩) نفسه في سورة المدثر، في الآية رقم (٣٠) في قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾.

أي أن الإنسان الذي يقول: إن القرآن من قول البشر، سيعاقب، ويكون عقابه تحت إشراف تسعة عشر.

ثم قال: إن التفسير القديم لهذا الرقم، هو أنهم حفظة جهنم، إلا أننا بمعلوماتنا الجديدة نجد أن التسعة عشر هي حروف البسملة، وهذا هو التفسير الجديد لهذه الآية.

قال: والآية التالية لآية: ﴿عليها تسعة عشر﴾ تعلمنا أسباب اختيار الرقم (١٩) بكل وضوح، إذ تقول الآية: ﴿ما جعلنا عدتهم إلا فتنة﴾.

قال: تعني: أن الأسباب التي من أجلها اخترنا الرقم (١٩) هي خمسة أسباب:

أولاً: فتنة للذين كفروا.. أي إزعاج لهم، ولا شك أن هذه الحقائق الإعجازية الكامنة في التسعة عشر حرفاً، وهي بسم الله الرحمن الرحيم، سوف تزعج الكفار.

ثانياً: ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ فهناك المسيحيون الطيبون، واليهود الطيبون، وأهل الكتاب هؤلاء- يرون أن القرآن كتاب عظيم، لا غبار عليه، لكنهم ليسوا متأكدين أنه من عند الله.

قال: فهذه الحقائق الكامنة في التسعة عشر سوف تساعدهم ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾.

ثالثاً: توضح الآية ٣١ من سورة المدثر، وهي: ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ ما قلنا، وذلك أننا مؤمنون، فإذا رأينا إعجاز الرقم (١٩) ازداد إيماننا.

رابعاً: ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي يمحو أي آثار للشك أو الريبة فيما يتعلق بكون القرآن من الرحمن الرحيم.

خامساً: لكشف المنافقين والكافرين، وإظهار حقيقتهم المتعصبة العمياء.

وأخيراً.. فإن الآية (٣١) تقول لنا في نهايتها «وما يعلم جنود ربك إلا هو» إذن فالرقم (١٩) ليس عدد حراس جهنم.

وأضاف أن في القرآن خاصية هامة متعلقة بالحروف النورانية، المعروفة بفواتح السور.

وذلك أن نصف الحروف الأبجدية، وهي أربعة عشر حرفاً، تشترك في تركيب أربع عشرة فاتحة من فواتح السور، وهي: (ق، ن، ص، طه، طس، يس، حم، الم، الر، طسم، عسق، المر، المص، كهيعص).

قال: وهذه الفواتح نجدها في تسع وعشرين سورة، فإذا جمعنا أربعة عشر حرفاً، مع أربع عشرة فاتحة، مع تسعة وعشرين سورة بدئت بهذه الفواتح، كان المجموع سبعاً وخمسين، وهو من مضاعفات الرقم تسعة عشر.

ثم قال: وسوف نجد أن الرقم تسعة عشر قاسم مشترك أعظم بين جميع فواتح السور، بدون استثناء.

فلننظر الآن إلى أحد هذه الفواتح، ولنبدأ بالحرف (ق) إننا نجد أن هذا الحرف كفاتحة في سورة (ق، والشورى).

وإذا عددت مكررات الحرف (ق) في سورة قاف، لوجدتها سبعة وخمسين حرفاً، وهي من مضاعفات الرقم تسعة عشر.

وكذلك الحال في سورة الشورى.

وإذا جمعنا عدد مكررات الحرف في السورتين لبلغ (١١٤) حرفاً، وهو عدد سور القرآن، وهو من مضاعفات الرقم (١٩) إذا ضربناه بستة.

ثم أخذ يتكلم على دقة التوزيع الحسابي للحرف (ق)، بأننا إذا تتبعنا القرآن، لوجدناه في جميع السور التي ذكر فيها لوط عليه السلام وقومه، لوجدناه يقول: قوم لوط، إلا في سورة (ق) فإنه قال: ﴿وإخوان لوط﴾ وذلك من أجل رعاية الرقم حتى يبقى من مضاعفات التسعة عشر، لأنه لو قال: ﴿وقوم لوط﴾ كما هو الحال في بقية السور، لزاد عدد حروف القاف، وصار ثمانية وخمسين

حرفاً، وهذا ليس من مضاعفات التسعة عشر، ولذلك عدل عنه إلى ﴿وإخوان لوط﴾ ليبقى الرقم سبعة وخمسين، وهو من مضاعفات التسعة عشر.

ثم قال: إن هذا مطرد في كل حروف فواتح السور، وضرب على ذلك مثالاً بسورة (ن) وقال:

إن هذا الحرف تكرر فيها (١٣٣) مرة، وهو سبعة أضعاف التسعة عشر.

وكذلك الحرف ص، فإن مجموع مكرراته في ثلاث سور، وهي: الأعراف (المص)، ومريم (كهيعص) وسورة (صٓ) إن مجموع مكرراته في السور الثلاث (١٥٢) وهو حاصل ضرب التسعة عشر بـ ثمانية ١٩ × ٨ = ١٥٢.

وذكر نظير هذا عن فاتحة (طه) وأن عدد مكررات الطاء والهاء يساوي (٣٤٢) وهو حاصل ضرب ١٩ × ١٨.

وكذلك في سورة (يٓس) إذ بلغ عدد مكررات الياء والسين (٢٨٥) وهو حاصل ضرب ١٩ × ١٥.

وهكذا أثبت زعمه أن الرقم (١٩) هو سر القرآن، وبنى عليه ما بنى من التفسيرات الغريبة على ما رأيناه.

وهنا يجدر بنا أن نذكر القارىء بما قاله ميرزا علي مؤسس البهائية من أن هذا الرقم عدد كل شيء، ولذلك اتخذه سراً لدعوته ورمزاً لها.

وإن هذا الذي ذكرناه الآن هو ما قاله هذا الرجل، نقلته بحروفه على ما فيه، قاله ليثبت إعجاز القرآن العلمي من جهة العدد، وليشرح به - فيما زعم - آيات القرآن شرحاً جديداً.

ولكن التساؤل الآن.. هل كان ما أورده صحيحاً؟.

والجواب: لا.. لقد كان كذباً.

وعلى افتراض صحته.. هل هو معجز..

والجواب أيضاً: لا.. على ما سنبيّنه ونثبّته.

إن الكلام الذي ذكره هذا الرجل في محاضرته ودعواه، وما أورده فيها من

أرقام لكلام يلفت النظر، ويثير الدهشة والانتباه، وذلك عندما يسمعه الإنسان لأول وهلة، ويتوهم أنه كلام صحيح ومطرد في كل حرف من حروف القرآن، وكل كلمة من كلماته.

ولكن سرعان ما ينتبه الإنسان من دهشته عندما يرى أن هذا الكلام ليس بصحيح أصلاً، لما احتواه من الأكاذيب والتمويهات التي تشبه أعمال السحرة.

على أنه لو صح فلا إعجاز فيه.

وعلى افتراض صحته وإعجازه، فلا يجوز تحريف آيات القرآن وإخراجها عن ظاهرها به.

فلا يجوز تغيير معناها المفهوم من الألفاظ العربية التي تعبدنا الشارع بفهم القرآن حسب مدلولاتها وقواعدها، مما يفضي بنا إلى الباطنية والإلحاد، وإنما يكفينا على افتراض صحته وإعجازه أن نفهم منه أنه معجز.

وسنبدأ بهذه الأمور على هذا الترتيب الذي ذكرناه.

١ - بيان أكاذيبه في الأرقام التي أوردها:

لقد زعم في بداية كلامه أن عدد حروف البسملة تسعة عشر حرفاً، وأن كل كلمة من كلمات البسملة تتكرر في القرآن الكريم كله عدداً من المرات هو دائماً من أضعاف الرقم تسعة عشر.

قال: فنحن نجد أن كلمة «اسم» تتكرر في المصحف الشريف بالضبط تسع عشرة مرة.

وكلمة «الله» تتكرر (٢٦٩٨) مرة، وهي من مضاعفات التسعة عشر (١٤٢) مرة.

وكلمة «الرحمن» تتكرر (٥٧) مرة، ثلاثة أضعاف الرقم تسعة عشر.

وكلمة «الرحيم» تتكرر (١١٤) مرة، ستة أضعاف الرقم تسعة عشر.

ولنأخذ كلامه فقرة فقرة لنضع أيدي القارىء على ما فيه من الأباطيل.

١ ـ أ ـ كذبه في عدد حروف البسملة:

فهو يزعم أن عدد حروف البسملة تسعة عشر حرفاً، معتمداً بذلك على حروفها المكتوبة، دون المنطوقة، إذ أن حروفها المنطوقة عشرون حرفاً، وليست تسعة عشر.

لأن كلمة «الرحمن» تتكون من سبعة حروف منطوقة، الرحمان، بزيادة الألف وراء الميم.

وهي وإن كانت محذوفة في الرسم القرآني، إلا أنه مشار إليها بألف قصيرة فوق الميم، إشارة إلى الرسم المحذوف في الرسم، مما يجب النطق به، ولا تصح القراءة بدونه.

ونحن لو كتبنا «الرحمان» في غير القرآن لكتبناها بالألف، كما أننا لو طالبنا أي إنسان ممن لا يعرف القراءة والكتابة، إلا أنه يحفظ الفاتحة أو غيرها من السور، ويعرف البسملة، لو طالبناه أن يعد حروف البسملة، لعد الحروف المنطوقة حسبما ينطق بها، ولبلغت عشرين حرفاً، وليست تسعة عشر.

ونظائر هذه الكلمة كثيرة في القرآن، فكلمة العالمين بدون ألف في الرسم، ولكننا ننطق بها، وإلا فلا تصح قراءتنا.

وكلمة «النفاثات» في سورة الفلق، حذف منها ألفان، بعد الفاء، وبعد الثاء «النفث» إلا أننا ننطق بهما، فإذا أردنا أن نعد حروف النفاثات، فإننا لا نعد حروفها المكتوبة، وإنما نعد حروفها المنطوقة، ولو لم ننطق بها لا تصح قراءتنا اتفاقاً.

ولا داعي للاستطراد في هذه الكلمات، لأنها كثيرة، وقد نبه القراء وكتب القراءات عليها، كلمة كلمة في كل القرآن. وحينما نعدها إنما نعد ما ننطق به، لا ما نرسمه.

وذلك لأن رسم القرآن أمر خاص بالقرآن، والعبرة بالنطق الذي يكون موافقاً للرسم تارة، ومخالفاً له أخرى، كما هو معروف في علم القراءات.

فهذا أول كذب له في دعواه العريضة الساذجة، وإذا بطل هذا بطل كل ما بناه عليها، لأنها الأساس في هذه المسألة.

على أننا إذا تجاوزنا هذا، وسلمنا أن عدد حروف البسملة تسعة عشر، حسبما هو مرسوم في القرآن ومكتوب، وغضضنا الطرف عن النطق، فما هو وجه الإعجاز فيه؟.

ب ـ كذبه في مفردات البسملة:

يزعم صاحب الدعوى أن كل كلمة من كلمات البسملة تكرر في القرآن كله عدداً من المرات هو دائماً من مضاعفات التسعة عشر، وهذا لا يمكن أن يكون من صنع البشر.

فقال أولاً: إن كلمة «اسم» تكررت في القرآن بالضبط تسع عشرة مرة.

ولكننا حينما رجعنا إلى «المعجم المفهرس» لألفاظ القرآن الكريم، للمرحوم محمد فؤاد عبدالباقي، والذي اعتمده صاحب الفكرة، وأشار بالرجوع إليه، وجدنا أن كلمة «اسم» تكررت في المصحف اثنتين وعشرين مرة (٢٢) مرة، لا تسعة عشر كما زعم.

وهي بالتفصيل قد وردت مرفوعة ست مرات، ومنصوبة تسع مرات، ومجرورة سبع مرات.

والمعجم موجود في بيت كل إنسان، ويمكن الرجوع إليه.

فأين ما زعمه من تكررها تسع عشرة مرة...؟ إنه الكذب الصريح...؟.

على أنه كان يجب عليه أن يأخذ في التعداد كلمة «باسم» كما وردت في البسملة، لا كلمة «اسم».

وهو لو أخذ كلمة «باسم» لما وجدها في القرآن مكررة إلا سبع مرات فقط.

وعلى كلا الحالين فإن ما زعمه من تكررها تسع عشرة مرة ليس بصحيح، وإنما هو كذب صريح...

ثانياً: زعم أن لفظ الجلالة «الله» وهو الكلمة الثانية من البسملة قد تكرر في القرآن (٢٦٩٨) مرة، وهو حاصل ضرب ١٩ × ١٤٢، أي فهو من مضاعفات التسعة عشر.

ولكننا حينما رجعنا إلى المعجم الذي أرشدنا إليه، وجدناه أيضاً ينص على خلاف هذا، وأن مجموع الكلمة في القرآن (٢٦٩٧) مرة وليس كما زعم، وهذا الرقم الحقيقي ليس من مضاعفات التسعة عشر.

وبالتفصيل وردت ٩٨٠ مرة مرفوعة، و٥٩٢ مرة منصوبة، و(١١٢٥) مرة مجرورة، والمجموع (٢٦٩٧) مرة، وهو ليس من مضاعفات التسعة عشر.

وبهذا يتبين لنا أيضاً كذبه الصريح في الكلمة الثانية من البسملة.

ثالثاً: قال إن كلمة الرحمن وردت سبعاً وخمسين مرة، مرفوعة ومنصوبة ومجرورة، وهو من مضاعفات التسعة عشر، بالحركات الثلاث.

وفعلاً كان الأمر على ما قال...

ولكن وللأسف كان هذا قاصمة ظهر له في كلمة «الرحيم».

لأنه زعم أنها تكررت في القرآن خمساً وتسعين مرة، وهي خمسة أضعاف التسعة عشر.

ولكنه ومع الأسف لم يأخذها هذه المرة مرفوعة ومنصوبة ومجرورة، كما فعل في كلمة «الرحمن» لأن المجموع لا يساعده على فريته، إذ يبلغ المجموع حينئذ (١١٥) مرة وهذا ليس من مضاعفات التسعة عشر، ولذلك عمد إلى أخذها مرفوعة ومجرورة فقط، فكان العدد خمساً وتسعين مرة، وأسقط ورودها منصوبة عشرين مرة؟ ليستقيم له زعمه أنها من مضاعفات التسعة عشر، فهو يسقط ما يشاء ويثبت ما يشاء ليصل إلى غرضه، ولو كان عن طريق التمويه والتدليس...

ولكن المفاجأة ليست هنا أخي القارىء... إن المفاجأة غريبة وعجيبة...

وذلك أن كلمة «الرحيم» لم ترد أيضاً مرفوعة ومجرورة خمساً وتسعين مرة، وإنما وردت أربعاً وتسعين مرة، وهذا ليس من مضاعفات التسعة عشر.

ويبدو أن عبقرية صاحب النظرية قد اعتمدت على الرقم الموجود تحت كلمة الرحيم في المعجم المفهرس، وهو خطأ مطبعي، وهي لم ترد إلا أربعاً وتسعين مرة، كما هو واضح في المعجم.

فأين مضاعفات التسعة عشر في كلمات البسملة؟.

وأين الإعجاز فيها..؟.

إلا أنها الأوهام الباطلة المزعومة لتحريف معاني القرآن الكريم، والأكاذيب المخترعة المكشوفة.

وأية فكرة عبقرية هذه التي تعتمد على الأباطيل والأكاذيب من أول كلمة من كلماتها إلى آخر كلمة؟.

ج ـ كذبه في فواتح السور:

لم يقف أمر رشاد خليفة عند المغالطات والأكاذيب في عدد حروف البسملة، وعدد المرات التي وردت فيها كل كلمة من كلماتها، على ما عرفناه بالأرقام.

لقد استطرد رشاذ في مغالطاته، فانتقل إلى فواتح السور فقال:

«إنا نجد أن نصف الحروف الأبجدية ـ وهي أربعة عشر حرفاً ـ تشترك في تركيب أربع عشرة فاتحة، وهي (ق، ن، ص، طه، طس، يس، حم، الم، الر، طسم، عسق، المر، المص، كهعيص).

وهذه الفواتح نجدها في تسع وعشرين سورة.

فإذا جمعنا عدد الحروف أربعة عشر، مع عدد الفواتح أربعة عشر، مع عدد السور المفتتحة بهذه الفواتح، وهي تسع وعشرون سورة، وجدنا أن الحاصل يبلغ سبعاً وخمسين، وهو ثلاثة أضعاف التسعة عشر.

قال: وهكذا نجد الربط الكامل التام بين بسم الله الرحمن الرحيم وفواتح السور».

وأنا لا أريد أن أناقشه الآن في عدد حروف الفواتح التي زعم أنها أربعة عشر حرفاً، بإسقاط الحروف المكررة، وأخذ رسم الحرف دون نطقه، فأنا لا أريد أن أناقشه في هذا، لأن التدليس فيه واضح، بإثباته ما يشاء وأخذه ما يشاء، كما فعل في كلمة «الرحيم» على ما رأيناه، ودون ضابط، ليصل إلى غرضه، لأن ما قلناه في البسملة نقوله هنا بحروفه.

فعلى تسليم ما قاله جدلاً، لا يتحقق له المراد، وذلك لأنه زعم أن عدد الفواتح أربع عشرة فاتحة.

وهذا ليس بصحيح.

لأن عدد الفواتح المفتتح بها تسع وعشرون أو ثلاثون فاتحة، وهي على التفصيل:

(آلم) وردت ست مرات في البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

(الر) وردت خمس مرات في يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

(المر) وردت مرة واحدة في سورة الرعد.

(المص) وردت مرة واحدة في سورة الأعراف.

(حم) وردت سبع مرات في سورة غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

(عسق) وردت مرة واحدة في الشورى.

(صۤ) وردت مرة واحدة في صاد.

(طس) وردت مرة واحدة في سورة النمل.

(طسم) وردت مرتين في سورة الشعراء، والقصص.

(طۤه) وردت مرة واحدة في سورة طه.

(ق) وردت مرة واحدة في سورة ق.

(كهيعص) وردت مرة واحدة في سورة مريم.

(ن) وردت مرة واحدة في سورة القلم.

(يّس) وردت مرة واحدة في سورة يّس.

فنحن إذ عددنـا هذه الفواتح وجدناها ثلاثين فاتحة إذا جعلنـا (عسق) فاتحة مستقلة، كما هو ثابت في القرآن، إذ جاءت في سورة الشورى آيـة مستقلة عن (حم) وأخذت رقماً مستقلاً.

وكما عدّها هو حينما عدّ الفواتح، إذ عدّها فاتحة مستقلة.

وأما إذا جعلناها مع «حم» فاتحة واحدة، فإن عدد الفواتح يبلغ تسعاً وعشرين فاتحة، وعلى كل الأحوال فإنها لا تشكّل شيئاً من مضاعفات التسعة عشر.

وذلك لأن عدد حروف الفواتح لو أخذ حسب الرسم لبلغ ثمانين حرفاً،

ولو أخذ حسب النطق لبلغ (٢٢١) حرفاً.

وعدد الفواتح حسب الواقع إما أنه ثلاثون، أو تسع وعشرون.

وعدد السور المفتتحة بهذه الفواتح تسع وعشرون سورة.

وعلى أي حال، وبأي كيفية أجرينا الجمع، فإننا لن نصل أبداً إلى رقم يكون من مضاعفات التسعة عشر.

إلا أن صاحب الفكرة، وبطريقة بهلوانية، أسقط المكرر من الحروف، كما أسقط المكـرر من الفواتـح، ليكون المجمـوع عنده سبعـاً وخمسين وهـو من مضاعفات التسعة عشر.

وذلك كما أسقط كلمة الرحيم منصوبة، ليسلم له عددها مجروراً ومرفوعاً من مضاعفات التسعة عشر، ومع ذلك لم يسلم له، لأنه أخطأ في عدها، كما بيّناه.

وبهذه الطرق الملتوية من النفي والإثبات، والإسقاط والاعتبـار، بدون ضابط أو قانون، وإنما يثبت ويسقط حتى يستقيم له العدد كما يشاء ـ بهذه الطرق أثبت صاحب الفكرة الباطلة فكرته.

د ـ كذبه في تكرر حروف الفواتح في السور التي افتتحت بها:

لم يكتف الرجل بما بيّناه من أباطيله، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فزعم أن حروف هذه الفواتح تتكرر في السور التي افتتحت بها عدداً من المرات يساوي أضعاف التسعة عشر.

كما زعم أن هذا يكون في كل حرف من حروف الفواتح المركبة من أكثر من حرف، فقال:

«وعندما ننتقل إلى فواتح السور المركبة من أكثر من حرف، نلاحظ حقيقة قرآنية غاية في الإعجاز، إذ أن هذه الحروف توجد في هذه السور من مكررات الرقم تسعة عشر».

فنحن الآن أمام ادعاءين:

الأول: أن الفواتح المفردة كـ(ص، ون، وق) تتكرر في السورة التي افتتحت بها عدداً يكون دائماً من مضاعفات التسعة عشر.

والثاني: أن فواتح السور التي تتكون من حروف مركبة، كل حرف من حروف الفاتحة يتكرر في السورة التي افتتحت به عدداً من المرات يكون من مضاعفات التسعة عشر.

قاعدة هامة في المنطق:

إنا قبل أن نبدأ بنقد كلامه هذا، وبيان زيفه وكذبه، نريد أن نبين حقيقة علمية منطقية، تكون ميزاناً للبحث والنقد.

وذلك لأننا سوف لا نستطيع أن نتتبع كل كلمة من الكلمات التي قالها، لأنها طويلة، وتفضي إلى الملل، دون فائدة أو جدوى، ولكننا إذا لجأنا إلى هذه القاعدة استطعنا أن نصل إلى النتيجة بسرعة وسهولة ويسر، دون ملل أو كراهية.

يقول علماء المنطق: إن القضية الموجبة الكلية نقيضها قضية سالبة جزئية، كما أن السالبة الكلية نقيضها موجبة جزئية.

فلو أن إنساناً قال: كل حيوان يحرك فكه الأسفل، فإنه يكفينا لأن نبطل كلامه وننقضه أن نذكر صورة واحدة لحيوان واحد يخرج عن هذا التعميم وينقضه فنقول: إن التمساح لا يحرك فكه الأسفل، بل يحرك فكه الأعلى، وبهذا نبطل كلامه ودعواه المعممة.

ولو أن إنساناً قال: لم يثبت عن واحد من الصحابة والتابعين أنه قال: إن لمس الرجل للمرأة ناقض للوضوء، فإنه يكفيني لأنقض كلامه أن أثبت صورة واحدة قد قال فيها واحد من الصحابة أو التابعين بهذا القول، فأقول: روى مالك، عن ابن شهاب الزهري، عن سالم بن عبدالله، عن عبدالله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب أنه قال: «قبلة الرجل امرأته وجسها بيده من الملامسة، فمن قبل امرأته أو جسها بيده فليتوضأ».

وبهذا أبطل تعميمه أن هذا لم يقل به أحد من الصحابة وأنقضه، ولا يهم بعد ذلك ما يقال في المسألة إذ المهم الآن إبطال الدعوى على طريقة الجدال والنظر عند الجدليين.

فهو يزعم أن كل سورة افتتحت بحرف يتكرر هذا الحرف فيها عدداً من المرات يكون من مضاعفات التسعة عشر، وضرب على ذلك مثالاً بسورة (ق) و (القلم).

فقال: «إذا عددت مكررات الحرف (ق) في سورة (ق) لوجدتها سبعاً وخمسين مرة، وهي ثلاثة أضعاف التسعه عشر».

ولقد صدق في هذه فالرقم كما قال، ولذلك جعلها مقدمة لكلامه للإيهام بها في غيرها

ثم قال: «هذه العلاقة الوثيقة المباشرة التي وجدتموها بين الحرف (ق) والرقم تسعة عشر، عددِ حروف بسم الله الرحمن الرحيم، ستجدونها شاملة

لجميع الحروف النورانية، فواتح السور، بدون استثناء، فنحن إذا انتقلنا الآن إلى الحرف (ن) نجد أن هذا الحرف تفتتح به سورة واحدة في القرآن الكريم هي سورة القلم ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ وإذا عددت مكررات الحرف في هذه السورة، لوجدت العدد (١٣٣) وهو يساوي ١٩ × ٧.

كذلك الحرف (ص)».

إلا أنه لم يذكر لنا عدده ، ووضعت النشرة وراء حرف الصاد نقطاً، وهذا كلامه بحروفه.

ا ـ كذبه في (ن):

ولكنني عندما رجعت إلى سورة القلم، وعددت النون فيها، وجدتها تبلغ (١٣١) حرفاً، وهو ليس من مضاعفات التسعة عشر، إذن فقد كذب حينما زعم أنها (١٣٣) ليصل إلى دعواه، ويمكن لأي واحد منا أن يعد هذا بوضع خط أحمر تحت كل حرف (ن) في السورة، أو بغير ذلك من الوسائل.

هـ ـ كذبه في (ص):

ثم عددت بعد ذلك حرف (ص) في سورة صاد، فبلغ (٢٨) ثمانية وعشرين حرفاً، وهذا ليس من مضاعفات التسعة عشر، وليس قريباً منها، علماً بأن السورة قد افتتحت به، إذن فقد كذب به أيضاً.

وبهذا يظهر لنا الكذب الرخيص الساذج الذي سلكه صاحب هذه النظرية ظناً منه أن أحداً لن يعد الحروف لصعوبة عدها.

وقد أراد أن يروج لهذه الدعوى الكاذبة بصورة صحيحة يموه بها على الناس، فبدأ بالحرف (ق) لأنه فعلاً تكرر سبعاً وخمسين مرة، ثم أتبعه ببقية الدعوى الكاذبة، على طريقة السحرة والممثلين، كمن يرى التمساح يحرك فكه الأعلى، فيقول لطفل صغير معه: انظر إلى التمساح، إنه يحرك فكه الأعلى عند الطعام، وهكذا يفعل كل حيوان، إن الطفل حينما يسمع هذا الكلام يصدقه

لبعض الوقت، حتى يرى أي حيوان آخر، فيجده يحرك فكه الأسفل، وعند ذلك تنكشف أمامه الدعوى الكاذبة.

و ـ كذبه في الفواتح المركبة:

ثم قال صاحب الفكرة: «وعندما ننتقل في فواتح السور المركبة من أكثر من حرف نلاحظ حقيقة قرآنية غاية في الإعجاز.. إذ أن هذه الحروف تتواجد في هذه السور من مكررات الرقم (١٩)، بل أيضاً إذا عددت الحروف المتشابهة في السور ذات الفواتح المتشابهة، فإنك تجد أن هذا العدد أيضاً من مضاعفات الرقم (١٩).

أي سواء كان الجمع أفقياً، داخل السورة الواحدة، أو رأسياً شاملاً لجميع السور التي تفتتح بنفس الحروف، فإن المجموع في الحالتين من مكررات الرقم (١٩)».

هذا كلامه بحروفه.

وقد ضرب على ذلك مثالاً بالحرف (ق) من سورة الشورى المفتتحة بـ(حم، عسق) وقال إنه تكرر في السورة سبعاً وخمسين مرة، وهو من مضاعفات التسعة عشرة.

ولقد صدق في هذا.

إلا أنه كذب في كل ما سواه من الحروف في الفواتح المركبة على طريقته في الحروف المفردة، إذ قدم لها بصورة صادقة.

وذلك لأنني عددت بقية حروف فاتحة السورة فوجدت أن الحاء تكررت واحداً وخمسين مرة، وهذا ليس من مضاعفات التسعة عشر.

والميم تكررت (٢٦٩) مرة، وهذا ليس من مضاعفات التسعة عشر.

والسين تكررت (٢٥٢) مرة، وهذا ليس من مضاعفات التسعة عشر.

كما أنني عددت حرف الطاء من سورة (طه) فبلغ (٢٥) خمساً وعشرين مرة وليس من مضاعفات التسعة عشر.

وعددت حرف الكاف من سورة مريم، المفتتحة بـ (كهيعص) فبلغ عدد الحرف (ك) (١٣٤).

وبلغ عدد الحرف (هـ) (١٤٢).

وبلغ عدد الحرف (ص) (٢٥).

وكل هذا كما تراه أخي القارىء ليس من مضاعفات التسعة عشر، وإنما هي دعاوى وأكاذيب.

ويكفينا هذا الذي ذكرناه، عما لم نذكره، مما هو على هذه الطريقة الكاذبة، والقرآن بين أيدينا جميعاً، يمكن لأي واحد منا أن يرجع إليه ويعد ما يشاء من الحروف ليجد كذبه في كل ما ادعاه.

فهو لو كذب في صورة واحدة لانتقضت دعواه، فكيف يكون الحال لو كذب في كل ما ادعاه إلا في صورة واحدة...؟.

أظن أن الأمر لا يحتاج إلى تعليق... فالأمر أوضح من أن يعلق عليه وأكبر وأخطر...

وحسب بعض المسلمين من الغفلة، والانفعال العاطفي، أن تلقى على مسامعهم مثل هذه الأكاذيب في محاضرة عامة، ومن ثم يروج لها في الصحف والمجلات، بل وكُتُبِ بعض المفكرين المسلمين، وهي من الأكاذيب الساذجة.

ولكن على افتراض الصدق في كل ما ادّعى من الأرقام، هل يكون في الأمر معجزة..؟

إننا سنترقى مع صاحب دعوى التسعة عشر درجة أخرى في مجال الجدل ونقول:

إننا على افتراض وجود ما ادعاه من مضاعفات التسعة عشر في كل فقرة أوردها، مما سمعناه وقرأناه في الفقرات الماضية، فإن هذا لا يرقى لدرجة الإعجاز.

وذلك لأن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة، الذي لا يستطيع أحد من أهل الأرض أن يعارضه، بل لو اجتمع عليه كل أهل الأرض لما استطاعوا إلى معارضته سبيلاً، على مر العصور، وكر الدهور، على ما عرفناه في المقدمة[1].

وهذا الذي معنا، وهو دعوى التسعة عشر ومضاعفاتها في كلمات القرآن وحروفه، لو اطرد في كل كلمة من كلمات القرآن، فكانت من مضاعفات التسعة عشر، وفي كل حرف من حروفه، فكانت من مضاعفات التسعة عشر، لما كانت فيه أية معجزة، ولما عدا كونه شيئاً جميلاً يلفت النظر، دون أي إعجاز فيه.

وذلك لأنه بإمكان الإنسان أن يأتي بمثله في كل زمان ومكان، بل بإمكانه أن يأتي بما هو أبدع منه وأعظم.

وهذا على افتراض أنه ورد هكذا مطرداً في كل كلمة أو حرف، فكيف به وهو لم يطرد، بل لم يوجد في كل القرآن إلا في بضع كلمات لا تثير أي اهتمام ولا تلفت أي انتباه..؟.

إن أي طفل صغير اليوم في العالم المتحضر يستطيع أن يعبث بالحاسب الآلي (الكمبيوتر) ليأتينا بما يذهل كل عقل في عالم الأرقام والكلام، ومع ذلك فليس هو بمعجز، ولا بلافت للنظر اليوم.

لقد صنف الحريري مقاماته، ومن جملة مقاماته المقام السينية والشينية.

فالسينية أنشأها وكل كلمة فيها تشتمل على حرف السين، والشينية تشتمل كل كلمة منها على حرف الشين، وكان بإمكانه أن يجعلها من مضاعفات أي رقم شاء، ومع ذلك لم يزد العلماء عن القول بأنها جميلة، ولم يقل أحد إنها معجزة، أو قريبة من الإعجاز.

ولقد صنف اسماعيل بن أبي بكر المقرىء كتابه المسمى عنوان الشرف

---

(١) انظر: معنى المعجزة في ص ١٦، من هذا الكتاب.

الوافي إذا قرأه الإنسان من اليمين إلى الشمال، كان فقهاً، وإذا قرأته من الأعلى إلى الأسفل من اليمين كان عروضاً، ومن الأعلى إلى الأسفل في الخط الثاني من اليمين كان تاريخاً، ومن الأعلى إلى الأسفل في الخط الثالث كان نحواً، ومن الأعلى إلى الأسفل في الخط الرابع كان في القوافي، ومع هذا لم يعتبره الناس معجزة، ولا قريباً من المعجزة.

وإنه ليسهل على الإنسان في أي زمان ومكان أن يصنف أي كتاب على أن يراعي تكرار بعض الكلمات تكراراً يكون من مضاعفات التسعة عشر أو غيرها، وليس في ذلك أية استحالة، أو أية معجزة.

ولقد ذكر المستشار الأستاذ حسين ناجي محمد في كتابه (التسعة عشر ملكاً، والذي صنفه للرد على مزاعم رشاد خليفة في موضوعه الذي نحن بصدده، وكان من السابقين إلى إدراك كذب هذه المحاضرة وما ترمي إليه). لقد ذكر الأستاذ حسين ناجي في كتابه المذكور خمس مجموعات من الكلام الكاذب الذي لا يؤمن به أحد من المسلمين، ومع ذلك فإن كل جملة من جمله تشتمل على تسعة عشر حرفاً، ومجموع الجمل يشتمل على تسعة عشر حرفاً من الألف، وهذا يتكرر في كل مجموعة من المجموعات، ومع ذلك فليس هو بمعجز، بل هو كذب وليس بحق أبداً.

فقال في المجموعة الأولى:

١ ـ البهائية هي الدين الحق. فهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها ٤ ألفات.

٢ ـ بهاء الله آخر الأنبياء. وهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها ست ألفات.

٣ ـ الجنة والنار أكذوبتان. وهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها خمس ألفات.

٤ ـ لا صراط، ولا جنة، ولا نعيم. وهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها خمس ألفات.

وبناء على ذلك فعدد حروف هذه الجمل الأربعة يبلغ (٧٦) حرفاً، وهو أربعة أضعاف التسعة عشر، ويشتمل مجموعها على تسعة عشر حرفاً من حروف الألف.

وهكذا فعل في المجموعات الخمس، كل مجموعة تتكون من أربع جمل، وكل جملة تشتمل على تسعة عشر حرفاً، وكل مجموعة تشتمل على تسعة عشر حرفاً من الألف.

ثم ذكر ثلاث مجموعات أخرى، كل مجموعة تتكون من سبع جمل، وكل جملة تتكون من تسعة عشرة حرفاً، ومجموع الجمل يحتوي على تسعة عشر لاماً فقال:

١ ـ لا بعث ولا حساب ولا جهنم. فهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها ثلاث لامات.

٢ ـ لا صراط ولا جنة ولا نعيم. فهذه تتكون من تسعة عشرة حرفاً وفيها ثلاث لامات.

٣ ـ مهندس الكون الرب إبليس. فهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيه ثلاث لامات.

٤ ـ البهائية هي الدين الحق. فهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها ثلاث لامات.

٥ ـ بهاء الله آخر الأنبياء. فهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها ثلاث لامات.

٦ ـ الجنة والنار أكذوبتان. فهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها ثلاث لامات.

٧ ـ رقم تسعة عشر رمز لابليس فهذه تتكون من تسعة عشر حرفاً وفيها ثلاث لامات.

فمجموع حروف هذه الجمل السبعة يبلغ (١٣٣) حرفاً، وهو سبعة أضعاف التسعة عشر، ومجموع هذه الجمل يحتوي على تسعة عشر لاماً.

ومع ذلك فهو كلام كاذب، وليس بحق، علاوة عن أن يكون معجزاً.

إن الكلام المعجز هو ذاك الكلام الرباني، الذي أذهل البلغاء، والفصحاء، والعباقرة، والمفكرين، وعلماء الكون والحياة، وكل ذي نظر وعقل من أهل الأرض، على مر العصور، وكر الدهور، على ما قرأناه ورأيناه في الفقرات الماضية.

الانحراف بالتفسير الباطني للقرآن:

إننا سنترقى مع صاحب الفكرة الموهومة الباطلة درجة أخرى في الجدل، على طريقة الجدليين ونقول: لنفترض جدلاً أن ورود التسعة عشر ومضاعفاتها في حروف القرآن، وفواتحه، وسوره، كان معجزاً، لنفترض هذا جدلاً، وهو ليس كذلك كما عرفناه بالأرقام، فما علاقة الرقم تسعة عشر بملائكة جهنم وعددهم، حتى نُحَرِّف القرآن الكريم، ونخرجَه عن قوانينه اللغوية الشرعية، ونخرج على الملأ بتفسير باطني جديد لكتاب الله؟.

قال الله تعالى في حق الوليد بن المغيرة: ﴿سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ كذلك يضل الله من يشاء، ويهدي من يشاء، وما يعلم جنود ربك إلا هو، وما هي إلا ذكرى للبشر﴾.

وقد أجمع المفسرون بدون استثناء، كما أجمع كل علماء المسلمين، وكل من يعرف لغة العرب، أن التسعة عشر هو عدد خزنة جهنم الذين أشار القرآن إليهم بقوله: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، وما جعلنا عدتهم ـ أي التسعة عشر ـ إلا فتنة للذين كفروا﴾.

ويأتي صاحب فكرة التسعة عشر الكاذبة الآثمة ليحرف المعنى الجميل المشرق الواضح في القرآن، ويخرج علينا بتفسير باطني جديد، بعيد كل البعد عن المعاني العربية القرآنية، وقوانين التفسير البديهية اليقينية، فيزعم بعد أن ذكر ما ذكر من الأباطيل عن الرقم تسعة عشر، يزعم أن معنى قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ أي عليها بسم الله الرحمن الرحيم، وأن الذي ينكر نسبة القرآن إلى الله ويزعم أن القرآن من قول البشر، سوف يعاقب تحت إشراف التسعة عشر، وهي حروف البسملة. . .؟.

إنه لكلام عجيب وغريب. . لا يكاد العقل يستوعبه لركته وبعده.

وإني ـ يشهد الله ـ حينما قرأت هذا الكلام لأول مرة في حياتي، كنت قبل أن أصل إلى هذه النتيجة المخزية من تحريف كتاب الله، كنت مندمجاً مع النشرة وأنا أقرأ ما فيها من الأرقام من مضاعفات التسعة عشر، ولم أكن بعد قد عرفت ما فيها من المغالطات والأكاذيب في الأرقام، إلا أنني حينما وصلت إلى هذه النتيجة في التفسير الباطني المنحرف، ذهلت، وشرد ذهني فوراً إلى الغاية والغرض من تلك الأرقام ألا وهو تحريف كتاب الله، وإظهار شعار البهائية الملحدة.

ومن ثم بدأت البحث والتحري حتى وصلت إلى هذه النتيجة التي رأيتها أخي القارىء في كذب هذا الموضوع وبطلانه من أوله إلى آخره.

وما علاقة عدد حروف البسملة على افتراض أنها تسعة عشر بعدد خزنة جهنم. . ؟!.

وكيف يكون العذاب تحت إشراف التسعة عشر. . ؟!.

هل ستنقلب هذه الحروف إلى أجساد عاقلة تقوم بالتعذيب؟ أم أنها ستبقى على حرفيتها التي هي عدم محض لا وجود له. . ؟.

وأين سيكون هذا العذاب الذي ستتولاه حروف البسملة. . ؟.

إنه لكلام لا يصدر عن مجنون علاوة عن أن يصدر عن عاقل.

وما مثل قائل هذا إلا كمثل من يرى صندوقين من الفاكهة، يحتوي الأول على التفاح، والآخر على البرتقال، وعدد حبات كل صندوق تسعة عشر، ثم وجد عدداً من صناديق البرتقال الأخرى، فوجد أن محتوياتها من التسعة عشر برتقالة، أو من مضاعفات هذا العدد.

وبعد ذلك كر على صندوق التفاح وقال: إننا اكتشفنا اليوم معنى جديداً فيه، بسبب احتوائه على تسع عشرة تفاحة، وهذا المعنى: هو أن التفاح في حقيقته برتقال.. وذلك لأن عدد حبات صندوقه موافقة لعدد حبات صناديق البرتقال جميعها، إذ أنها احتوت على التسعة عشر أو مضاعفاتها...

إن هذا الكلام على بعده وغرابته ورفضه من قبل أي عاقل، لأقرب من تفسير قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ بحروف بسم الله الرحمن الرحيم، لأن القرآن نص مباشرة وراء هذه الآية أن هذا العدد هو عدد خزنة جهنم كما هو معروف لكل ذي عقل فقال: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾.

وبهذا يتبين لنا مدى المغالطة الكبيرة التي أتى بها صاحب هذه النظرية التي بناها على مغالطات وأكاذيب في الأعداد الموهومة المزعومة.

إلا أننا على افتراض صدقه في كل ما قال فإنه لا يجوز له أن يفسر القرآن بهذه الطريقة الباطلة الباطنية الملتوية، بل يجب عليه أن يفسره بناءً على مدلولات لغة العرب التي خاطبنا الله بها، وتعبدنا بفهم القرآن حسب قواعدها، على ما قدمناه في صدر هذا البحث من القاعدة العامة في التفسير(١).

رشاد خليفة وعلم الساعة:

لعلك أخي القارىء قد ظننت أن الأمر قد انتهى بانتهائنا من بيان بطلان موضوع التسعة عشر وبيان كذبه..؟.

---

(١) انظر: ص ٢٩٥.

وأنت على صواب في هذا.

ولكن ستفاجأ حينما أقول لك إن صاحب نظرية التسعة عشر قد قفز قفزة جديدة رائعة في عالم الخيال والأباطيل، فلم يرد في هذه المرة أن يحرف آيات القرآن فقط، بل أراد أن يلغي بعضها، ويحرف بعضها الآخر..

فزعم ـ والحمد لله إذ فعل حتى يكشف حقيقته لكل أحد ـ زعم أنه يعلم موعد قيام الساعة، وحدده لنا من الآن، حتى يستعد العالم للرحيل فقال:

«إن العالم سينتهي بانتهاء عام ١٧٠٩ هجرية، أي بعد ما يقرب من ثلاثمائة سنة من الآن عام ١٤٠٥ هـ.

ولم يكتف بهذا، بل زاد إليه سنة أخرى ليستقيم له حساب التسعة عشر فقال: إن الساعة ستقوم سنة (١٧١٠هـ) أي بعد استكمال (١٧٠٩) تماماً، وبذلك يكون العدد من مضاعفات التسعة عشر...؟!.

معتمده في معرفة الساعة:

وأما ما اعتمد عليه رشاد في معرفته بعلم الساعة فهو حساب الجُمَّل المعروفُ عند اليهود وعند العرب، وكان اليهود قد حاولوا بواسطته حساب عمر أمة محمد ﷺ، كما قال هو، وكما سنذكره الآن، وقد كذبهم الله بذلك، كما كذبهم رسوله ﷺ، وأثبت الواقع كذبهم، لأنهم حددوا عمر رسالة الإسلام بـ (٧٣٤) عاماً وها نحن نعيش الآن في القرن الخامس عشر.

إلا أن رشاداً أراد أن يتم طريق اليهود، فزعم ـ كما يقول هو نفسه ـ أن اليهود كانوا على صواب في حساب عمر الأمة الإسلامية، إلا أنهم لما حسبوه لم تكن فواتح السور قد نزلت كلها، ولذلك كان حسابهم ناقصاً، إلا أن طريقتهم صحيحة، والآن قد كمل نزول الفواتح، ولذلك فإن الحساب سيكون صحيحاً.

وقبل أن نذكر الحساب الذي أتى به بناء على أكذوبة التسعة عشر، سنذكر الآن ما قاله اليهود في هذا، لأن كلامهم كان بداية طريق رشاد كما قال هو نفسه.

فقد أخرج ابن إسحاق، والبخاري في تاريخه، والطبري في تفسيره، عن ابن عباس، عن جابر بن عبدالله بن رباب قال: مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿ألم ذلك الكتاب﴾.

فقالوا: أنتَ سمعتَه؟.

قال: نعم.

فمشى حيي في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك: ﴿الم ذلك الكتاب﴾؟.

قال: بلى.

قالوا؛ قد جاءك بهذا جبريل من عند الله؟.

قال: نعم.

قالوا: لقد بعث الله قبلك أنبياء، ما نعلمه بُيِّن لنبي لهم ما مدة ملكه، وما أجل أمته غيرك.

فقال حيي بن أخطب، وأقبل على من كان معه: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه، وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟.

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، هل من هذا غيره؟.

قال: نعم.

قال: ما ذاك؟.

قال: «المص».

قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه مائة وإحدى وستون سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟.

قال: نعم.

قال: ماذا؟.

قال: «الر».

قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومئتا سنة.

فهل مع هذا غيره؟.

قال: نعم، «المر».

قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون سنة ومئتان.

ثم قال: لُبِّس علينا أمرك يا محمد، حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً.

ثم قاموا، فقال أبو ياسر لأخيه حيي ومن معه من الأحبار، وما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كلّه، إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون..؟.

فقالوا: لقد تشابه علينا أمره[1].

فهذا واضح صريح في محاولة اليهود لفهم فواتح السور فهماً حسابياً رقمياً، يستدلون به على أمر باطني لا تدل عليه هذه الحروف، لا من قريب، ولا من بعيد، ولا وضعت له، ألا وهو عمر أمة محمد ﷺ، مما أنكره عليهم كل مسلم، وكذبه الواقع.

إلا أن رشاداً أراد ـ كما ذكرت قبل قليل ـ أراد أن يتم طريقهم، فجمع كل فواتح السور، مما جمعه اليهود، ومما لم يجمعوه، فكان الناتج معه (١٧٠٩) ولما لم يكن هذا الرقم من مضاعفات التسعة عشر أضاف إليه سنة أخرى من حسابه الخاص، فبلغ المجموع (١٧١٠) وهذا من مضاعفات التسعة عشر.

ثم قال: وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تكشف هذه الحقائق مع بدء عام (١٤٠٠) من الهجرة، أي قبل النهاية بعدد من الأعوام قد ذكر في القرآن أيضاً

---

(١) الدر المنثور: ١/٢٣ ـ الطبري) ١/٧١.

وهو (٣٠٩) سنة، وذلك في سورة الكهف، في قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾.

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾.

فهو يفسر قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم﴾ أي أهل الأرض ﴿لبثوا في كهفهم﴾ أي في الأرض.

وأما قوله: ﴿ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ أي من تاريخ كشفه لهذا السر المزعوم وهو عام (١٤٠٠) من الهجرة.

ثم يزعم أن الله لم يخف موعد قيام الساعة، وإنما قال: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ (سورة طه: آية ١٥).

ثم يزعم أن الله قال لرسوله مسلياً له في عمر أمته: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي موسى وعيسى، فهما المرادان بالأزواج.

وذلك لأن عمر رسالة موسى (١٤٦٢) سنة وهو من مضاعفات التسعة عشر.

وعمر رسالة عيسى (٥٧٠) سنة ما بين عيسى ومحمد ﷺ.

وأما عمر أمة محمد ﷺ فهو (١٧٠٩) سنة..؟.

فهل سمعت أخي القارىء تفسيراً باطنياً لكتاب الله كهذا التفسير، وهل عرفت تحريفاً كهذا التحريف..؟.

وهل علمت أخي القارىء أن الأمر كله من أصله إلى فرعه، من صنع اليهود وإيحاءاتهم إلى عبيدهم..؟.

وهل علمت أن صاحب نظرية التسعة عشر أراد أن يتم طريق اليهود كما قال هو، لا كما أدعي أنا.

إذا علمت هذا فاعلم أن الأمر ليس أمر إظهار لمعجزة، وإنما هو أمر تدمير المعجزة...

إذن فلا حاجة بنا بعد هذا للإسهاب في الرد.. وإننا لا نخشى على كتاب الله التحريف والتزييف.

وليس هذا أول تفسير باطني، ولن يكون الأخير.

وليس هذا أول افتراء وادعاء ولن يكون الأخير.

لقد تكفّل الله بحفظ كتابه فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

وأما موعد الساعة فلا أظن أن أحداً يمتري في اختصاص الله جل وعلا به، قال تعالى:

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، قل إنما علمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السموات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها، قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (سورة الأعراف: آية ١٨٧).

وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها، فيم أنت من ذكراها، إلى ربك منتهاها﴾ (سورة النازعات: آية ٤٢).

وقد قال رسول الله حينما سئل عن موعد الساعة في الحديث المشهور قال: ﴿ما المسؤول عنها بأعلم من السائل﴾.

فمن أين عرف رشاد ما لم يعرفه رسول الله ﷺ؟!.

لعلها إرهاصات نبوة جديدة تضيف إلى الدجاجلة الذين يكونون بين يدي الساعة دجالاً جديداً...

وأنا لم أذكر كلامه هذا في علمه بموعد الساعة لأرد عليه، فالأمر من البداهة عند كل مسلم أهون من أن يرد عليه، وإنما ذكرته لكشف حقيقة الرجل أمام من لم يعرفه بعد، وليعلم الناس كيف تسير الحركات الباطنية الهدامة في مخططاتها الماكرة الخبيثة... والله الهادي إلى الصواب.

الخـــاتمـــة

إننا وبعد هذا التطواف السريع في جوانب المعجزة والإعجاز وما يتعلق بها لنجد أنفسنا قد عشنا مع المعجزة الحية، نعانيها ونتذوقها، وكأننا في زمن النبـوة، عندمـا كان يتنـزل القرآن عـلى قلب رسول الله ﷺ ويتـذوق العرب حلاوته، وتهفو أفئدتهم لطلاوته، وتتفاعل نفوسهم مع جماله وبراعته.

وهذا هو شأن المعجزة حينما يضع الإنسان يده عليها، ويدرك حقيقتها.

نعم.. لقد عشنا مع المعجزة في جانبي الإعجاز الغيبي والعلمي، ورأينا في بعض صورها المعجزة العادية، ورأينا في بعضها الآخر أعلى وأبلغ وأدق صور الإعجاز التي يمكن للبشر أن يتصورها.

وهذا نظير الإعجاز اللغوي، إذ أن مراتب الإعجاز اللغوي متباينـة في القرآن الكريم، فبعض الآيات والسور في المرتبة الدنيا للمعجزة، وبعضها في ذروة درجات الإعجاز، بحيث تذهل السامع، وتملك عليه قلبه ولبه... وهي في كلا الحالين معجزة، يقال فيها كل ما يقال في المعجزة.

ولا أظن أن إنساناً ما في هذه الأرض، مهما بلغ من الجمود والعنـاد، يتعـرف على المعجزة، في أي نوع من أنواعها، أو صورة من صورها، وبعد ذلك يعرض عنها أو يفر منها.

بل لا أظن أن إنساناً ما في هذه الأرض، يسمعها، ويتعقلها، ويتذوقها، ويستطيع بعد ذلك أن يقف منها موقف اللامبالاة...

إن المعجزة إذا ظهرت تفرض على كل عاقل في الأرض أن يخضع لها ويقر بمدلولها.

وإني لأعتقد أن بعض صور الإعجاز العلمي في القرآن، لو عرضت على أعتى فلاسفة الإلحاد في العالم لجعلته يقف منها موقف الدهشة والاستغراب، ولفرضت عليه أن يذعن لها ويقر بها، لو وقف منها موقف الإنصاف.

كما أني أعتقد اعتقاداً جازماً أن كثيراً من العلماء النظريين والتجريبيين الماديين لو اطلعوا على آيات الإعجاز العلمي في القرآن، لوجدوا أنفسهم مضطرين للإيمان بالله... إذا وقفوا منها أيضاً موقف الإنصاف، وعرضت عليهم العرض الواضح البين...

إلا أنه ومع الأسف لم يتح لأكثر المفكرين الماديين أن يطلعوا على آيات القرآن ليدركوا من خلالها عظمته وإعجازه.

إما للعناد الذي اصطبغ به بعضهم، بعد الثورة العلمية الحديثة، التي عصفت بالدين الباطل، الذي كانت تمثله الكنيسة المنحرفة، إبان الطغيان الكنسي في الغرب مما جعل كل إنسان يكره الدين، بل يكره مجرد السماع به، ويظن أن كل دين على الأرض كذلك الدين الذين ثاروا عليه، وانتقموا منه، ليتحرروا من ذل العبودية والطغيان اللذين كانت تفرضهما الكنيسة، وتقف بهما في وجه العقل والعلم.

وإما للدعاية الحاقدة السوداء، التي يلون بها الإسلام والمسلمون في العالم، بالطرق الماكرة الخبيثة، ومن قبل المؤسسات الكثيرة المنتشرة في العالم، والتي أسست خصيصاً لهذا الغرض، مما جعل الناس ينفرون بمجرد سماعهم لاسم الإسلام والقرآن، ولا سيما عندما تستغل حقيقة التخلف والضياع، والتشرد والفوضى التي يعيش بها العالم الإسلامي، إذ أصبح المسلمون اليوم يعيشون في ذروة التخلف الحضاري في العالم...

وإن الواجب ليحتم على جميع دعاة المسلمين، أن يجعلوا من كتاب الله المادة الأساسية لدعوة الناس إلى دين الله، يخاطبون بمعجزاته عقولهم، ويهزون بتعاليمه مشاعرهم.

وإننا ليجب علينا جميعاً أن نشمخ برؤوسنا عالياً، فخراً واعتزازاً بهـذا الدين العظيم، والقرآن الكريم، الـذي أكرمنـا الله به وحيـاً من كلامـه، ليبقى حياً في نفوسنا، بل في العالم بأسره، يشيع فيه البهجة والمحبة، والصفاء والضياء، ويرشد البشرية الحائرة إلى منزله، ومحكم آياته، لعلها تتدبر أمرها، وتثوب إلى رشدها، وترجع إلى بارئها.

إننا ليجب علينا أن نستعلي بهذا الكتاب، فوق كل ما يعترض طريقنا من الصعاب، ورغم كل ما يفرض علينـا من معاني التخلف والتشـرد، والضياع والفـوضى، ونلاقيـه من البأس والحقد، فـإن أمة أوتيت مثـل هذا الكتـاب، وأكرمت بمثل هذه المعجزة الحية، لا يجوز لها أن تكون أبداً إلا كما كان سلفها في خير أمة أخرجت للناس، قائدة للبشرية إلى مراتب الكمال، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكـر، وتؤمن بالله. متخـذة من هذا الكتـاب العظيـم نبـراسـاً للهداية، ودستوراً لحياة الكرامة والعزة، والسعادة والرخاء.

وإني لأسأل الله أن يعيننا جميعاً على تلاوة كتابه، وتدبر آياته، في خضوع العابدين، وخشوع القانتين، لنتمتع بجمال القرآن وجلاله، ونعيش في فيئـه وظلاله، ونقف على المزيد من الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة، يتم بذلك بعضنا طريق بعضنا الآخر، في طريق الدعوة إلى هذا الدين العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٦

الفهرس

كتب للمؤلف

١ ـ الحديث المرسل حجيته وأثره في الفقه الإسلامي:

أصول فقه وحديث، دار الفكر بدمشق ١٩٧٠ م.

٢ ـ الإمام أبو إسحق الشيرازي:

حياته وأصوله، أصول فقه وتاريخ، دار الفكر بدمشق ١٩٨٠ م.

٣ ـ الوجيز في أصول التشريع:

أصول فقه، مؤسسة الرسالة بدمشق ١٩٨٣ م.

٤ ـ الدين والعلم:

علمي، ثقافي، يناقش أسباب الإلحاد بمنطق العصر الحديث، ويردها، دار الغنائم بالكويت ١٩٨٣ م.

٥ ـ التبصرة في أصول الفقه للشيرازي:

(شرح وتحقيق وتعليق)، أصول فقه، دار الفكر بدمشق ١٩٨٣ م.

٦ ـ المنخول من تعليقات الأصول للغزالي:

(تخريج وتحقيق وتعليق)، أصول فقه، دار الفكر بدمشق ١٩٧٠ م.

٧ ـ التمهيد في تخريج الفروع على الأصول للاسنوي:

(تحقيق وتعليق وتخريج)، أصول فقه، مؤسسة الرسالة بدمشق ١٩٧٨ م.

٨ ـ القواطع في أصول الفقه لابن السمعاني:

(تحقيق وتعليق وتخريج)، أصول فقه، مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، العدد الأول ١٩٨٣ م.

٩ ـ الأصول والضوابط للنووي:

(تحقيق وتعليق وتخريج)، قواعد فقهية، مجلة معهد المخطوطات بجامعة الدولة العربية، العدد الثالث ١٩٨٤ م.

١٠ ـ **الاجتهاد وأنواع المجتهدين**:

أصول فقه، مجلة كلية الشريعة في الكويت ١٩٨٥ م.

١١ ـ **المعجزة القرآنية**:

(الإعجاز العلمي ـ الغيبي ـ مع مقدمة عن المعجزة)، مؤسسة الرسالة.

١٢ ـ **المجلد الأول من كتاب قواطع الأدلة في الأصول**:

أصول الفقه، مؤسسة الرسالة.

١٣ ـ **الاجتهاد وطبقات مجتهدي الشافعية**:

فقه وتاريخ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٨م.

١٤ ـ **فقه الصيام**:

فقه مقارن، دار البشائر، بيروت.